الإسلام وقضايا الحوار

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م



شارع الفتح - أبراج عثمان أمام المريلاند - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٩- ٤٥٠١٢٢٨ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: shoroukintl@hotmail.com

shoroukintl@yahoo.com

الإسلام وقضايا الحوار

دكتور / محمود حمدى زقزوق

ترجمة: د. مصطفى ماهر





﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

[الحجرات: ١٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد كان المأمول أن يكون استقبال العالم للألفية الثالثة بداية مرحلة جديدة فى تاريخ البشرية تتجه فيها نحو السلام والاستقرار والتعاون من أجل التنمية على جميع المستويات لكل الأمم والشعوب . ومن هنا اعتمدت الأمم المتحدة عام ٢٠٠١م عامًا للحوار بين الحضارات .

ولكن هذا الأمل قد تبدد فى العام ذاته بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر . واشتدت وطأة الإرهاب واشتدت المقاومة للإرهاب . وهذه المقاومة تعد أمرًا طبيعيًّا لا جدال فيه . ولكن المفارقة الغريبة أن مقاومة الإرهاب قد أصبحت ستارًا تبرر به بعض القوى فى عالمنا ممارساتها الظالمة التى لا تفرق بين الإرهاب والحقوق المشروعة للشعوب فى الدفاع عن حريتها وكرامتها واستقلالها .

وقد انعكس ذلك بصفة خاصة على الإسلام والمسلمين بشكل لم يسبق له مثيل فى التاريخ . فقد أصبح ينظر إلى الإسلام ـ بعد أحداث سبتمبر المشئومة فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ على أنه دين يشجع الإرهاب والعدوان على الآخرين، وأصبح المسلمون متهمين بالإرهاب والدموية لمجرد أنه قد قيل إن المتهمين فى أحداث سبتمبر مسلمون . وهكذا تداعت الأمم على الإسلام والمسلمين كما تداعت الأكلة إلى قصعتها ـ كما تنبأ بذلك الرسول، عليه الصلاة والسلام[1] .

ومن المعروف أن الإسلام دين قد مضى على ظهوره أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، وأنه كان الدافع للمسلمين لبناء حضارة مزدهرة قدمت للإنسانية على مدى

(١) سنن أبى داود (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨) .

قرون طويلة عطاءً حضاريًا ثريًا ، وكانت أيضًا من أقوى الدوافع للنهضة التى شهدتها أوروبا والتى مهدت السبيل للحضارة الحديثة . وعلى الرغم من ذلك فإن الأمر يبدو فى الظروف الراهنة كما لو أن العالم قد استيقظ فجأة ليرى أمامه دينًا جديدًا غريبًا يسعى لإرهاب العالم . وهذا كله ناتج فى المقام الأول عن الجهل بالإسلام وتعاليمه ومبادئه وتاريخه وحضارته .

ومن هنا فإن الوضع الراهن يفرض على المسلمين أن يبذلوا جهودًا جبارة لتوضيح الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين فى كل مكان فى العالم وبكل الوسائل المتاحة ؛ لتصحيح الأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة والأحكام المسبقة فى أذهان الآخرين .

ولا يزال الحوار مع الآخرين طريقًا مفتوحًا أمام المسلمين للتعريف بالإسلام ـ الذى هو دين السلام ـ وشرح قضاياه ، وإبراز الوجه الحضارى لهذا الدين الذى لا يعرف الإرهاب أو التعصب . فالإرهاب ظاهرة عالمية موجودة فى تاريخ كل الحضارات والأديان ، وليس صناعة إسلامية . والمسلمون أنفسهم ضحايا للإرهاب ، ولن يستطيع العالم القضاء على الإرهاب إلا بالتعاون مع المسلمين من أجل أمن وسلام واستقرار هذا العالم الذى هو عالمنا جميعًا .

ومن أجل المشاركة فى الحوار الدائر بين الأديان والحضارات يأتى هذا الكتاب للإسهام بجهد متواضع فى توضيح صورة الإسلام والمسلمين من خلال الإقناع الهادئ والعرض الموضوعى لتعاليم الإسلام المفترى عليه .

والفصول التى يتضمنها هذا الكتاب[١] سبق تقديمها إلى العديد من المؤتمرات

---

(١) القضايا التى تناولناها بالبحث فى هذا الكتاب جاءت استجابة لطلب الجهات التى قامت بتنظيم ندوات ومؤتمرات الحوار التى دعيت للاشتراك فيها فى عدد من البلاد الأوروبية . وجاءت استجابتى لذلك انطلاقًا من أمرين :

أولاً : التعريف بالإسلام وشرح قضاياه فى محاولة للقضاء على الأحكام المسبقة والأفكار الخاطئة والمفاهيم المغلوطة التى راجت وانتشرت عن الإسلام .

ثانيًا : الإسهام فى جهود الحوار الدينى والحضارى بهدف التوصل إلى مزيد من الفهم المشترك والاحترام المتبادل والتعاون المثمر والتواصل المستمر على جميع المستويات من أجل ترسيخ أسس التعايش الإيجابى بين الشعوب وتحقيق العدل والسلام والاستقرار فى عالمنا الذى أصبح اليوم مثل سفينة تتعرض لأمواج عاتية تكاد تعصف بها وتعرضها للهلاك .

والندوات فى عدد من البلاد الأوروبية وتم نشرها باللغة الألمانية ، كما نشر بعضها بالإنجليزية فى بعض الكتب والدوريات الأوروبية ، ونشرت مع بحوث أخرى عام ٢٠٠٠م فى كتاب باللغة الألمانية بعنوان (**مدخل إلى الإسلام**) من نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وقد قام الأستاذ الدكتور مصطفى ماهر مشكوراً بترجمة معظم فصول هذا الكتاب ترجمة دقيقة - كالعهد به دائمًا - إلى اللغة العربية . ونظرًا لأن الكتاب كان مقصودًا به فى الأصل مخاطبة القارئ الأوروبى فقد وجدنا أن هناك حاجة لإعادة صياغة بعض الأفكار الواردة فى بعض الفصول ، من أجل مزيد من الإيضاح ، أو حذف بعض الفصول ، أو اختصار بعض التفاصيل التى يفترض أنها معروفة بالنسبة للقارئ العربى . ولذلك جاء الكتاب فى طبعته الحالية فى جزء واحد بعد أن كان فى الطبعة السابقة مكونًا من جزءين [١] .

ويشتمل الكتاب على سبعة عشر فصلاً تناولت قضايا الحوار . ولسنا نزعم أننا قد استوعبنا فى هذا الكتاب كل قضايا الحوار ، ولكننا نستطيع القول بأننا قد عرضنا فى هذه الفصول نماذج واضحة للعديد من القضايا التى تطرح عادة على بساط البحث فى مؤتمرات الحوار بين الأديان والحضارات .

ونظرًا لأن هناك فى الغرب تساؤلات عديدة حول الإسلام جعلت البعض يذهب إلى القول بأن هناك وجوهًا عديدة للإسلام يختلف كلٌّ منها عن الآخر ، الأمر الذى شجع البعض فى أوروبا إلى الدعوة إلى إسلام أوروبى ، فقد كان من الضرورى توضيح هذه القضية أولاً قبل البدء فى عرض قضايا الحوار الأخرى . ومن هنا جاء الفصل الأول بعنوان : " إسلام واحد وتفسيرات متعددة " . وقد كانت هذه التساؤلات موضوع الندوة التى أقامتها " دار ثقافات العالم " فى برلين عام ١٩٩١م .

---

(١) الفصول التى لم ترد فى هذه الطبعة هى : التعريف بالقرآن الكريم ، الإنسان بين الإيمان والجحود فى التصور الإسلامى ، الإسلام وثقافة السلام (اكتفاء بالبحث الشامل : السلام فى التصور الإسلامى)، الغزالى : الفيلسوف المتصوف . وقد أضفنا إلى الطبعة الحالية فصلاً بعنوان : [الحوار والاحترام المتبادل بين الحضارات] .

وبعد ذلك عرضنا فى بقية الفصول العديد من قضايا الحوار بدءاً من الاحترام المتبادل بين الحضارات ، والعلاقات الثقافية بين الحضارتين الإسلامية والغربية بصفة عامة ، وبين أوروبا والإسلام بصفة خاصة ، والحوار بين الأديان ، وحقوق الإنسان ، وحرية العقيدة ، والصراع والتعددية ، والأسس العامة للمجتمع الإسلامى ، وقيم العدل والسلام والتسامح ، والتصور الإسلامى لمكانة المسيح عليه السلام ، ولعالم واحد للجميع ، ومشكلة الانحرافات الدينية فى التاريخ الإسلامى ، وجاء الفصل الأخير بعنوان : " المسئولية العالمية المعاصرة فى التصور الإسلامى " .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن الفصول التى يتضمنها هذا الكتاب قد كتبت فى مناسبات مختلفة وعلى فترات متباعدة . ومن هنا فإن القارئ الكريم سيجد فيها بعض الأفكار أو النصوص التى تكررت فى بعض الفصول، ولكننا لم نرد أن نحذف منها شيئًا لارتباط كل فصل بالمناسبة التى أعد البحث من أجلها .

وقد حظى هذا الكتاب فى طبعته السابقة عام ٢٠٠٢م بالحصول على جائزة الرئيس التونسى العالمية للدراسات الإسلامية لعام ٢٠٠٣م، وجاء فى وثيقة منح الجائزة أنها أسندت إلى المؤلف " لتميزه على الصعيد العالمى فى إثراء الفكر الاجتهادى المؤمن بالحوار والتفتح " .

ونأمل أن يكون فى إعادة نشر هذه الفصول فائدة تثرى النقاش وتسهم بجهد متواضع فى تنشيط الحوار الدائر بين الأديان والحضارات من أجل تحقيق الأهداف المرجوة نحو مزيد من التفاهم والتعاون بين الحضارات والأديان لما فيه الخير - كل الخير - للبشرية جمعاء .

والله ولى التوفيق . .

المؤلف

القاهرة : المحرم ١٤٢٥هـ
مارس ٢٠٠٤م

الفصل الأول

إسلام واحد وتفسيرات متعددة

نشأتها ومناهجها المعرفية وأهميتها فى العصر الحاضر

تمهيـد

أولاً : تحديد مفهوم الإسلام

أ - المعنى العام

ب - المعنى الخاص

ثانيـًا : الأخلاق والإيمان

ثالثـًا : نشأة التفسيرات المختلفة

رابعـًا : المنهج المعرفى للتفسيرات المختلفة

خامسًا : الإسلام ومشكلات المجتمع المعاصر

إسـلام واحـد وتفسيرات متعددة(*)

تمهيـد :

لا جدال فى أن موضوع " الإسلام " يشغل اليوم فكر طائفة كبيرة من البشر من خارج العالم الإسلامى . ويرجع ذلك إلى أسباب مختلفة أشد الاختلاف . وطبقًا لهذا الاختلاف في الأسباب ، تختلف النتائج .

والشخص الذى ينظر إلى الإسلام من الخارج ، أى من موقع المراقب الخارجى ، والذى لم يدرك البعد الداخلى للإسلام، يرى نتيجة لهذا وجوهًا عديدة للإسلام - إذا جاز هذا التعبير - . فهو يتلقى العديد من الانطباعات المتفرقة التى لا يعرف لها ارتباطًا داخليًا، أى إنه يتلقى صورة لا تطابق بطبيعة الحال حقيقة هذا الدين ، ولا تعبر عن الإسلام الحق. ولهذا يتساءل عن أى هذه الوجوه التى يتصورها للإسلام هى الصورة الحقة ، وعما إذا كانت مثل هذه الصورة موجودة أصلاً فى دنيا الواقع .

ويشار فى هذا الصدد إلى أن هناك فى البلاد الإسلامية المختلفة عادات وتقاليد متباينة، تختلف من بلد إلى بلد ، وتختلط في جانب منها بتراث ما قبل الإسلام[1]، الأمر الذى يجعل المرء يتساءل : ألا يجد الإنسان نفسه حينئذ مضطراً - عندما يلاحظ سلوك عدد كبير من المسلمين - إلى أن يستنتج أن هناك أشكالاً كثيرة من الإسلام، وأن الإسلام الواحد الحقيقي لا وجود له؟

(*) محاضرة ألقيت فى : " Haus der Kulturen der Welt, Berlin دار ثقافات العالم " فى برلين فى ١٠ ديسمبر ١٩٩١ ، وقد نشرت فى برلين فى كتاب بعنوان : *Gesichter des Islam. Berlin 1992*.

(١) راجع : رودُلف بيترس Rudolph Peters فى الفصل الذي شارك به في كتاب Ende/ Stein-bach, Der Islam in der Gegenwart, 1989, S. 92 = إنده - شتاينباخ (تحرير) : الإسلام في العصر الحاضر ، ١٩٨٩ ، ص ٩٢ .

كل هذه الأفكار وما يشابهها يمكن ـ كما ألمحنا ـ أن نردها إلى نهج فى النظر إلى الأمور يأخذ بالظاهر ولا يغوص فى الأعماق .

فنحن إذا انطلقنا من الإسلام نفسه، أى من منظور " موضوع " الإسلام ذاته ، يتضح لنا مدى سطحية هذه الأفكار ـ وما تنطوى عليه من أحكام ـ لأنها تجهل أو تتجاهل صلب الموضوع ومحوره الأساسى . وهذا هو ما نسعى إلى إلقاء الضوء عليه فى هذه الدراسة .

ولن نشغل أنفسنا كثيراً بالنقد الذى يوجه إلى العالم الإسلامى والذى يشتد حوله الجدل ، على الرغم من إلحاحه على الخاطر . فالسؤال الذى نود الإجابة عنه هو أولاً وقبل كل شىء آخر : ما هو " الوجه " الحقيقى للإسلام ؟ أى ماذا يمكن أن نقوله عن ذلك الإسلام الذى شكّل التاريخ ، وظل باقيًا صامدًا فعالاً حتى اليوم ؟

وفى إطار الإجابة عن هذا السؤال نود أن نشير إلى أن لهذه الدراسة هدفين محددين هما :

أولاً: التعريف بالإسلام من منطلق " باطنه " أو عمقه تعريفًا يواكب ما سنورده فيما بعد تحت الهدف الثانى .

ثانيًا: عرض الموقف الأساسى للإسلام حيال مشكلات المجتمع فى الوقت الحاضر .

وتنقسم الدراسة إلى الفقرات التالية :

١ ـ تحديد مفهوم " الإسلام " .

٢ ـ العلاقة بين الأخلاق والإيمان فى الإسلام .

٣ ـ نشأة التفسيرات المتعددة .

٤ ـ المنهج المعرفى لهذه التفسيرات .

٥ ـ الإسلام ومشكلات المجتمع المعاصر .

أولاً : تحديد مفهوم " الإسلام "

كلمة إسلام تعنى حرفيًّا : الخضوع لله أو إسلام الوجه لله . وإذا نظرنا إلى مفهوم " الإسلام " نظرة منهجية استطعنا أن نفرق بين معنيين، معنى خاص ، ومعنى عام ، ولكن هذه التفرقة لا يقصد منها رسم خط فاصل بين المعنيين ، بل يقصد منها بالأحرى - كما سيتضح فيما يلى - إظهار الرباط الذى يضمهما معًا . فـ" الإسلام " بالمعنى الخاص هو ظاهرة خاصة من " الإسلام " بالمعنى العام .

أ) المعنى العام لمفهوم "الإسلام"

الإسلام بالمعنى العام هو ، كما يؤخذ من القرآن، دين الله الذى يحدد تاريخ البشرية ، والذى دعا إليه جميع الأنبياء والرسل . وهذا هو المعنى الذى عبر عنه الشاعر الألمانى جوته Goethe عندما قال فى " الديوان الشرقى الغربى " :

" إذا كان الإسلام يعنى التسليم لله ، فإننا جميعًا نعيش ونموت مسلمين " .

والقرآن يبين لنا أنه ليس هناك بجانب دين الله، الإسلام، دين حق آخر؛ لأن كل كائن حى مستسلم لله طوعًا أو كرهًا [آل عمران : ٨٣، ٨٤]. وهناك العديد من الآيات التى تتحدث عن المعنى العام للإسلام . ومن ذلك - على سبيل المثال - أن يعقوب - عليه السلام - عندما أحس بدنو أجله سأل أبناءه مَن يعبدون من بعده ؟ فقالوا - كما جاء فى القرآن - :

﴿ **نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

والتوجه إلى الله - طبقًا للتصور الإسلامى - يتم بناء على دعوة من الخالق .

ويشير نوح ـ عليه السلام ـ إلى ذلك فيما يرويه القرآن الكريم الذى يصف نوحًا بأنه مسلم ، أى مستسلم لله . فعندما كلفه ربه بأن يدعو الناس ، قال لهم :

﴿ **فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [يونس : ٧٢] .

ويقول القرآن الكريم بكلمات صريحة واضحة إن الدين الحق منذ أن ظهر الإنسان الأول هو الإسلام لله : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران : ١٩] .

ولهذا يشدد القرآن مرارًا وتكرارًا على أن دين الإسلام فى الأساس دين واحد ، وإنْ بلَّغ رسالتَه أنبياء مختلفون على مر التاريخ ، وهذا ما تعبر عنه ـ على سبيل المثال ـ الآية التالية :

﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ . . .** ﴾ [الشورى : ١٣] .

ولهذا يقول القرآن إن من الخطأ التفرقة بين الرسالات السماوية ، أو بين نبى ونبى ، فالأنبياء كافة أرسلهم ربٌّ واحد .

﴿ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

ومما تقدم يتضح بجلاء أن القرآن يقرر أن أساسيات الرسالات السماوية كلها واحدة ، وأنها تسعى إلى هدف واحد هو : صلاح الإنسان فى دنياه وأخراه .

ب) "الإسلام" بالمعنى الخاص

مفهوم " الإسلام " بالمعنى الخاص يطلق على ذلك الدين الذي دعا إليه النبى محمد فى القرن السابع الميلادى بوصفه وحيًا منزلاً من عند الله ، وبوصفه تصديقًا للرسالات السماوية السابقة المنزلة من عند الله ، وتجديدًا وإحياءً لها ، وكذلك تصحيحًا منصبًّا على كل ما في الديانات السابقة من أمور حرّفها البشر بطريق الخطأ على مدى التاريخ . ومن أجل ذلك يؤكد القرآن هذه الحقيقة فى مواضع عديدة ويبين أنه جاء رحمة وذكرى للمؤمنين [العنكبوت : ٥١] .

والإسلام بهذا المعنى الخاص المشار إليه هو الصراط المستقيم فى عقيدة المسلم ، أى الطريق الذى مهده الله وقضى باتباعه . ويدرك المؤمنون أن صراط الإسلام يعنى الانقياد والخضوع لله سبحانه - كما يقول القرآن الكريم - :

﴿ **وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الحج : ٥٤] .

وأهم علامات طريق الإسلام لا تتمثل فقط فى مجرد أداء الشعائر المتمثلة فى الأعمال الدينية الظاهرية التى فرضها الخالق ، فهذه الشعائر يقصد بها مساعدة المؤمن على صلاح باطنه ، أى صلاح قلبه ، بل صلاح حياته كلها . فالله - كما جاء فى الحديث النبوى - : «**لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**[١]» ومن أجل ذلك يركز الإسلام على النية ويعوّل عليها كثيراً . فالنيات التى تنطلق منها الأعمال ذات أهمية بالغة ، وهذا ما أكد عليه حديث آخر : «**إنما الأعمال بالنيات**»[٢] .

وإذا كانت الحياة الباطنة من الأمور التى لا تدركها الأبصار ، فإن القرآن يعطينا العديد من الإشارات التى تشير إليها . فعندما يأمر الله الإنسان - كما جاء فى القرآن الكريم - بأن يقيم وجهه للدين ، بمعنى أن يخلص توجهه وقصده لعبادة الله وحده ، فإن ذلك يعنى العودة إلى الفطرة التى فطر الله الناس جميعًا عليها :

﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

ولكن كيف يقيم الإنسان وجهه للدين؟ وكيف يتوجه بذاته وكُلِّيته للدين؟ إن الإجابة عن ذلك نجدها فى القرآن الكريم الذي يحض الإنسان على أن يُسْلم وجهه لله ، أي يُخضع نفسه لله وهو مُحسِن :

---

(١) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة رقم (٣٣/ ٢٥٦٤) .

(٢) رواه البخارى فى أول كتاب بدء الوحى رقم (١)، ومسلم فى كتاب بدء الوحى (١٥٥/ ١٩٠٧) .

﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ [البقرة : ١١٢] .

ويمكن أن يستمر السائل فى طرح الأسئلة ، فيقول : كيف يجد الإنسان اللهَ حتى يسلم وجهه له ، وكيف يكون الإنسان محسنًا فى مسلكه ؟ ويجيب القرآن عن ذلك مبينًا أن الذين يسعون ابتغاء وجه الله ، أيًّا كانوا ، لا يجوز ردهم خائبين ، كما جاء فى قوله ـ تعالى : ﴿ **وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

ومن يبحث عن الله بجد وإخلاص يجده ، فهو إذ يبحث عنه يعنى أنه يؤمن به بشكل من الأشكال ، على الرغم من أنه لم "يعرفه" بعد ، كما يعرف أى شيء من الأشياء . ولقد زُوِّد الإنسانُ بوسيلة تعينه في بحثه عن " وجه الله " ، وهى العقل . فالعقل ـ كما يقول الفيلسوف والمتصوف الكبير أبو حامد الغزالى ـ : " أنموذج من نور الله " [(١)] ، أى أن العقل هو القدرة المبدعة التي وَهَبَها الله للإنسان ؛ لكى يكون مسئولا أمام الله عن كل ما يأتيه من أعمال .

وانطلاقًا من ذلك يكون المسلم متبعًا سبيل الإسلام عندما يستخدم عقله وإمكاناته المعرفية ـ طالما كان قادراً على ذلك ـ فى فهم وتدبر آيات القرآن وصحيح الحديث النبوى وآيات الله المنبثة في الكون كلِّه وفى نفسه ، وأن يكون مسلكه فى حياته وفقًا لذلك . وعندما يتصرف على هذا النحو الحر الواعى بمسئوليته ، يأتلف باطنه وظاهره فى وحدة واحدة .

والإنسانية جمعاء مدعوة إلى هذا العمل في حرية ، أي في مسئولية كاملة أمام الله الذى هو مصدر الحرية التى تترتب عليها المسئولية . فالله وحده هو الخالق الذى خلق البشر جميعًا ، وهذا يتضمن الإقرار بأن العقل الإنسانى إذ يدرك ذلك فإنه يكون قد بلغ رشده ، وبأن الإنسان مطالب بأن يقضي بعقله في كل الأمور التى لا تكون النصوص الدينية قد قضت فيها قضاءً قطعيًّا صريحًا لا يحتمل قضاءً آخر .

وتقرر تعاليم القرآن أن الإسلام هو خاتم الرسالات المنزلة . وقد عبر النبى ـ عليه

---

(١) أبو حامد الغزالى ، مشكاة الأنوار ، تحقيق أبى العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٦٤م ، ص ٤٤ .

الصلاة والسلام ـ عن هذا المعنى واصفًا نفسه بأنه اللبنة الأخيرة التى اكتمل بها البناء.

وتبقى هناك مسألة اختلاف الأديان. فعلى الرغم من أن التعاليم الأساسية للأديان السابقة تتفق مع ما أتى به الإسلام، إلا أن هناك فرقًا بينها في الأحكام العملية. والثابت على أى حال أن الخير كل الخير في اعتبار الأديان طرقًا مختلفة تهدف إلى هدف واحد، والجميع مدعوون بنص القرآن إلى التسابق فى صالح الأعمال، وفي الخيرات كلها ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ [المائدة : ٤٨].

أما الأمور التى اختلف فيها أتباع الأديان اختلافًا لا سبيل إلى تسويته، فتنص تعاليم القرآن ، كما جاء فى تكملة الآية المشار إليها ، على أن الله سينبئ هؤلاء وأولئك عندما يرجعون إليه ، بما كانوا فيه يختلفون : ﴿**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ [المائدة : ٤٨].

والقرآن الكريم لا يدع مجالاً للشك في أن السباق المطلوب يدور حول «الخيرات»، التى تعنى كل الأعمال الصالحة التى يقوم بها المؤمن ، تلك الأعمال التى كلما ازداد منها الإنسان كلما وجدت قبولاً متزايدًا عند الله : ﴿**وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا**﴾ [الشورى : ٢٣] .

****

ثانيًا : الأخلاق والإيمان

إن الحديث عن الأعمال الصالحة يرتبط بالضرورة - فى نظر الإسلام - بموضوع العلاقة بين الأخلاق والإيمان . ولقد سبق أن ذكرنا أن الإسلام يرفض التكيف الظاهرى مع أوامر الدين ويعتبره مراءاة ونفاقًا ، ويطلب من الإنسان أن يغير نفسه دينيّا تغييرًا كاملاً يشمل أفعاله ، أى يشمل حياته كلها .

وهناك فى الإسلام علاقة شرطية تبادلية بين الأخلاق والإيمان . ولهذا ورد فى المأثورات الإسلامية : «**الدين المعاملة**» . أو «**الدين حسن الخلق**» وهذه العبارة لا يمكن - من وجهة النظر الإسلامية - قلبها لتصبح المعاملة هى الدين : فالمعاملة وحدها لا تبلغ مبلغ الدين .

ومن الأهمية بمكان أن نؤكد أن الإسلام لا يمكن بحال من الأحول اختزاله فى مجرد وصايا أو تعاليم أخلاقية أو علم أخلاق كما يدعي أحيانًا بعض المفكرين المغالين في الحداثة عندما يتملكهم حماس مفرط [(١)]؛ لأن ذلك لا يعنى إلغاء جوهر الدين فحسب ، بل يعنى فى الوقت نفسه أيضًا تجريد علم الأخلاق من الأساس الذي يقوم عليه .

وفضلاً عن ذلك فإن الفهم الصحيح للأخلاق الإسلامية يمثل شرطًا لا غنى عنه لكل عملية إحياء دينى فى عالم الإسلام . وسنجد في العلاقة بين الأخلاق والإيمان شاهدًا واضحًا كل الوضوح على ذلك .

والأمر الذى نود التأكيد عليه هو أن البساطة الظاهرية التى تتسم بها التعاليم

---

(١) مثل بسام طيبى فى كتابه الذى نشره عام ١٩٨١ بالألمانية بعنوان : أزمة الإسلام الحديث ، ص ٩ .
Bassam Tibi, Die Krise des modernen Islam, München 1981, S. 9 .

الأخلاقية الإسلامية تخفى فى الواقع بنْيَةً مركَّبة إلى حد بعيد، يرتبط بها أن الحرية الإنسانية لها دورها، وأنها طرف أصيل لا يجوز إغفاله .

والقضية التى أود توضيحها هنا يمكن صياغتها فى السؤال التالى : لماذا يذهب بعض المؤلفين فيما يكتبون عن الإسلام تارة إلى أن الأخلاق شرط للإيمان ، ويذهبون تارة أخرى إلى أن الإيمان شرط للأخلاق ؟ ألا يمثل ذلك تناقضًا ظاهرًا ؟ وكيف السبيل إلى سبر أغوار هذا التناقض الظاهرى ؟

ولعل إلقاء بعض الضوء على هذه القضية يزيل ما قد يبدو هنا من تناقض :

أولاً : أما بالنسبة للشق الأول المتمثل فى جعل الأخلاق شرطًا للإيمان فإن هناك أحاديث نبوية تشير إلى ذلك ومن بينها :

«**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١) . وفى حديث آخر : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**»(٢) .

ثانيًا: ومن الناحية الأخرى يبين القرآن أن الإيمان يُعد أساس الدين وأساس الأخلاق ، كما يبين أيضًا أن الله يهب الإيمان لمن يشاء ، فهو وحده المطلع على ما فى صميم قلب كل إنسان . يقول القرآن الكريم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم : ٩٦] . أى محبة رباطها الإيمان .

وفى موضع آخر : ﴿ **وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ..** ﴾ [الشورى : ٢٦].

وعلى العكس من ذلك فإنه لا قيمة لعمل من " يكفر بالإيمان " ـ كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم ـ : ﴿ ... **وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [المائدة : ٥] .

ثالثًا : هذا التناقض الظاهرى فى العلاقة بين الأخلاق والإيمان يتبدد إذا ربطناه بنهج القرآن فى شأن الإنسان ، وبناءً عليه يمتلك كل إنسان فى قلبه علمًا فطريًا بأنه

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان، ومسلم فى كتاب الإيمان .
(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب، ومسلم فى كتاب الإيمان .

مكلَّف بأن يُسْلم وجهه لله . والله قريبٌ كلَّ القُرب من الإنسان، إنه أقرب إليه من ﴿ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] . ويستطيع الإنسان أن يقبَل هذا التكليف أو يرفضه .

والإنسان الذي أمره الله بأن يفعل الخير من أجل الخير، والذى يحثه قلبه على الاستجابة لهذا الأمر وفعل الخير والالتزام به ، هذا الإنسان يصبح مؤمنًا؛ لأن المؤمن الحق هو الذى يفعل كل ما يفعله انطلاقًا من باطن قلبه ، من مستقر الإسلام لله ، وهذا المؤمن يعرف أنه دائمًا فى حضرة الله . ومن هذا المنظور ، من منظور المؤمن ، تكون الأعمال الصالحة كلها عبادة لله . ولهذا يقول الحديث الشريف : «**اعبد الله كأنك تراه**» (١) .

والقرآن الكريم الموصوف بأنه جاء ﴿ ... **لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٥١] يذكرنا بأن الله قد ﴿ **كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ [الأنعام : ١٢] ومن هنا فإن الإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض، أى وكيلاً عن الله فيها، لديه معيار لأعماله يتمثل فى الرحمة التى تمثل الوجه الآخر للعدل الإلهى .

والقرآن لا يطالب الإنسان بأن يتعمق فى معرفة كنه الخير، بل يطالبه بفعل الخير. والله وحده هو الذى يعرف على نحو مطلق ما هو الخير ، وبالتالى يعرف ما هى القيمة التي ينبغى اختيارها فى أى لحظة من بين القيم الكثيرة. فالله وحده هو مالك الحقيقة. ونحن، معشر البشر، أمرنا أن نسعى إلى الحقيقة، وأن نتسلح بالصبر وأن نتشاور فى السعى إليهما جميعاً. ولهذا يسلم المؤمن نفسه للهداية الإلهية ويرجوها. وفى هذا المعنى يقول الحديث النبوى : «**استفت نفسك، البر ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك فى القلب، وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»(٢) .

ومما تقدم يتضح لنا مدى العلاقة الوثيقة بين الإيمان والأخلاق فى الإسلام . فلا يمكن ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ تصور الإيمان بدون أخلاق . ومن ناحية أخرى لا قيمة للأخلاق بدون إيمان . إنهما يشكلان فى الإسلام وحدة واحدة لا تنفصم ، وكلاّ لا يتجزأ .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده. انظر أيضًا كتابنا : الإنسان فى التصور الإسلامي، سلسلة قضايا إسلامية/ القاهرة ٢٠٠١م، ص ٤٢ .

ثالثًا: نشأة التفسيرات المختلفة

لقد أشرنا من قبل إلى أن هناك اختلافات بين الأديان فيما يتعلق بالأحكام العملية، لا فيما يتعلق بتعاليم العقيدة والأخلاق. وأصول العقيدة فى الإسلام هى: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره. وأركان الإسلام طبقاً لحديث النبى هى: الشهادة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله)، وإقام الصلاة (الصلوات الخمس اليومية)، وصوم رمضان، وإيتاء الزكاة، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً. والمسلمون جميعًا في مختلف بلاد الدنيا، وعلى مدى تاريخ الإسلام كله متفقون على هذه الأصول والأركان التى ظلت كما هى دون تغيير أو تبديل.

أما الشريعة الإسلامية فى جانب تعلقها بالأمور الفرعية والشئون الدنيوية ـ كما يتضح ذلك فى الفقه الإسلامى ـ فإنها تنبع أصلاً من الظروف التى أحاطت بزمن نشأتها، وهى ـ كما ستبين الدراسة ـ قائمة مبدئيّا على أساس التطوير المستمر. والإسلام كما سيتضح لنا أيضًا ـ ليس هيكلاً مجردًا، بل هو دين يعيشه الناس. وهو يعطي الإنسان من التوجيهات والإرشادات ما يساعده على أن يطور بصفة مستمرة من حياته ومجتمعه فى إطار المسئولية أمام الله.

ولما كان البشر يتغيرون وتتغير العصور التي يعيشون فيها وبالتالى تتغير المتطلبات المفروضة عليهم، فإن شكل حياتهم فى الإسلام يختلف، ويرتبط بتغير ظروف الزمان والمكان توالى التجديد فى الفقه الإسلامى وفى التأويلات والتفسيرات للإسلام، وضرورة الإحياء الدينى المتجدد. وهناك حديث نبوى يبين فى وضوح أن هناك مُجددًا إسلاميّا يظهر في كل قرن من الزمان(١).

---

(١) «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، رواه أبو داود فى كتاب الملاحم باب١، والحاكم فى «مستدركه» ج ٤ ص ٥٢٢.

ومجال الاجتهاد فى تفسير تعاليم الإسلام مجال واسع متعدد الجوانب . وهذه التفسيرات والتأويلات التى تتجدد باستمرار على مر العصور لا يجوز أن يتصدى للقيام بها إلا خبراء فى كل التخصصات قادرون على مجابهة أحوال الحياة وظروف الزمان المتغيرة وعلى الوصول إلى حلول بناءة للمشكلات المطروحة . ويمكننا على وجه التبسيط أن نصنف التفسيرات المختلفة للإسلام التى ظهرت على مر الزمن في ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى

تضم التقليديين أو المحافظين الذين يرون أن عليهم أن يدافعوا عن استحالة تغيير أى شيء من تعاليم الإسلام حتى لو كان الأمر يتعلق بأمور شكلية لا صلة لها بجوهر الإسلام . وعن هذه المجموعة انبثقت المذاهب السلفية ، وتسعى هذه المجموعة باستمرار إلى تصوير الطريق إلى الله كما يبينه القرآن والسنّة - وما أثر عن الصحابة والتابعين - فى صورة الطريق الأوحد الثابت الذى لا يحتمل التغيير . ولكن تصور هذه المجموعة مرتبط بطبيعة الحال بفهمها لمصادر الإسلام .

المجموعة الثانية

يمثلها تاريخيّا بصفة خاصة المتصوفة المسلمون ، وتذهب هذه المجموعة إلى أن الطريق إلى الله طبقًا لتعاليم العقيدة والأخلاق الإسلامية لا يمكن أن يسلكه إلا من جمع بين الإيمان والعمل . ومن هنا فإن طريقها يشترط الجمع بين النظرية والممارسة كما يقول الغزالى : "وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل "(١) .

وهذا يعنى أيضًا أن تكون هناك صلة وثيقة بين العالم الحسى والعالم الروحى - كما يؤكد ذلك الغزالى أيضًا - فى " مشكاة الأنوار " قائلاً : " والعالم الحسى مَرْقاة إلى العقلى . فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسدَّ طريق الترقى إليه ... "(٢) . وأما عن نتيجة سلوك هذا الطريق فإنه يقول عنها :

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى ص ١٠٠ - دار الأندلس - بيروت ١٩٦٧م .

(٢) مشكاة الأنوار للغزالى ص ٢٠٤ وما بعدها (فى مجموع بعنوان : القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى) - مكتبة الجندى (دون تاريخ) .

" وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله - تعالى - وتحليته بذكر الله " (١) .

ومن الواضح أن الغزالى كان متحمسًا للصوفية تحمسًا لا حد له ، فقد كان هو نفسه صوفيّا كبيرًا ، بل إنه هو الذى استطاع أن يجعل للصوفية مكانًا مقبولاً فى المجتمع الإسلامى .

المجموعة الثالثة

تضم العقلانيين بدءًا من المعتزلة ومرورًا بفلاسفة المسلمين فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية حتى الشيخ محمد عبده فى العصر الحديث وغيره من المفكرين العقلانيين فى مختلف بقاع العالم الإسلامى . وتشدد هذه المجموعة على دور العقل في شرح وتفسير النصوص الدينية .

ويضاف إلى هذه المجموعات الرئيسية الثلاثة تقسيمات لمجموعات أخرى نشأت على أسسس سياسية أدت إلى الانقسام إلى سنة وشيعة . ونظرًا لأن هذا الانقسام الأخير لا يمس أساس الإسلام نفسه ، فكثيرًا ما يتم إغفاله فى مثل هذا المقام .

وهناك مجموعات عديدة أخرى منبثقة عن المجموعات المشار إليها ، لا يمكننا فى إطار هذا البحث المحدود أن نتعرض لها . ويكفى أن نشير إلى أنه بعد ظهور الإسلام بفترة قصيرة نسبيّا ، ازدهرت الثقافة الإسلامية فى عهد الدولة العباسية ، واستمر عصر ازدهارها عدة قرون . وفى هذه الأثناء نشأت المذاهب الفقهية المختلفة ، ومن بينها المذاهب الأربعة التى لا تزال قائمة حتى اليوم فى العالم السنى ، كما نمت وتطورت الاتجاهات المختلفة للمتكلمين والفلاسفة .

وفيما يلى نتناول بإيجاز توضيح المنهج المعرفى لكل هذه التفسيرات المختلفة للإسلام .

---

(١) المنقذ من الضلال للغزالى (مرجع سابق) ص ١٠٠ .

رابعًا : المنهج المعرفى للتفسيرات المختلفة

إن كل التفسيرات المتعددة - وبخاصة تلك التى اعتمدتها المذاهب الفقهية - تقوم على أساس من تفسير القرآن والسنة ، وذلك اعتماداً على قول القرآن الكريم : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ..** ﴾ [النساء : ٥٩] .

وهناك مثال رائع فى السنة النبوية يحدد لنا الطريق الذى يجب على المسلم اتباعه للتوصل إلى الرأى الصحيح فى المسائل التى لا يجد فيها نصّا قاطعًا فى الكتاب والسنة ، وبخاصة فى ظل الظروف المتغيرة باستمرار لعالمنا . فعندما أراد النبى - عليه الصلاة والسلام - أن يبعث معاذ بن جبل إلى اليمن ليتولى مهمة الدعوة سأله : «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟» قال : أقضى بكتاب الله ، قال : «فإن لم تجد فى كتاب الله؟» قال : " فبنة رسول الله " ، قال : «فإن لم تجد فى سنة رسول الله ﷺ ولا فى كتاب الله؟ » قال : " أجتهد رأيي ولا آلو " ، أى لا أقصر[١] . وهذا يعنى أنه سيعتمد بعد القرآن والسنة على عقله وتفكيره فى استنباط الحكم الذى سيقضى به ، وقد اعتبر النبى منهج معاذ مثالاً جديراً بأن يُحتذى ، وامتدحه على حسن فهمه وإدراكه . وفيه أنه ﷺ قال : «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله»[٢] .

وما ذهب إليه معاذ بن جبل هو المعنى المقصود عند استخدام مصطلح الاجتهاد . فالاجتهاد هو العمل الذهني الذاتي المستقل ، أو بمعنى آخر هو استخدام العقل فى

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وأحمد فى مسنده ، وابن عبدالبر فى «جامع بيان العلم» .

(٢) راجع : جامع بيان العلم وفضله لأبى عمر يوسف بن عبد البر ج٢ ص ٦٩ (المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م) .

استنباط الأحكام الشرعية . وهذا يبين لنا أن الاجتهاد هو المنهج المعرفى الذى تقوم عليه التفسيرات المختلفة للإسلام . ولكن اجتهادات الإنسان تظل فى إطار قضايا الفروع الدينية ولا تنسحب على الأصول ، كما أنها من ناحية أخرى تظل مجرد اجتهادات تخطئ وتصيب ، ولا ترقى بأى حال إلى أن تكون حقائق مطلقة .

والاجتهاد له دور مهم فى الحياة الإسلامية ، وبخاصة فى ضوء المناهج التى يستخدمها الفقه الإسلامى لاستنباط الأحكام والتى تعتمد على أربعة أصول أو مصادر هى :

١- القرآن الكريم .

٢- السُّنة النبوية .

٣- القياس .

٤- الإجماع، وهو إجماع المجتهدين في الأمة . والمجتهدون هم المؤهلون للاجتهاد .

وتتلخص المقاصد الضرورية للشريعة الإسلامية في العمل على حفظ وحماية خمسة أمور هى : ١) الحياة ، ٢) العقل ، ٣) الدين ، ٤) المال (أى الملكية الخاصة)، ٥) النسل [١] .

والاجتهاد كما قلنا ليس محصوراً فى المسائل الفقهية العبادية ، بل يشمل كل أمور الحياة ، ومنها بطبيعة الحال الأمور الاجتماعية والسياسية . ومن هنا اعتبر المفكر الإسلامي الشهير محمد إقبال (توفى عام ١٩٣٨) الاجتهاد مبدأ الحركة فى الإسلام .

وبعد هذا التوضيح يمكننا الآن أن نخطو خطوة تالية ؛ لنتناول أكثر المشكلات سخونة وهى تلك التى تتصل بموقف الإسلام من مشكلات المجتمع المعاصر ، وهى مشكلات تجرى مناقشتها اليوم مناقشة حامية تبلغ أقصى مداها فى العالم الإسلامى نفسه ، نظراً لأن العالم الإسلامى يواجه منذ وقت طويل - بشكل يكاد أن يكون يوميًا - ما لا يحصيه العد من مشكلات معاصرة معقدة أشد التعقيد ، وعليه أن يتغلب عليها بشكل عملى وبنّاء ، إنْ أراد البقاء .

---

(١) راجع كتابنا : مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد .

خامسًا: الإسلام ومشكلات المجتمع المعاصر

من الأحكام المسبقة التى تتردد فى العديد من الدراسات الغربية عن الإسلام الزعم بأن الدين الإسلامى هو سبب تخلف المسلمين . ومن ذلك ما ورد مؤخرًا فى دراسة للمستشرقة الألمانية " أنجيليكا نويفرت " التى تشير فيها إلى أن الإسلام هو السبب فى الموقف السلبى غير المنتج للمسلمين[١] . وتزعم صاحبة الدراسة أن القرآن "يفرض على إمكانات الإنسان فى التصرف حدودًا ضيقة" ، فعلى الإنسان – كما تدّعى بفهم خاطئ لتعاليم الإسلام - فى كل ما يأتيه من أعمال " أن ينفذ إرادة الله ، لا أن يحقق أهدافه الخاصة " .

وحقيقة الأمر أن الإسلام - على العكس تماماً مما تزعم المؤلفة - دينٌ يدعو إلى العمل المستقل المسئول ، ويضع المسئولية عن العالم كله فى يد الإنسان[٢] . ولا يتحقق خلاص الروح طبقًا لتعاليم الإسلام إلا بالعمل المسئول للإنسان فى الدنيا ، والذى يتحرى فيه تحقيق مبادئ العدل والرحمة والخير لكل البشر .

فما الذى يحمل الإنسان ، الذى جعله الإسلام خليفة لله فى الأرض وسيدًا عليها ، على أن يكون سلبيّا غير منتج ؟

أليس هو المكلف - دينيّا - بعمارة الأرض وصنع الحضارة فيها ؟

أليس هو الذى تحمل أمانة التكليف والمسئولية التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال ؟

إن السبب في الميل إلى السلبية والتواكلية وعدم الإنتاج فى العالم الإسلامى

---

(١) انظر Angelika Neuwirt, in: Weltmacht Islam, München 1988, S. 80

(٢) انظر فى هذا الكتاب الفصل السابع عشر الخاص بالمسئولية العالمية المعاصرة فى التصور الإسلامى .

اليوم ليس هو الإسلام ، بل يجب البحث عنه فى موضعه الحقيقى الذى لا يمت إلى الإسلام بصلة . وقد أشار المفكر الإسلامى المعروف مالك بن نبى إلى أن التخلف الذى تعانى منه الأمة الإسلامية اليوم ليس سببه الإسلام ، بل الأحرى أن نقول : إنه عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به، كما يظن بعض الجاهلين بحقيقة الإسلام .

وفى دراسة أخرى بعنوان Islam heute (=الإسلام اليوم)[١]، ظهرت فى المجلد الذى ظهرت فيه الدراسة التى أشرنا إليه لتونا ، زعم فيها صاحبها أن الإسلام فى أعين " كثير من أئمة علماء المسلمين ... (يمثل) شبكة من المعايير تحيط بالحياة كلها بل بالمجتمعات الإسلامية كافة " . ونجد فى هذا الزعم مثلاً نمطيّا على الحكم المسبق القديم على أن الإسلام ليس إلا دين قوانين وأوامر ونواهٍ، وأنه لا مجال فيه للروحانيات[٢] .

ويمكننا أن نورد أمثلة كثيرة أخرى على أحكام مسبقة قديمة تظهر بين حين وآخر فى مقالات جديدة شبيهة بالآثار المحفوظة فى متاحف الآثار العتيقة . وإذا صرفنا النظر عن ذلك فإن السؤال الذى يعد أكثر أهمية من مثل هذه المزاعم هو : ما رأى الإسلام أساسًا فى نظام المجتمع؟

وهنا ننوه بما كتبه مؤخرًا واحد من أئمة المستشرقين المعتدلين وهو الأستاذ فريتس اشتبات[٣] Fritz Steppat، حيث بين أن آراء المصلحين الإسلاميين المحدثين فى حل مشكلات العالم الحديث تسترشد بمصلحة جماعة المؤمنين ، وتعتمد الاجتهاد الذى يتيح إيجاد أحكام جديدة .

ونستنتج من هذه العبارة ومن الإيضاحات التى عرضناها قبل ذلك أن " شبكة المعايير " التي تحدث عنها صاحب مقال " الإسلام اليوم " ، ـ وهى عبارة شعرية ـ يمكن الإبقاء عليها بعد تصويب مدلولها ، أى أنها شبكة مفتوحة وليست مغلقة .

---

(١) انظر Arnold Hottinger, in: Weltmacht Islam, München 1988, S. 261

(٢) راجع الفصل الخامس من هذا الكتاب والذى تناولنا فيه الجانب الروحى فى الإسلام ، ففيه رد على مثل هذه المزاعم .

(٣) انظر Fritz Steppat, in: Weltmacht Islam, München , S. 425

وإجمالاً لما سبق نقول : إن لب نظام المجتمع الإسلامى لا يتمثل فى منظومة من قوانين جامدة تشل مبادرة الفرد، مفروضة عليه من خارجه ، ويتحتم عليه اتباعها على نحو آلى ، بل يتمثل لب نظام المجتمع الإسلامي في الأفراد المؤمنين الذين يتصرفون بحرية من منطلق مسئوليتهم أمام الله . ولهذا يعد النظام المثالى للمجتمع الإسلامى نظامًا ديناميكيًا حيًّا يتسع لكل البشر ويتيح لهم إمكانية أن يحيوا حياة خلاقة تليق بكرامتهم بوصفهم أناسًا أحرارًا مسئولين عما يتخذون من قرارات . هذا هو المثل الأعلى للمجتمع الإسلامى (١) .

ولكن ماذا عن الواقع فى المجتمعات الإسلامية ؟

يستطيع المرء فى الوقت الحاضر أن يلحظ وجود ثلاثة اتجاهات غالبة على الساحة الإسلامية فيما يتصل بمسألة التغلب العملي على المشكلات الاجتماعية القائمة ، وإن كنا نود أن نتحاشى قدر الطاقة التعجل بوضع لافتات غير متوازنة قوامها عناوين رنانة . فمن هو فى الحقيقة المسلم الأجدر بأن يُتخذ قدوة؟ هل هو الذى يفتقد الإسلام فى العالم الإسلامى ؟ أم هو الذى يؤكد جدارة العالم الإسلامى بأن يكون مثالاً يحتذى ؟

وتتمثل الاتجاهات المشار إليها فيما يلى :

الاتجاه الرئيسى الأول هو **اتجاه التقليديين** المحافظين أو التراثيين الذى يعتمد مبدأ التمسك الحرفى بالحلول القديمة . ويتحاشى كل محاولات فهم مستجدات العصر ومتغيراته ، بل يتجاهلها .

* الاتجاه الرئيسى الثانى هو **اتجاه العَلمانيين** (٢) الذين يتطرفون فى الذهاب إلى

---

(١) انظر أيضًا فيما يلى الفصل العاشر الخاص بموضوع " الإسلام والأسس العامة للمجتمع " .

(٢) العلمانية ترجمة للكلمة الإنجليزية Secularism يجرى النطق بها فى العربية أحيانًا بفتح العين نسبة إلى العالم (جاء فى القاموس المحيط : العَلْم والعالم الخلق كله) ، كما تقرأ أيضًا بكسر العين نسبة إلى العلْم . وإذا فهمت على هذا النحو أو ذاك فإنها يمكن أن تجد لها مكانًا فى الفكر الإسلامى؛ لأن الإسلام لا يرفض العالم ، بل يحث على عمارته ، كما أنه يجعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . ولكن الاستخدام الشائع فى العالم العربى لهذا المصطلح يحصره فى فصل الدين عن الدنيا أو عن الدولة وعن العلم أيضًا . وهذا ما جعل الكثيرين من العلماء المسلمين ينفرون منه .

عكس اتجاه التقليديين ، ويعرض هؤلاء عن ماضيهم الثقافى ويلتمسون الحل خارج العالم الإسلامى ، إما لدى الماركسية وإما فى غيرها من أيديولوچيات العالم الغربى الأخرى الداعية إلى الحداثة . فهم يعتبرون أنفسهم من أتباع الحداثة على الرغم من أن العالم الغربى أصبح يفهم نفسه على نحو ما ، قل أو كثر ، فى عصر " ما بعد الحداثة " ويقف من اتجاهات الحداثة موقف الناقد .

وتدخل فى عداد اتجاهات العلمانيين الإسلاميين ، تلك الاتجاهات التى تختزل الإسلام فى مجرد وصايا أو تعاليم أخلاقية ، فيخسرون الإسلام كما أوضحنا من قبل فى معرض الحديث عن العلاقة بين الإيمان والأخلاق . وقد أدت هذه العلمانية المفرطة بالضرورة إلى ظهور أشكال مختلفة من الاغتراب والاجتثاث من الجذور على المستوى الدينى والثقافى .

ومن الطبيعى أن نفرق هنا بين العلمانيين المتطرفين والعلمانيين الذين لا يستبعدون الدين استبعاداً مبدئيّا . فهم علمانيون نظراً ؛ لأنهم غير مستعدين لاعتبار الإسلام نقطة الانطلاق إلى تأملاتهم وقراراتهم ، ولكنهم يختلفون عن العلمانيين المتطرفين فى أنهم لم يرفضوا الإسلام رفضًا مباشراً ، بل نحّوه جانبًا .

* الاتجاه الرئيسى الثالث هو **اتجاه يجمع كل جهود التجديد الإسلامية** . وهو يتحاشى مبالغات وتطرف الاتجاهين الرئيسيين السابقين دون أن يغفل عن هدفيهما ، وأولهما الحفاظ على الأصول والتقاليد الإسلامية ، وثانيهما محاولة حل مشكلات العالم الحديث بطريقة بناءة . وأصحاب هذا الاتجاه لا يريدون إذَن أن يتنازلوا عن التراث الإسلامى ، ولكنهم فى الوقت نفسه غير مستعدين للاستسلام فى عبودية للحلول القديمة . وبهذا يتجنبون فى المقام الأول الأحكام الخاطئة الرئيسية التى تلصق بالإسلام ، والتى تتمثل فى المزاعم التالية :

* أولاً : أن الإسلام كما يقال مجرد دين قوانين وتشريعات وأوامر ونواهٍ .

* وثانيًا : أن الإسلام مجرد دين روحانيات ، وأنه غريب عن أمور الدنيا .

* وثالثًا : أن الإسلام سبب كل مشكلات المجتمع الإسلامي ، ومن بينها كل

المشكلات التى يرجع السبب فيها يقينًا إلى تنحية الإسلام جانبًا ، والأخذ بنظم غريبة على المجتمع الإسلامى ـ مثل القومية والاشتراكية ـ دون ممارسة أى نقد لها .

هذا التخلى عن ممارسة النقد يُعد أثرًا من آثار الاستعمار[١] الذى أحدث فى الناس تثبيطًا للهمم وتشتيتًا أضلهم عن سواء السبيل بعد أن ضاعت على الإسلام إلى حد كبير وظيفة بناء الثقافة . ولا يمكن الخلاص من هذا الوضع السيِّئ الذي لم يتم التغلب عليه إلى اليوم بطريقة حاسمة إلا إذا رجع المسلمون إلى أنفسهم وتأملوا أسباب التنكر لتراثهم الثقافي . ولهذا تصدت حركة التجديد الإسلامى منذ القرن التاسع عشر للتأثيرات الهدامة التي تتمسح فى الحداثة .

ومن أبرز شخصيات هذا الاتجاه نذكر جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩-١٨٩٧) والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ـ١٩٠٥) وتلاميذه . وقد كان هؤلاء المصلحون ـ كما قرر ذلك أيضًا بعض الباحثين [٢] يعتبرون " الإصلاح الدينى بمثابة المحرك للتغيير الاجتماعى والسياسى " .

وكان الشيخ محمد عبده يؤمن [٣] بضرورة تنقية المعتقدات الإسلامية من الشوائب التى تسللت إليها نتيجة التفسيرات الخاطئة ، وبأن هذه الخطوة إذا تمّت ، تتيح تحقيق تغيير أساسى فى حياة المسلمين إذا هم عاشوا طبقًا لهذه المعتقدات بعد تنقيتها من هذه التفسيرات الخاطئة ، وهو ما يؤدى فى النهاية إلى حدوث التحول المطلوب فى المجتمع الإسلامى كله .

وقد ميز الشيخ محمد عبده ، عندما فحص الآراء والنظريات الفقهية الإسلامية ، بين القسم الخاص بالفرائض والتى لا تقبل التغيير ، والقسم الخاص بأمور الدنيا والذى يسمح بتفسيرات أساسية جديدة ؛ لأن القرآن والسنة لا يتعرضان لهذا الجانب إلا من خلال مبادئ عامة ، وهو ما عبر عنه الشيخ بوضوح[٤] .

---

(١) يطلق " مالك بن نبى " على هذا التأثير الاستعمارى فى نفوس فريق من المسلمين وصف " القابلية للاستعمار " .

(٢) انظر .Rudolph Peters in: Der Islam in der Gegenwart, München 1984, S. 111

(٣) المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٦ . راجع كتابنا : مقدمة فى الفلسفة الإسلامية ص ١٤٣ـ١٥٧ (دار الفكر العربى ٢٠٠٣م) .

ولقد اجتهد المصلحون الإسلاميون المحدثون في البحث عن إيجاد حلول معقولة للمشكلات الاجتماعية، وهم لم يسيروا فى هذا الصدد خلف التيارات المتحيزة السائدة ، بل اجتهدوا فى تمحيصها ونقدها ، ليس فقط من منظور علاقتها بالحاضر، ولكن أيضًا من منظور علاقتها بخبرات الماضى وبمتطلبات المستقبل. إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق التغيير المأمول فى المجتمع على النحو الذي تصوروه .

صحيح أن **الشيخ محمد عبده** قد حاول البرهنة على أنه ليس هناك تناقض أساسي بين قيم الحضارة الحديثة وبين الإسلام، ولكن الصفوة السياسية الجديدة قد بالغت فى الأمر، وذهبت حتى إلى القول بأن " هناك من ناحية الجوهر مساواة كاملة بين الاثنين " .

ولقد انتهى الأمر بهؤلاء إلى القول بأن الإسلام " ذاب على نحو ما فى الفكر الحديث "(١). وساووا بينه وبين " القيم الإنسانية العامة مثل المساواة بين البشر والديموقراطية والتسامح وحرية الفكر وتأكيد العقل والتقدم " .

ولقد أوضحنا بالمناقشة والتحليل في هذه الدراسة أن الإسلام لا يجوز اختزاله فى مجرد تعاليم أخلاقية أو علم للقيم الأخلاقية، ولا إلى علم للسياسة أو للروحانيات أو للإنسانيات ، دون أن تؤدى بنا عملية الاختزال هذه إلى أن يصبح ما بين أيدينا شيئًا مختلفًا تمامًا عن حقيقة الإسلام. ولهذا لا تزال المشكلة ذاتها قائمة أمامنا إلى اليوم، وهي أن المجتمعات الإسلامية تواجه الصعاب فى التكيف مع العالم الحديث ، تكيفًا يُبقى على تراثها الثقافى ، أى يُبقى على هويتها .

وإذا ما أردنا أن نحل هذه المشكلة فعلينا فى رأيى أن نحرص فى تأملاتنا واجتهاداتنا على حقيقتين :

الحقيقة الأولى

تتمثل فيما اتضح لنا من ضرورة التماس الحلول أولاً في نطاق ثقافتنا الخاصة . إذ إن من الضرورى أن تخرج الحلول كما تخرج الثمار من نبات له جذوره الممتدة

---

(١) المرجع السابق ص١٢٩ .

فى الثقافة الخاصة، وإلا حدث اغتراب . ولكن كيف نمد الجذور فى ثقافتنا الخاصة؟ الإجابة عن هذا السؤال سهلة ومعقدة فى آن واحد . فالحضارة ـ كما أثبتت أحدث البحوث ـ تنبثق من الدين، كما يخرج الغرس من الجذور . ومن هنا فالإجابة واضحة وتتمثل فى الرجوع إلى الدين . وهذا ما يدعو إليه الإسلام . ويعنى هذا أن المسلم يتلقى من أحدث بحوث علم الحضارة نفس الإجابة التى يتلقاها من دينه .

وقد سبق أن رد الشيخ محمد عبده أسباب الخذلان فى المجتمع الإسلامى إلى القصور فى التعليم الدينى . وفى ذلك يقول : " إذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب الخذلان لا نجد إلا سببًا واحداً وهو القصور فى التعليم الدينى [1] .

وفى إطار مثل هذه التأملات حول الدور المحورى للثقافة قامت " دار ثقافات العالم " Haus der Kulturen der Welt فى برلين [2] من خلال سلسلة من المحاضرات بطرح مهمة إبراز الوظيفة الحيوية الخاصة بكل ثقافة على مائدة البحث، ويطيب لى أن أعبر عن ترحيبى بهذا الهدف .

الحقيقة الثانية

تتمثل فى التأكيد على أن مد الجذور في أعماق الثقافة الخاصة لا يعنى الانغلاق إزاء الثقافات الأخرى ، بل إنه على العكس من ذلك يؤدى إلى انفتاح مبدئى عليها . وإذا نحن سألنا هنا عن رأى الإسلام ، فإننا نجد الحديث النبوى يقول لنا : «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن ، فحيثما وجدها فهو أحق بها » [3] .

---

(١) نقلاً عن : الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص ١٤١ ـ دار الفكر بيروت ١٩٧٣م .

(٢) هذه المؤسسة هى التى قامت بتنظيم الندوة التى تم فيها إلقاء هذا البحث . وقد حضرها أيضًا كل من الدكتور فؤاد زكريا والدكتور أبو الوفا التفتازانى والدكتور حسن حنفى والدكتورة زينب عفيفى .

(٣) رواه الترمذى فى كتاب العلم، وابن ماجة فى كتاب الزهد .

وقديمًا بين الفيلسوف الشهير ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) أن دراسة كتب الأقدمين، يعنى علماء ما قبل الإسلام تعد واجبًا دينيًا .

وعندما نلتمس ما جاء فى القرآن الكريم بشأن الانفتاح على الثقافات الأخرى نجد فى سورة الروم (الآية ٢٢) أن اختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وهو ما يعنى اختلاف ثقافاتهم، آية من آيات الله، ونقرأ فى سورة الحجرات (الآية ١٣) أن الله جلت قدرته خلق الناس جميعًا من ذكر وأنثى، آدم وحواء، وجعلهم شعوبًا وقبائل، لهم ثقافات مختلفة، ليتعارفوا، فاختلاف الألسنة والثقافات طبقًا لخطة الخلق من شأنه أن يحفز البشر على أن يتعارفوا. هذا هو هدف الخلق .

ونعود إلى العصر الحاضر لنرى في كل مكان يقظة تعبر عن الحاجة إلى الدخول في حوار صادق مع الشركاء من أصحاب الثقافات الأخرى، فقد بدأ الناس يفهمون أن مثل هذا التعاون الصادق هو السبيل الوحيد أمام الشعوب للتوصل إلى عالم يسوده السلام والاستقرار .

وعلى العالم الإسلامى أيضًا أن يتعلم ويستخلص الدروس ، وعليه أن يستجيب للمطلب الإسلامى ، وأن يوسع أفقه. وهذا هو الطريق الوحيد لتحقيق نهضة ، أى تحقيق ميلاد جديد للعقل الإسلامى الذي برهن من قبل على أن الانفتاح على الثقافات الأخرى يؤدى إلى ازدهار ثقافى عظيم .

لقد جعل الإسلام طلب العلم فريضة على كل مسلم(١) . وحث على طلب العلم من أى مصدر طالما كان ذلك فى صالح الأمة . وقد جاء فى الأثر أن المسلم عليه أن يطلب العلم ، حتى إذا تطلب ذلك الذهاب إلى الصين(٢) . ولكن المشكلة هنا تكمن فى أن هذا المسعى يشترط عملاً مشتركًا تتضافر فيه الثقافات بروح من التسامح الصادق ، ويشترط الإرادة العامة للتعايش السلمى مع الثقافات الأخرى .

وانطلاقًا من هذه الأفكار نجد أنه ليس هناك مبرر معقول يجعل البعض فى الغرب يتسرع فى وصف كل المسلمين الذين يلتمسون حلاً إسلاميًا لمشكلات

---

(١) رواه ابن ماجه .

(٢)رواه الخطيب : تاريخ بغداد (٩/ ٣٦٤) وابن عبدالبر فى جامع بيان العلم (١/ ٨٢٧) . .

مجتمعهم بأنهم " أصوليون " . والأصولية كلمة تستخدم فى اللغات الأجنبية استخدامًا سلبيّا بوصفها وصمة أو سُبةً (fundamentalism) كما أصبحت فى الغرب تعبيراً عن صورة العدو الحديثة . ولكن إذا كان من الضرورى استخدام هذا المصطلح الذى أصبح شائعًا فى عالمنا العربى فإننا نستطيع أن نميز بين صورتين للأصولية مختلفتين تمام الاختلاف :

فمن الممكن - من ناحية - أن تفهم كلمة أصولية على أنها تعني رجوعًا مشروعًا إلى أصول الثقافة الخاصة، مرتبطًا بمحاولة إعادة مد الجذور فى داخل هذه الثقافة ، وهذا المسعى نلاحظه فى الثقافات المختلفة فى كل مكان من العالم، والتى تحرص على ألا تكون هناك قطيعة ثقافية مع تراثها الحضارى والدينى .

ومن الممكن من ناحية ثانية أن تفهم كلمة أصولية على أنها تعنى التعصب والتطرف وما ينجم عنهما من إرهاب . وتلك ظواهر منتشرة أيضًا فى العالم كله . والإسلام يرفض مبدئيّا هذه الظواهر السلبية بشكل قاطع .

ومن هنا فإن من غير المفهوم أو المعقول أن تلصق مثل هذه الظواهر السلبية المنتشرة فى ربوع المعمورة قاطبة بالعالم الإسلامى وحده ، وهو على أى حال غير مستعد للقيام بدور كبش الفداء .

وعلينا أن نواجه كل أشكال التعصب أينما كانت بالتشديد على أن الثقافة الحقة من شأنها أن تنمى روح التسامح نتيجة لاستقامة الفكر والسلوك التى يتسم بها أصحابها . والإنسان لا يحصل على هذه الاستقامة بصورة صحيحة إلا إذا كان قادراً على أن يتخذ قراراته بنفسه فى حرية تامة فى إطار ثقافته الخاصة، لا أن يكون خاضعًا فى قراره لإيديولوچيات أجنبية مستعارة من الخارج .

والاستقامة التى ينالها الإنسان لنفسه بنفسه هى وحدها - بحسب تعاليم الإسلام - التى تمكنه من العمل المسئول بالمعنى الحقيقى للكلمة ، كما أن الاستقامة فى الفكر وفى السلوك من شأنها أيضًا أن تحض على التسامح الحق ، نظرًا لأنها - طبقًا لجوهرها - ترفض كل شكل من أشكال الفكر المعوج وكل أشكال النفاق . وهناك حديث نبوى يدين التلون والنفاق يقول :

" وتجدون شر الناس ذا الوجهين ، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه "[1] .

وتعاليم الإسلام في شأن المسئولية تشمل الإنسانية جمعاء، ولا تنحصر في جماعة بعينها أو أصحاب ثقافة بعينها . ولهذا يقرر القرآن الكريم بأن من ينقذ إنسانًا من الموت، كمن ينقذ البشر كافة، ومن يقتل إنسانًا، كمن يقتل الناس جميعًا .

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

ويعنى نقل هذا المفهوم إلى مجال السياسة أن الهدف المتمثل فى تحقيق العدل للجميع لابد أن تواكبه الدعوة المستمرة إلى الاستعداد للسلام، حتى يمكن الوصول إلى حلول عادلة . أما الحكومة الإسلامية فلابد أن تتكون من خبراء وألا تخرج على الضوابط الإسلامية . وعليها أن تضع نصب أعينها دائمًا المبدأ الأساسى وهو العدل من أجل الجميع .

أما أن تكون هناك بلا شك في التاريخ الإسلامى أو فى أيامنا هذه فى العالم الإسلامى حكومات لا تلتزم بالضوابط الإسلامية ، فهذه قضية أخرى . فموضوع دراستنا هذه هو عرض تعاليم الإسلام لا عرض عيوب المجتمعات الإسلامية التى نلاحظ فى كثير من الأحيان أنها إما زيفت تعاليم الإسلام أو أساءت فهمها أو تجاهلتها .

والمسلمون أنفسهم يعرفون أفضل من غيرهم حقيقة المشكلات المعقدة التى لا حصر لها ، وكذلك التناقضات الحادة فى مجتمعاتهم الإسلامية ، فهم يحيطون بها عن خبرة مباشرة ، ويعرفون الصعاب التى تعترض سبيل العثور على حلول عملية لها ، الأمر الذى يجعلها تبدو فى ظاهرها مستعصية على الحل . كذلك لا يعرف أحد أفضل منهم المسئولية التى علينا أن نأخذها على عاتقنا في كل خطوة نخطوها بغية إنجاز هذه المهام .

---

(١) انظر كتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، باب ذم ذى الوجهين، ص٤٠٣ .

لهـذا فنحن نـرفض الحلول السـهلة المتعـجلة والوصـفـات الجـاهزة ، ونـنصت باحترام إلى تلك الأصوات التى تأتى من العالم الغربى ، والتى يعبر بها أصحابها عن تفهم لعالمنا وخصوصيته ، وعن عدم رغبتهم فى التسرع في إدانته . ومن هذه الأصوات العاقلة المتفهمة نشير بصفة خاصة إلى واحد من كبار المستشرقين المعاصرين ـ الذى أشرنا إليه من قبل ـ[1] وهو الأستاذ " فريتس شتيبات " الذى يتحدث عن " سعة الإسلام " وعن " تنوع الإمكانات التى لدى المسلمين للتعامل مع مشكلات العالم الحديث دون الخروج على قواعد الدين " . ويضيف قائلاً : " والأمل كبير فى أن يتحقق وضع تاريخى يشعر فيه المسلمون بأنهم لم يعودوا مهددين فى تدينهم وهويتهم ، حتى يستطيعوا أن يفيدوا من تلك الإمكانات بحرية كاملة . "[2]

وتحقيق هذا الوضع التاريخى الذى يتحدث عنه الأستاذ اشتيبات يمثل فى رأى المسلمين مهمة مشتركة . فنحن نعيش اليوم كلنا معًا فى " العالم الحديث " فى قرية كونية كبيرة ، ونشارك أو ينبغى أن نشارك جميعًا فى بناء نظام هذا العالم ، حتى يجتاز خطر الفناء ويبقى زاخرًا بالحياة .

وطالما أتيحت للإسلام مهمة القيام بمحاولات لتحسين الظروف الاجتماعية تحسينًا متزايدًا في اتجاه عدالة متعاظمة ، سيظل الإسلام على حيويته . وعلى نحو مثالى فكر الإمام الشهير أبو حنيفة ، الذى جعل من الانفتاح مبدأ لفكره عندما قال : " قولنا هذا رأى ، وهو أحسن ما قدرنا عليه ، فمن جاء بأحسن من قولنا ، فهو أولى بالصواب منا "[3] .

ونحن المسلمين نعتقد أن الكلمة الأخيرة لم يقلها أحد حتى الآن ، وأن هناك آفاقًا جديدة تنفتح باستمرار لكل من يبحث ويبذل كل ما فى وسعه من جهد .

---

(١) انظر : Fritz Steppat in: Weltmacht Islam, München 1988, S. 425

(٢) المرجع السابق .

(٣) انظر : الشيخ محمد أبو زهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد ، وتاريخ المذاهب الفقهية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص ٣٥٨ .

الفصل الثانى

الحوار والاحترام المتبادل بين الحضارات

١ - التنوع سنة الحياة .

٢ - الاحترام المتبادل بين الحضارات .

٣ - وسائل تنمية الاحترام المتبادل بين الحضارات .

الحوار والاحترام المتبادل بين الحضارات (*)

١ ـ التنوع سنة الحياة

لقد أصبحت قضية الحوار بين الحضارات والثقافات من القضايا ذات الأولوية القصوى فى العالم المعاصر . فلم يعد الحوار أمرًا ثانويّا أو هامشيّا، وإنما أصبح اليوم ضرورة حياتية لكل الشعوب فقد تقاربت المسافات وتشابكت الثقافات وتداخلت الحضارات وأزيلت الحواجز بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوجية ، وما صاحب ذلك من التيار الجارف للعولمة .

والسؤال المطروح الآن بإلحاح هو : هل نحن مقبلون على عالم أحادى الجانب تسود فيه حضارة معينة بقيمها وعاداتها وتقاليدها وثقافتها ، الأمر الذى من شأنه أن يؤثر سلبًا على خصوصيات الشعوب والحضارات الأخرى ؟

هل يمكن أن يصل الأمر إلى أن يصبح العالم كله مجتمعًا واحدًا يتم صبه فى قوالب حضارة معينة تذوب فيها بقية الحضارات والثقافات ؟

أم أن عالمًا من هذا القبيل يعد ضربًا من الخيال الذى يدخل فى عداد المستحيلات نظرًا لتناقضه الصارخ مع طبيعة الحياة القائمة على التفاعل الإيجابى بين مختلف التنوعات والاتجاهات على جميع المستويات ؟

إننا لا نتصور قيام مثل هذا المجتمع الأحادى ـ الذى يراد له أن يكون عالمًا تذوب فيه كل التنوعات الحضارية الأخرى ـ ولا يجوز أن يكون هدفًا للبشرية فى سعيها لتحقيق السلام فى العالم .

(*) ألقينا هذه المحاضرة بالألمانية فى المؤتمر الذى عقدته منظمة الإيسيسكو فى العاصمة الألمانية برلين فى ٥/ ٧/ ٢٠٠٠م حول موضوع : " الحوار والتعايش بين الحضارات والثقافات " . وقد قمنا بترجمتها إلى العربية ، ولم تكن ضمن فصول الطبعة السابقة من هذا الكتاب .

إن الأصل هو التنوع - الذى هو سنة الحياة - والذى ينبغى أن نحرص على حمايته . وهذا يعنى التعددية على جميع المستويات السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية والحضارية . وهذا التنوع يؤدى إلى التفاعل الخلاق الذى يؤدى بدوره إلى الابداع المستمر والتجديد المتواصل والتقدم في جميع المجالات .

وعلى الرغم من أن كل الناس - طبقًا لتعاليم الأديان السماوية - ينتسبون إلى أصل واحد فإن الله قد خلق كل إنسان بشخصية خاصة يتميز بها عن الآخرين بشكل أو بآخر ، وأعطانا رمزاً معبراً عن هذه الحقيقة يتمثل فى عدم اتفاق شخصين فى هذا الوجود فى بصمة إبهامهما .

وإذا كان الأمر كذلك فإن كل أمة سوف تحتفظ فى عصر العولمة بخصوصياتها الحضارية التى تتمثل فى الدين واللغة والثقافة والتاريخ والتقاليد الأصيلة ، وبمعنى آخر سوف تحتفظ بحضارتها وهويتها . ومن هنا تأتى أهمية الحوار بين الحضارات والثقافات للاتفاق على القواسم المشتركة التى يمكن أن تشكل أساسًا للإسهام المشترك فى صنع السلام والرخاء فى هذا العالم الذى نعيش فيه ، والذى هو عالمنا جميعًا ، والذى هو أيضًا مسئوليتنا التى ينبغى أن نؤدى حقها ونتحمل أعباءها .

٢ - الاحترام المتبادل بين الحضارات

وإذا كان الحوار يشكل ضرورة حياتية لبلوغ الأهداف المشتركة فإنه من ناحية أخرى قد أصبح لغة العصر التى لم يعد هناك مفر فى عالمنا المعاصر من التعامل بها على جميع المستويات المحلية والعالمية . وعلى الرغم من هذه الأهمية البالغة للحوار فإنه لن يكون هناك حوار حقيقى على أى مستوى دون أن يكون هناك أساس راسخ من الاحترام المتبادل بين أطراف الحوار . فبدون هذا الاحترام المتبادل يفقد الحوار أهميته ، ويصبح بلا معنى ، ولا يحقق أى فائدة .

ولكن كيف يمكن التوصل إلى هذا الاحترام المتبادل لإقامة حوار بناء بين الحضارات والثقافات ؟

إن هناك ـ فى تصورنا ـ خطوات أساسية لابد من مراعاتها لتحقيق احترام متبادل ومتكافئ بين أطراف الحوار . وتتمثل هذه الخطوات فيما يلى :

أولاً: ضـرورة تعـرف كل طرف على الطرف الآخـر . . على آرائه وأفكاره ومعتقداته وأسلوب تعامله ، وبصفة عامة على حضارته .

ومن هنا وجدنا الإسلام يجعل التعرف على الآخرين شرطًا أساسيًا للدخول فى أى تعاملات تتم بين الأمم والشعوب . فمع التأكيد على حقيقة أن الناس جميعًا ينتسبون إلى أصل واحد ، يؤكد الإسلام فى الوقت نفسه على حقيقة أخرى تتمثل فى اختلاف الناس فى جوانب كثيرة . ومع الإقرار بهاتين الحقيقتين فإن الإسلام يؤكد أن هذا الاختلاف (وبلغتنا المعاصرة الاختلاف الحضارى) لا يجوز أن يكون منطلقًا للنزاع والشقاق بين البشر ، بل ينبغى أن يكون بالأحرى منطلقًا للتعارف الذى يعد الخطوة الأولى والأساسية للدخول فى أى حوار . ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

والصيغة التى استخدمها القرآن الكريم لتعرف كل طرف على الطرف الآخر تدل على التفاعل ، بمعنى أنه ينبغى أن يكون هذا التعارف من الطرفين لا من طرف واحد .

ثانيًا: إن التعرف على الآخرين لن يكون مكتملاً ومؤديًا للغرض المقصود إلا إذا كان كل طرف على استعداد تام للاعتراف بحق كل مخلوق بشرى فى الكرامة الإنسانية بصرف النظر عن أى اختلافات أخرى تتصل بالجنس أو اللون أو أى اعتبار آخر . فالكرامة الإنسانية التى منحها الله للإنسان عند خلقه لا تخضع لأى اعتبارات أخرى لا صلة لها بجوهر الإنسان من حيث هو إنسان .

وإدراك هذا المعنى على حقيقته يؤدى إلى تجنب الميل نحو النزعات الاستعلائية أو عقد التفوق العرقى أو الحضارى التى من شأنها أن تقضى على أى فرصة لأى حوار بناء . ولا شك فى أن التعرف على الآخر من منطلق الإقرار بما له من كرامة

إنسانية سيؤدى بدوره إلى احترام الآخر . فهذا الاحترام فى حاجة إلى أساس يرتكز عليه ، وإلا كان مجرد مجاملة دپلوماسية فارغة من المعنى .

ثالثًا: يرتبط احترام الآخر بشكل أساسى باحترام الذات . فاحترام الذات من شأنه أن ينعكس بشكل إيجابى على النظرة إلى الآخر باحترام . وقد أكد الفيلسوف الألمانى كانت على هذه الناحية . وعلى أساس من احترام الذات يدرك المرء أن الآخر مساو له ، وهذا الاعتراف بالمساواة يعنى الاعتراف للآخر بنفس الحقوق التى يطلبها الإنسان لذاته . وعلى ذلك تتأسس قيمة الاحترام المتبادل بين الناس .

رابعًا: إن التعرف الحقيقى على الآخر وعلى حضارته على النحو المشار إليه من شأنه أن يؤدى إلى تأكيد قيمة التسامح الإيجابى إزاء الآخرين ، وليس مجرد التسامح الحيادى . وهذا يعنى الإقرار بالتعددية الحضارية ويعنى أيضًا احترام حضارة الآخر وثقافته مهما كان مستواه من الرقى المادى ؛ لأن احترام الآخر والتعرف عليه من شأنه أن يؤدى إلى تفهم كل الظروف المحيطة به ، ومن شأنه كذلك أن يقضى على الكثير من الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة على كلا الجانبين .

وبناءً على ذلك نستطيع أن نقول إن النظرة الاستعلائية أو عقدة التفوق أو الأفضلية فى الجنس أو اللون أو المستوى الحضارى قد أصبحت نظرة متحفية تنتمى إلى الماضى ، ولم تعد تتناسب بأى حال من الأحوال مع عالمنا المعاصر .

ومن هنا فإن الرؤية المعاصرة المتفتحة على الآخر ، والمتفهمة للظروف المحيطة به ، لا يجوز أن تقف عند حد المظاهر الشكلية أو التقدم المادى ، وإنما ينبغى أن تتمحور بشكل أساسى حول جوهر الإنسان بما هو إنسان .

ولن يتحقق حوار مثمر بين الحضارات إلا على أساس هذا الاحترام المتبادل والمتكافئ . أما إذا غاب هذا الأساس ، وغابت النظرة إلى جوهر الإنسان ، وتركزت على المظاهر الشكلية فإن ذلك يعنى غياب الاحترام المتبادل ، وبالتالى غياب الحوار الإيجابى المثمر .

ومن شأن ذلك أن يؤدى إلى السقوط فى هاوية الصراع الحضارى الذى ينبنى على عدم فهم الآخر ، وعدم احترامه أو احترام حضارته ، ومحاولة فرض الهيمنة عليه ، وإجباره بطريق مباشر أو غير مباشر على التخلى عن قيمه لصالح قيم أخرى يعتقد أصحابها أنها وحدها التى ينبغى أن تسود العالم كله ، الأمر الذى يؤدى إلى العولمة السلبية التى تعمد إلى إلغاء الآخر ، أو على الأقل تعمل على إلغاء خصوصياته الحضارية . وهذا بدوره يؤدى إلى صدام لا مفر منه ، وحينئذ يصبح مستقبل العالم فى مهب الريح . وهذا ما لا يرضاه عاقل فى هذا الوجود .

٣ ـ وسائل تنمية الاحترام المتبادل بين الحضارات

وعلى الرغم من أنه من منطلق وحدة الجنس البشرى ينبغى أن يكون احترام الآخر من الأمور البديهية التى لا خلاف عليها ، والتى لا تحتاج إلى جهد فى إقناع الناس بها ، فإن الواقع يبين لنا أن ما ينبغى أن يكون شىء ، وما هو كائن شىء آخر . وللوصول إلى ما ينبغى أن يكون فى هذا الصدد لابد من بذل جهود كبيرة لترسيخ الوعى بقيم الاحترام المتبادل بين الشعوب والحضارات عن طريق العديد من الوسائل الفعالة . ومن أهم هذه الوسائل ما يأتى :

أ ـ **التعليم** : إن هدف التوصل إلى تفهم حقيقى واحترام متبادل بين الحضارات لا يمكن بلوغه إذا اقتصرت مناهج التعليم على مجرد التعريف بالحضارات والثقافات الأخرى ، وإنما ينبغى أن تشتمل على خطوة أخرى متقدمة على هذا الطريق تتمثل فى غرس الوعى بالقيم الحضارية المشتركة ، ومن أهمها بطبيعة الحال قيمة احترام الآخر واحترام حضارته وثقافته مهما اختلفنا معها .

ولعله من نافلة القول أن نؤكد أن احترام الحضارات الأخرى لا يعنى القبول المطلق بها أو مجرد عدم الرفض الحيادى لها . وإنما يعنى تفهم مواقفها واتجاهاتها والظروف المحيطة بها . فهذه الحضارات هى فى النهاية جهد بشرى بذله أصحابه من أجل ترقية الحياة ، كل بطريقته الخاصة وبوسائله المتاحة ، وهو أيضًا حلقة فى سلسلة جهود أخرى على مدى التاريخ . ومن هنا فإن البشرية تدين لمن بذلوا هذه الجهود بالفضل ، فقد أسهموا بشكل أو بآخر فى تطوير الحياة وتقدمها وازدهارها على جميع المستويات .

واحترام الحضارات الأخرى هو تقدير لكل هذه الجهود التى بذلت ، وللعقول التى خططت ، وللسواعد التى قامت بالبناء والتشييد من أجل خير الإنسان .

وهذه أمور ينبغى أن تعمل كل الأطراف على غرسها فى عقول الناشئة فى مراحل التعليم المختلفة؛ لأنها سوف تساعد على خلق المناخ الملائم لإجراء حوار حضارى مثمر ، فأى حوار فى حاجة إلى مناخ صحى ليكون مفيدًا ومثمرًا .

ب ـ الإعلام: وبجانب التعليم يأتى الإعلام فى مقدمة الوسائل الهامة لغرس قيم الاحترام المتبادل بين الحضارات فى نفوس الأفراد والجماعات . ونعنى هنا الإعلام المسموع والمقروء والمرئى ، وما استجد من تطورات فى وسائل الاتصالات والمعلومات . فإذا كانت مناهج التعليم يقتصر أثرها على حدود الدولة التى تطبقها فإن الوسائل الإعلامية الحديثة قد ألغت الزمان والمكان وأصبحت تصل بما تحمله من معلومات إلى كل مكان فى العالم ، وفى اللحظة ذاتها التى يحدث فيها الحدث . ومن هنا فإن لهذه الوسائل تأثيرًا بالغ الأهمية وعميق الأثر على قطاعات عريضة من الشعوب فى جميع أنحاء العالم .

ج ـ المؤسسات الدولية : لا شك فى أن المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة بمنظماتها المختلفة وأهمها منظمة اليونسكو تستطيع أن تقوم بدور فعال على مستوى العالم من أجل التوعية بالدور الذى قامت به الحضارات على مدى التاريخ ، وما أسهمت به من تطوير للحياة والارتقاء بها ، الأمر الذى يجعل هذه الحضارات جديرة بالاحترام والتقدير ، ويجعل هذا الاحترام متبادلاً ومتكافئًا بين الحضارات والثقافات، ويعمل فى الوقت نفسه على نشر ثقافة السلام فى العالم التى أصبحت اليوم ضرورة لا غنى عنها إذا أريد لعالمنا أن ينعم بالسلام والاستقرار من أجل خير البشرية.

وقد كانت الأمم المتحدة واعية بمسئوليتها حين جعلت من عام ٢٠٠١م عامًا للحوار بين الحضارات . ولكن الأمر فى حاجة ماسة إلى القيام بحملة دولية للتوعية بدور الحضارات فى تاريخ البشرية وإشاعة الاحترام المتبادل فيما بينها ، والعمل المشترك من أجل صنع السلام فى العالم ، هذا السلام الذى كان ولا يزال وسيظل هدف البشرية من أجل خير الإنسان وسعادته .

الفصل الثالث

الإسلام وأوروبا

ضرورة الحوار وآفاق المستقبل

١ ـ تمهيـــــد

٢ ـ ضرورة التضامن

٣ ـ عقبات التفاهم

٤ ـ ضرورة الحوار

٥ ـ طرق الحوار

٦ ـ الحوار والتعددية الحضارية

٧ ـ التأثير المتبادل

٨ ـ القواسم المشتركة

٩ ـ كلمة ختامية

الإسلام وأوروبا
ضرورة الحوار وآفاق المستقبل(*)

١ـ تمهيد

عندما نتحدث اليوم عن ضرورة الحوار بين أوروبا والإسلام فى ظل الظروف الراهنة نجد أنفسنا أمام سؤال يفرض نفسه عما إذا هذا السعى نحو الحوار بين الجانبين يعد أمرًا جديدًا ، أم أن الأمر يدور حول استئناف جهود سابقة لها جذور ممتدة فى التاريخ ؟ .

وبادئ ذى بدء نزعم أن الحوار بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية قديم قدم الإسلام ذاته ، وأنه على الرغم من كل الصراعات بينهما على مدى القرون الماضية فإن الحوار بينهما كان دائماً أمرًا ملحّا كما هو الشأن اليوم أيضًا . وسنحاول فى الصفحات التالية البرهنة على ذلك .

إن التاريخ الإسلامى يبين لنا أن النبى ﷺ قد أجرى فى مسجده فى المدينة أول حوار دينى فى الإسلام مع وفد نصارى نجران ، وأقام مجتمع المدينة على التعددية الدينية والثقافية التى يتمتع فيها جميع المواطنين بنفس الحقوق بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية(١) .

(*) محاضرة ألقيت فى مؤسسة روبرت بوش الخيرية بمدينة اشتوتجارت بألمانيا فى ١١/ ٦/ ٢٠٠٢م . وقد أجرينا عليها بعض التعديلات الطفيفة فى الترجمة العربية . ونظرًا لأن هذه المحاضرة لم يتضمنها الكتاب الذى تولى ترجمته الدكتور مصطفى ماهر ؛ لأنها لاحقة لصدور الكتاب فقد تولينا مهمة ترجمتها إلى العربية .

(١) تراجع فى ذلك صحيفة المدينة التى أصدرها النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والتى تعد أول دستور إسلامى يقرر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة ، كما تعد فتحًا جديدًا فى الحياة السياسية والحياة المدنية حينذاك . (انظر : حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ٢٢٥ وما بعدها ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م) .

والإسلام ـ كما هو معروف ـ يطلب من المسلمين بكل صراحة ووضوح الاعتراف بكل الأديان السماوية السابقة . ولا يجوز للمسلمين بناء على ذلك أن يفرقوا بين الأنبياء مثل موسى وعيسى ومحمد ـ عليهم السلام . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] . والقرآن يطلب من أتباع هذه الأديان المختلفة الابتعاد عن كل ما يجلب الشقاق والنزاع ، وضرورة التركيز على التنافس المثمر فى مجال الخيرات : ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وقد شعر المسلمون منذ البداية بالتضامن مع المسيحيين الذى ينتمون مثلهم إلى دين سماوى . وفى هذا الصدد يخبرنا القرآن الكريم بأن المسلمين قد أصابهم الحزن عندما وقعت معركة بين الفرس والروم الشرقيين انهزم فيها الروم المسيحيون على يد الفرس الوثنيين . وعندئذ خفف القرآن الكريم عليهم وقع هذه الصدمة مبشراً بأن الروم سينتصرون فى المرة القادمة : ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ** ﴾ [الروم : ٢ـ٥] . وقد حدث ذلك النصر الموعود كما أخبر القرآن . وفضلاً عن ذلك فإن القرآن يبين لنا أن المسيحيين هم أقرب الناس مودة للمسلمين : ﴿ **وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ** ﴾ [المائدة : ٨٢] .

وعند التأمل الدقيق للتاريخ نستطيع أن نتبين بوضوح أن الحضارتين الأوروبية والإسلامية فى نشأتهما وتطورهما لم يكونا فى يوم من الأيام شيئين منفصلين تمامًا . فقد قامت كل منهما على أساس من التفاعل الثقافى المثمر ، وظلتا من خلاله تتميزان بالحيوية ، وكانتا من أجل ذلك قادرتين رغم كل الحروب بينهما على البحث عن السلام ، والبحث فى الوقت نفسه أيضًا عن الحماية الفعالة لذاتيتهما .

٢- ضرورة التضامن

لقد أصبح عالمنا المعاصر ـ كما يقال باستمرار ـ بمثابة قرية كونية ، ومن هنا تواجهه مهمة صنع السلام عن طريق التضامن العالمى . وهذه الصورة عن القرية الكونية

تصيب إلى حد كبير كبد الحقيقة ، ولكنها لا تدرك إلحاح الموقف إلا بدرجة ضئيلة . ولعل الوصف الأكثر ملاءمة للإنسانية اليوم هو أنها تمثل جماعة استقرت على ظهر سفينة كونية تبحر عبر الفضاء الكونى ، ويتحتم عليها أن تتجنب حدوث أى خلل فيها بأى ثمن .

وقد استخدم النبى - عليه الصلاة والسلام - فى حديث له هذا التصوير الرمزى الذى نستعيره هنا للموقف الراهن لعالم اليوم ؛ لكى نؤكد من خلاله على ضرورة التضامن العالمى بين الناس . وقد كان النبى - عليه الصلاة والسلام - يرى أن القسم المتميز من مجتمع السفينة إذا لم يهتم بصورة كافية بالقسم الآخر المجرد من الامتيازات فإن هذا القسم الأخير سوف يتسبب إن عاجلاً أو أجلاً - بقصد أو بغير قصد - فى إعطاب السفينة وبالتالى فى غرق الجميع[1] .

ونحن نطلق اليوم على الصراع الراهن فى العالم مصطلح صراع الشمال والجنوب . والواقع أن العالم اليوم يحتاج أكثر من أى وقت مضى إلى مثل هذا التضامن الشامل لإقامة نظام راسخ لسلام عالمى . فالعالم فى حاجة إلى نظام سياسى كونى يسعى لمراعاة حقوق كل الناس بمن فيهم الفقراء . وبدون ذلك لن يستطيع العالم حل المشكلات التى تحاصره من كل جانب .

والعالم الإسلامى على وجه الخصوص شديد الاهتمام بكل المحاولات الرامية لاستقرار سياسة العالم . وهذا الاستقرار لن يحدث فى نهاية الأمر إلا من خلال جهود مشتركة لكل الشعوب فى الحوار وفى التعاون فيما بينها ، وذلك لأن سيطرة بعض الشعوب المنفردة تقود بالضرورة كما يعلم الجميع - سواء أردنا أم لم نرد - إلى الدكتاتورية ؛ لأن القوة التى لا ضابط لها تقود فى الغالب إلى إساءة استخدامها . ونموذج هتلر ليس ببعيد عنا ، ويخشى أن يتكرر هذا النموذج اليوم بصورة أكثر بشاعة بحجة محاربة الإرهاب وحماية الحضارة .

إن المدنية التكنولوچية التى تسود العالم اليوم قد جلبت للعالم كله شبكة من العلاقات فى شئون الاقتصاد والاتصالات والمعلومات . ولكن هذه العولمة قد أدت

---

(١) راجع : فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٣٢ .

من ناحية أخرى إلى مشكلات خطيرة فى مجالات البيئة والنظم الاجتماعية والثقافية والهوية[1] . وهذه المشكلات ـ وغيرها كثير ـ من شأنها أن تهدد أمن واستقرار البشرية ، بل تهدد كذلك وجودها على هذا الكوكب الأرضى .

ومن أجل ذلك يتحتم أن تعالج هذه القضايا فى إطار حوار دينى وحضارى . ومثل هذا الحوار يستطيع أن يبرز القواسم المشتركة لكل القيم الهامة ، ويستطيع فوق ذلك أن يعمل على التوصل إلى كيفية تحقيق هذه القيم فى سياق كل حضارة على حدة . وعلى هذا النحو يصبح التعاون فى حل هذه المشكلات الهامة أمرًا ممكنًا .

وإنه لمن الأهمية بمكان أن يكون هناك بصفة خاصة حوار بين الإسلام وأوروبا . ومن أجل ذلك تحتاج أوروبا إلى مزيد من المعرفة بالإسلام ، ويحتاج المسلمون أيضًا إلى مزيد من المعرفة بحضارة أوروبا وتاريخها .

٣- عقبات التفاهم

تتمثل العقبات التى تقف حجر عثرة فى طريق الحوار بين الإسلام وأوروبا على وجه الخصوص فى صورة العدو المتبادلة والتى تطورت عبر التاريخ . وهناك جهود حثيثة من جانب أصحاب المصالح على كلا الجانبين للترويج لهذه الصورة السلبية لتحقيق أغراض سياسية[2] .

وتحت وطأة هذه الظروف ظلت الجهود الحالية الكثيرة الداعمة للحوار مثل واحات متناثرة فى صحراء مترامية الأطراف . وظلت كذلك ـ على ما يبدو ـ عاجزة أمام حقيقة أن هناك اليوم الكثير من أشكال العنف العبثى الذى لا معنى له تزداد يومًا بعد يوم . وتبدو هذه الحقيقة فى الفترة الأخيرة واضحة جلية فى العديد من أشكال جرائم الحرب فى بلدان كثيرة من عالمنا . ويلاحظ أن ضحايا هذا العنف فى العقود الأخيرة هم فى الغالب من المسلمين .

---

(1) Spiegl, Peter : Interview in " Die Welt im Umbruch " , Flensburger Hefte 11/97, p. 132f

(1) Herzog, Roman, Preventing the Clash of Civilizations. (1999,New York, p. XII).

وهناك عقبة كبرى تعوق التفاهم فى الحوار بين الإسلام والغرب بدرجة كبيرة وتتمثل فى التجاهل وعدم الاكتراث على الجانب الغربى . وهذا التجاهل يتعلق بالأحداث المتلاحقة فى عالمنا والأسباب التى تقف وراء حدوثها ، والجهود التى يجب أن تبذل لمواجهتها . وما يحدث فى فلسطين ـ على سبيل المثال ـ نموذج صارخ على ذلك . ونتائج هذا التجاهل تتمثل فى المواقف الخاطئة وسوء الفهم لعالمنا الذى كان يفترض أن يكون عالمًا جديدًا وجذابًا ، ولكنه فى حقيقة الأمر صار عالمًا مرعبًا ومخيفًا، وذلك بالنسبة لضحاياه على كل حال .

وهذه المواقف الخاطئة وسوء الفهم تقود على كلا الجانبين بسهولة إما إلى تعصب أعمى أو إلى اللامبالاة أو اليأس . وإن الإحاطة بهذا الذى يحدث فى عالمنا ، وبالذى يجب أن يحدث ، أصبحت بالنسبة لغالبية الناس أمرًا بالغ الصعوبة ، وذلك لغياب النظرة الكونية الضرورية . وبدلاً منها تتولى غالبية وسائل الإعلام مهمة القيام بعملية غسيل مخ يومية للأفراد والجماعات . وهنا غالبًا ما تتم المقارنة بطريقة ظالمة بين الصورة المثالية للحضارة الخاصة ـ التى يريد المرء حماية قيمها من خلال ذلك ـ والصورة المشوهة لحضارة الآخرين .

وحضارة الآخرين الذين نواجههم فى الغالب يوميّا ـ والتى لم تعد بعيدة عنا كثيرًا مثلما كان الأمر فى السابق ـ تظهر لنا نتيجة لذلك على أنها حضارة غريبة وغير مفهومة ، بل ومعادية . وهناك بعض الجماعات المعينة من أصحاب المصالح فى الغرب يروجون فى وسائل الإعلام مزاعم مؤداها أن المواقف التى تسود فيها الحيرة وانعدام الأمن بصفة عامة يجد " الأنا الجماعى " نفسه فى حاجة إلى صورة عدو[1] .

وبعد انتهاء الحرب الباردة بين الغرب والشرق الشيوعى حل محلها فى واقع الأمر الصراع بين الشمال والجنوب أو بمعنى آخر بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، وهو النزاع الذى يزداد سوءًا يومًا بعد يوم ، ويظهر فى مقدمة الأحداث بشكل متزايد . ولكن أصحاب المصالح قد استطاعوا تحويل الانتباه من هذه التطورات

---

(1) Ibid p , 103 : Hans Kueng , " Intercultural Dialogue Versus Confrontation " .

المأساوية إلى افتعال صورة أخرى لعدو جديد يتمثل فى الإسلام . وبذلك استطاعوا أن يضعوا فى الفترة الأخيرة الكثير من أعمال العنف ضد العديد من الشعوب فى إطار منظور مصطنع .

وإذا كان الأمر الذى يراد إبرازه من خلال ذلك قد جعل من الحضارة الإسلامية عدوّا يجب محاربته فإن هذا يبرهن على مدى ذكاء وخبث أصحاب المصالح الذين أشرنا إليهم والذين يدفعون إلى ذلك، ولكنه يبرهن أيضًا بصفة خاصة على تجاهل وتخلف عالمنا المتقدم تكنولوجيّا، هذا العالم الذى ترك نفسه بسهولة يساق إلى هذا الموقف الصعب والذى هو فى حقيقة الأمر ضد مصلحته .

وإن نظرة سريعة على التاريخ تبين لنا أن الحضارات فى حد ذاتها ـ والتى تؤكد فى جوهرها على المعنى الإنسانى ـ لا يمكن أن تكون عدوّا لنا أبدًا ، وإنما هى على العكس من ذلك بمثابة المنقذ وطوق النجاه . وقد كافحت البشرية دائمًا من أجل بقائها عن طريق تنمية الحضارة . وفوق ذلك فإن وجودها قد أصبح ممكنا عن طريق تعدد الحضارات التى عاشت متجاروة .

وتعدد الحضارات لا يمثل عقبة أمام وحدة العالم ، بل العكس هو الصحيح وهو أنه يمثل إثراء للتجربة البشرية . وبهذا المعنى تنتمى كل الحضارات إلى الكنوز الكبرى لعالمنا ، والتى يجب الحفاظ عليها من أجل استمرار بقاء البشرية ، فإن ما تشتمل عليه هذه الحضارات من قيم روحية وأخلاقية كفيل بحماية عالمنا من الانهيار .

٤- ضرورة الحوار

ونعود مرة أخرى إلى موقف عصرنا وإلى قضية الحوار . إن مما لا شك فيه أن الوضع الحالى للعالم وضع مخيف نتيجة للزيادة الرهيبة المتصاعدة دائمًا فى أعداد السكان ، ونتيجة للعولمة الاقتصادية "المتوحشة" والتلوث البيئى المتنامى، والإرهاب العالمى المدمر، والخوف من حدوث حرب عالمية ثالثة تأكل الأخضر واليابس .

ولكن الحضارات والحوار فيما بينها بالمعنى الشامل وعلى جميع الأصعدة هو الأمر الذى يستطيع أن يعيد للبشرية الأمل فى البقاء . ولذلك يقال بحق إنه ليس هناك شيء أكثر خطراً من وجوب الاستعداد لمواجهة مزعومة بين الإسلام والمسيحية[1] .

وكل هذه الأمور المشار إليها بكل ما تتضمنه يمكن معالجتها بطريقة بناءة فى إطار حوار موضوعى هادئ إذا توفرت الإرادة الصادقة والنوايا المخلصة . ومن هنا نؤكد على ضرروة الحوار بين الإسلام وأوروبا . فإن مثل هذا الحوار يمكن - فى حالة نجاحه فى خلق جو من الثقة - أن يخلخل التمسك الجامد بالأحكام المسبقة والمواقف المنحازة والضارة . وبذلك ينفتح الباب أمام النظر إلى الحقائق بتجرد ودون عوائق .

ومن أجل ذلك فإن علينا جميعًا أن نعيد النظر فى طرائق تفكيرنا ، وعلينا أن نصنع شيئًا جديداً يضع الأمور فى نصابها ، ويصحح الخلل الذى أصاب موازين العدالة الدولية .

وفى هذا الصدد لن يستطيع الفكر التقليدى المتحجر ولا الفكر "العصرى" الداعى إلى التخلص تمامًا من كل الموروثات الدينية والثقافيةأن يقدم شيئًا يفيد فى الخروج من المأزق الراهن . ومن هنا يظل الحوار العاقل هو الطريق الأمثل من أجل التوصل إلى حل للمشكلات الراهنة ، وفى الوقت نفسه من أجل تمهيد السبيل أمام النظرة المستقبلية المتفائلة وإزالة كل العقبات التى تعترض هذا السبيل .

وهذا أمر يتطلب أن تسير محاولات تأكيد الذات الحضارية فى مثل هذا الحوار جنبًا إلى جنب مع الجهود الرامية لتوسيع آفاقنا الفكرية من خلال الالتقاء مع الآخرين . فالواقع يبين لنا أننا نعيش اليوم أحيانًا متجاورين مع الآخرين فى المسكن أو مشاركين لهم فى مكان العمل . ومن أجل ذلك أصبح الحوار فى كل مجالات الحياة أمرًا حتميًا يمثل الفرصة المواتية للفهم المتبادل والتعاون المشترك .

ولا جدال فى أن النقد له بطبيعة الحال مكان هام فى الحوار ، ولكن النقد الذى ينصب فقط على إبراز أخطاء حضارة الآخرين يمكن أن يؤدى بسهولة إلى نظرة

---

(1) Ibid , p . 12.

متعالية تتسم بالغطرسة والاستعلاء . ومن هنا يجب أن يسير هذا النقد للآخرين على نحو موضوعى جنبًا إلى جنب مع النقد الذاتى الواعى بالأخطاء والمواقف الخاطئة للحضارة التى ينتمى إليها من يوجهون النقد لحضارة الآخرين .

ولنا هنا فى الإمام الشافعى أسوة حسنة . فقد كان - رحمه الله - يقول : "رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب" .

إن الفهم الإيجابى للخصوصيات الحضارية للآخرين يمكن أن يؤدى أيضًا إلى فهم ذاتى إيجابى وإلى تفهم أفضل لتفرد وجهة النظر الخاصة . وهذا يعنى أننا فى حاجة إلى الآخر مثلما أن الآخر فى حاجة إلينا .

إن الآفاق المتفتحة عن طريق مثل هذا الحوار العاقل تجعل من الممكن التحرر من الفكر "الكهفى" الضيق . وبذلك يكون المرء فى وضع يمكنه من رؤية ومواجهة الفكر الأصولى السلبى والفكر اليمينى المتطرف اللذين انتشرا على كلا الجانبين فى العقود الأخيرة مثل النبات العشوائى .

إن المطلوب اليوم بإلحاح هو فكر مسئول - بكل معانى المسئولية - يجعل الأمل فى مستقبل هادف أمرًا ممكنًا ، ويستطيع أن يسهم فى صنع هذا المستقبل ، والسير بإرادة جادة فى طريق السلام .

إن هناك تعبيرًا ألمانيًا يقول : عندما تكون هناك إرادة يكون هناك طريق .

والطريق فى الإسلام موجود عندما تكون هناك إرادة للسلام ، وعندما يكون السلام هو المستهدف . ولا شك فى أننا جميعًا نريد السلام ، ونشعر بالسعادة عندما نجد الطريق إليه .

٥ - طرق الحوار

إن مما لا شك فيه أن هناك طرقًا كثيرة مختلفة للحوار ، ولكن كل محاولة للحوار لا يمكن أن يكتب لها النجاح إلا إذا توفرت النية الصادقة والإرادة المخلصة - كما سبق أن أشرنا - . ونحن جميعًا مسئولون عن العالم الذى نعيش فيه بصفة عامة

ومسئولون عن أعمالنا بصفة خاصة[1] . ويمثل وعينا الحقيقى بمسئوليتنا عن العالم وعن السلام فيه طريقًا للحوار .

والمسئولية الإنسانية التى نشترك فيها جميعًا لا تتعلق فقط بدائرتنا الخاصة وبأفراد مجتمعنا الخاص ، وإنما تتعلق أيضًا بأفراد المجتمعات الأخرى التى نرتبط معها بعلاقات أو صلات .

والعالم كله اليوم يرتبط بعضه بالبعض الآخر فى صورة من الصور . وهذا أمر يدعو إلى احترام كل الأديان وكل الحضارات التى تدعو إلى احترام كرامة الناس المشاركين لنا فى الإنسانية ، وتحاول التعايش معها تعايشًا سلميًّا إيجابيًّا . واحترام كرامة الإنسان واحترام الحضارة الأخرى التى ينتمى إليها يشكل طريقًا آخر للحوار .

ولكن هذا يجب أن يكون أمرًا متبادلاً وليس من جانب واحد[2] . وقد كان الفيلسوف الألمانى " كانت " محقًّا تمامًا فى قوله : " إننى إذا دمرت كرامة إنسان وقضيت على احترامه لذاته ، فإننى لا أستطيع أن انتظر منه التزامًا أخلاقيًّا " .

إن المعرفة العميقة بالقيم التى تمثلها حضارة الآخرين وعقيدتهم الدينية يمكن أن تفتح الطريق أمام الحوار الحضارى ؛ لأن هذه المعرفة من شأنها أن تبين لنا أننا نشترك مع الآخرين فى قيم حضارية ودينية كثيرة ، وهذا يؤدى بنا إلى احترام الآخرين . واحترام كرامة الإنسان واحترام حضارته يعنى فى المقام الأول احترام حقوقه الإنسانية ، وكل إنسان ـ من المنظور الإسلامى ـ له الحق فى حماية حياته وعقله ودينه وماله وأسرته ، بصرف النظر عن جنسه أو عرقه أو انتماءاته الدينية والحضارية .

ويؤكد الإسلام أن التعايش الإيجابى بين الحضارات والشعوب والأديان ، وكذلك التنافس فيما بينها فى الخيرات يعد شرطًا مبدئيًّا لقيام مجتمع عادل تصان فيه حقوق الإنسان وتحترم كرامته ، كما يؤكد أيضًا أن تعددية الشعوب والحضارات

---

(١) انظر الفصل السابع عشر من هذا الكتاب الخاص بـ " المسئولية العالمية المعاصرة فى التصور الإسلامى " .

(٢) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب الخاص بالحوار والاحترام المتبادل بين الحضارات .

وتفرد كل منها بخصوصياتها الدينية والحضارية لا يشكل عقبة فى طريق خير الإنسانية ، وتوحد جهودها ، بل يمثل إثراء للتجربة الإنسانية .

ولكن سيطرة حضارة منفردة وتسلطها على مقدرات العالم من شأنه أن يؤدى إلى إنعدام السلام والأمن وإلى محاولات التوحد التعسفى الذى لا حياة فيه ولا روح ، ويؤدى فى النهاية إلى المجتمع الشمولى الذى لا يريده أحد فى حقيقة الأمر لما يعنيه ذلك من ضياع لحقوق الإنسان وامتهان لكرامته .

ودروس التاريخ شاهدة على ذلك . والمحاولات التجميلية التى تتخذها العولمة الراهنة لتحسين صورتها من أجل فرض قيمها ونظمها لا يمكن أن تنطلى على عاقل . وإذا كان يجوز عولمة الاقتصاد وما يتصل به فإن الحضارة بطبيعتها لا تقبل العولمة التى تسعى إلى الهيمنة وتحاول تذويب الحضارات المختلفة فى حضارة واحدة .

٦ـ الحوار والتعددية الحضارية

وإذا أمعن المرء النظر فى التاريخ العام للحضارات الإنسانية فإنه يستطيع أن يتبين بوضوح أن التعددية الحضارية كانت دائمًا هى القاعدة ، على الرغم من الطبيعة الواحدة للإنسان فى كل زمان ومكان ، والتى يشترك فيها كل الناس .

وإذا كان الله قد خلق كل فرد من أفراد الإنسان بشخصية مستقلة تميزه عن غيره من أبناء جنسه ، وأعطانا لذلك رمزًا محسوسًا فى عدم وجود شخصين فى هذا العالم يتفقان فى بصمة إبهامهما ، فإن الأمر كذلك بالنسبة للحضارات التى بناها ويبنيها الإنسان . فكل حضارة لها بصمة معينة تميزها عن غيرها .

والتمايز الحضارى لم يكن فى يوم من الأيام يمثل عقبة فى سبيل التفاعل والتواصل بين الحضارات . ومن أجل ذلك لا توجد حضارة إنسانية عريقة نمت وتطورت دون أن تتأثر بغيرها من الحضارات . فالتراث الإنسانى أخذ وعطاء ، ولا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث ، ولم تشذ حضارة من الحضارات الكبيرة عن هذه القاعدة .

ومن هنا نجد أن الحضارة الإسلامية قد شيدها المسلمون شيئًا فشيئًا فى تبادل حى مع الحضارات الأخرى التى التقت بها . ويؤكد الفيلسوف العربى العظيم ابن رشد أهمية الالتقاء بين الحضارات مبرزًا ضرورة الاطلاع على ما لدى الآخرين من ثقافات ومبينًا أن ذلك يُعد واجبًا شرعيًا ، ويضيف قائلاً : " فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم "(١) .

وقد اهتم المسلمون منذ البداية بالحضارات الأخرى : اليونانية والفارسية والهندية ، ودرسوا بصفة خاصة المؤلفات الفلسفية والعلمية اليونانية التى ترجموها إلى اللغة العربية وأثروها بتعليقات هامة . ومن خلال البحث المستقل فى كل ما تعرفوا عليه من ثقافات استطاعوا أن يضيفوا أفكارًا وتصورات جديدة ، وأن تكون لهم ثقافتهم وفلسفتهم الخاصة بهم .

وأوروبا من جانبها قامت خلال القرون الثلاثة الأولى من الألفية الثانية بترجمة مؤلفات العلماء والفلاسفة العرب إلى اللغة اللاتينية . ومن الجدير بالذكر فى هذا الصدد أن أوروبا قد تعرفت لأول مرة على الفلسفة اليونانية عن طريق المؤلفات العربية . وفيما بعد فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، أى بعد فتح القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين وهجرة العلماء اليونان إلى إيطاليا ، بدأ الأوروبيون فى ترجمة المؤلفات اليونانية مباشرة من اليونانية إلى اللغة اللاتينية .

وينبنى استعداد المسلمين للحوار على أساس أن الإسلام يدعو صراحة إلى الحوار المثمر . ويرى - كما سبق أن أشرنا - أنه عندما يشتغل المرء بحضارات أخرى ويعمل فى الوقت نفسه على حماية حضارته أن يكون ذا عقلية ناقدة حتى يستطيع أن يميز بين ما يفيد وما لا يفيد . ولكن الإسلام يطلب فى الوقت نفسه ضرورة التأكيد فى الحوار على القواسم المشتركة ، وتجنب الاختلافات العقائدية التى لا طائل من وراء الاشتغال بها . وبهذه الطريقة يصبح الطريق ممهدًا أمام التوصل إلى ما فيه الخير والسلام للجميع .

---

(١) ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال . ص ١٣ (ضمن مجموع بعنوان : فلسفة ابن رشد - المكتبة المحمودية التجارية ١٩٦٨م) .

٧- التأثير المتبادل

ولا جدال فى أن الحوار من شأنه أن يثرى تبادل الأفكار والرؤى بين الحضارات وهذا بدوره يثرى الحوار . وقد شيدت أوروبا حضارتها الحديثة وقامت بتطويرها وعملت على تنمية ذاتها من خلال التفاعل الحضارى . وهكذا استطاعت أوروبا فى العصر الوسيط أن تتحرر - كما هو معروف - من الفكر الاعتقادى الضيق عن طريق تلقيها مؤثرات ودوافع علمية وحضارية هامة من الحضارة الإسلامية التى كانت حينذاك تعيش عصر ازدهار حضارى لا نظير له فى أى مكان فى العالم . وبذلك أصبحت أوروبا فى وضع يؤهلها لتغيير مسارها نحو التجديد الذى تم فى عصر النهضة ، واستمر فيما بعد فى عصر التنوير .

وهناك فلاسفة وأدباء أوروبيون مرموقون تأثروا - كما أثبتت ذلك البحوث العلمية - بالفلسفة والأدب العربيين إما بطريق مباشر أو غير مباشر .

واليوم نجد الأمر على العكس من ذلك . فالعالم الإسلامى من جانبه يأخذ منذ بعض الوقت الكثير من الإنجازات الأوروبية العلمية والتكنولوچية . ولكن المسلمين فى الوقت الذى يأخذون فيه بالمدنية التكنولوچية لعالمنا يسعون لإحياء حضارتهم وذلك للحفاظ على ذاتيتهم من ناحية ، ولأنها توفر لهم التكيف المطلوب مع متطلبات العصر من ناحية ثانية . وهذا أمر لا تستطيع المدنية التكنولوچية السائدة أن توفره لهم .

وليس هناك من شك فى أن المسلمين يسعون منذ عقود كثيرة - منذ أن تحرروا من السيطرة الاستعمارية الأجنبية - إلى تحديث مجتمعاتهم . وقد حققت كثير من البلاد الإسلامية فى هذا السبيل تقدمًا كبيرًا ، الأمر الذى يجعل العالم الإسلامى قادرًا على المشاركة الفعالة فى تكوين نظام للسلام العالمى .

وإنه لمن الأهمية البالغة للوصول إلى هذا الهدف - كما ألمحنا إلى ذك من قبل - أن يكون هناك على وجه الخصوص حوار مثمر بين الإسلام وأوروبا . فالقواسم الكثيرة المشتركة بين الحضارتين تجعل مثل هذا الحوار أمرًا ممكنًا ومطلوبًا . ومن أجل ذلك فإن من الضرورى التأكيد عليها ؛ لأنها تفتح الطريق للحوار .

٨ـ القواسم المشتركة

لقد قال بسمارك ذات مرة : "إن الحقيقة تكمن فى التفاصيل" . وسنحاول فى الصفحات التالية أن ندخل فى بعض التفاصيل التى من شأنها أن تسهم فى توضيح المطلوب .

إن هناك فى حقيقة الأمر الكثير من القواسم المشتركة بين أوروبا والعالم الإسلامى أكثر مما يتصوره المرء فى هذا الجو الراهن المشحون بالكثير من الاختلافات والنزاعات .

فأوروبا والبلاد الإسلامية يربط بينهما جغرافيّا البحر الأبيض المتوسط ، فهما جيران لبعضهما البعض ويشتركان لذلك فى المصلحة المشتركة لاستقرار وضمان أمن بلادهما . ولكن هناك سببًا آخر هامّا يجمع بينهما وهو أن ما يربط بينهما من قواسم مشتركة يفوق ما يفصل بينهما ، الأمر الذى يجعل الحوار بينهما بصفة مبدئية أمرًا ممكنًا وواقعيّا . وأقصد هنا الخلفية الحضارية التى سبق أن ألمحنا إليها لكلا العالمين الأوروپى والإسلامى، والتى تتمثل فيما يربط بينهما من تاريخ طويل من التأثير الحضارى المتبادل .

ويضاف إلى ذلك قاسم أساسى مشترك. فدين كل منهما ـ الإسلام والمسيحية ـ واللذان يعدان القاعدة الأساسية لحضارتيهما، يشتركان فى نشأتهما فى الشرق ، ويتطابقان فى رسالتيهما تطابقًا جوهريّا، وبصفة خاصة فى تأكيدهما للرحمة الإلهية التى تعلو على كل القوانين والتشريعات، وكلاهما يؤكد مسئولية الإنسان عن العالم، فالإنسان هو خليفة الله فى الأرض . وبذلك أصبحت له السيادة على العالم ، ولكنه فى الوقت نفسه مسئول عنه .

والدين كما قال النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتمثل فى حسن الخلق[١] . وهذا يعنى الاستقامة والسلوك القويم . والقيم الأساسية لكل الأديان متماثلة . ولكن لا يكفى أن نعرف من الناحية النظرية أن كل الأديان تتفق فى القيم؛ لأن الأمر يدور بصفة خاصة حول تحققها . والإطار لذلك تصنعه الحضارات المختلفة .

---

(١) راجع : كنز العمال جـ ٣ ، ٥٢٢٥ ص ١٧ . وهناك روايات أخرى قريبة من هذا المعنى جاءت فى مسند الإمام أحمد بن حنبل جـ ٤ ص ٣٨٥ ، جـ ٦ ص ٤٧ .

ولا جدال فى أنه لا يمكن إجبار أحد على تحقيق هذه القيم . ولكن المواقف الحرجة فى وقت الأزمات يمكن أن تلفت نظرنا إلى أننا إذا راعينا ظروف إخواننا فى الإنسانية فإننا بذلك فى نهاية الأمر نخدم مصالحنا ذاتها أيضًا . ونحن اليوم نجد أنفسنا فى مثل هذا الموقف . وللتغلب عليه يحتاج الأمر دون شك إلى إعادة النظر فى تفكيرنا .

ويمكن القول بأن ذلك قد حدث بالفعل فى مجال الاقتصاد [(١)] . وبناء على ذلك توصل المرء بعد بحوث طويلة - وبصفة خاصة مع مراعاة التطورات المستقبلية - إلى نتيجة مؤداها أن مستقبل الشمال ، أى البلاد الغنية ، مرتبط بتنمية الجنوب ، وأن ما تسمى اليوم بـ " العولمة المتوحشة " - يجب أن تتوقف وتترك المجال لصالح " عولمة متحضرة " [(٢)] ، يمكن أن تراعى حقوق كل المواطنين فى العالم والفقراء من بينهم بطبيعة الحال .

ومن أجل هذا الغرض يجب أن تستعيد السياسة سلطتها التى سلبت منها لصالح الاقتصاد ، وذلك بأن تكون سياسة كونية [(٣)] ؛ لأن المشكلات الكونية لا يمكن حلها إلا بوسائل كونية ، وهذا يعنى أن الأمر يتطلب تعاونًا كونيّا [(٤)] .

ولكى يمكن منع حرب عالمية ثالثة مدمرة فإنه يتحتم بصفة خاصة أن تعطى الصلاحيات كاملة للأمم المتحدة ومنظماتها من أجل أن يكون هناك تفعيل لدورها فى ضمان حقوق كل الشعوب دون استثناء [(٥)] . ولا يجوز أن يترك الأمر لبعض القوى العظمى ؛ لتنفرد وحدها بالتحكم فى مصير العالم .

ومن أجل تحقيق الهدف المطلوب فى قيام عولمة متحضرة وسياسة عالمية فعالة فإن هناك ضرورة ملحة لإجراء حوار دينى وحضارى يستطيع أن يبنى السلام . فعالم صدام الحضارات كما صوره " صمويل هنتنجتون " عالم لا مستقبل له ، فالصدام الذى تنبأ به بين الحضارات ليس سببه فى حقيقة الأمر الحضارات ذاتها ، وإنما يرجع السبب فيه إلى المتطرفين والأصوليين على كلا الجانبين ، وهذا يعنى أقلية من المجتمعات[(٦)] .

---

(1) Spiegel,p. 125
(2)Ibid p, 132 f .
(3) Ibid p, 131 f
(4) Herzog , p. 12.
(5) Spiegel . p. 131 f
(6) Herzog , P. V111

ولكن خطورة دعوى هنتنجتون أنه إذا تم الترويج لها على نطاق واسع عن طريق وسائل الإعلام فإنها يمكن أن تتحول بسهولة إلى أن تصبح أمرًا واقعيًا. وهذا هو مكمن الخطر فى هذه الدعوى التى ليس لها أساس علمى سليم [١].

ولا شك أن الترويج لهذا الصدام الكونى المزعوم للحضارات يمكن - كما يقول هانز كونج [٢] - أن يعمل على خلق جو من الخوف والرعب يستخدمه أصحاب المصالح فى تحقيق أغراضهم التى هى بالقطع أغراض مناقضة لجهود السلام.

ولنا هنا وقفة ضرورية تعقيبًا على دعوى صدام الحضارات:

إن هدفنا ينبغى أن يظل دائمًا متمثلاً فى حماية الحضارات والحفاظ عليها، وليس الهجوم عليها وتدميرها. فالحضارات تشكل التقدم المادى والروحى للإنسانية - كما قال ألبرت شفيتسر - إنها حصيلة تجارب البشرية فى سعيها نحو التقدم والرقى والسلام على مدى التاريخ، إنها تعنى التسامح وقبول الآخر والانفتاح على كل الحضارات والثقافات والأديان. ومن أجل ذلك فإنها تمثل حصون الإنسانية ضد النزاعات العبثية والمدمرة، ولكنها ليست بالقطع سببًا لها؛ لأن هدف الحضارات الحقيقى هو بناء نظام يضمن للإنسانية العدل والأمن والاستقرار.

إن أسباب النزاعات ليست - كما يزعم هنتنجتون - فى اختلاف الحضارات. فالصدامات تنشأ أيضًا داخل الحضارة الواحدة، مثلما حدث ذلك فى الحربين العالميتين فى القرن الماضى. والأمر الجدير بالذكر هنا أن ضحايا هاتين الحربين داخل الحضارة الأوروپية قد زاد على ستين مليونًا من البشر، وذلك خلال نحو عشر سنوات فقط (من ١٩١٤ - ١٩١٨م ومن ١٩٣٩ - ١٩٤٥م) فى حين أن أعداد ضحايا الحروب التى دارت بين أوروپا والإسلام على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان تعد بالنسبة إلى ذلك بمثابة قطرة فى بحر، ولا وجه للمقارنة بينها وبين ضحايا الحربين العالميتين.

---

(1) Ibid p. 50

(2) Ibid p . 103

ومن هنا، فإنه إذا حدثت صدامات بين الحضارات فإنه يتحتم البحث عن أسباب أخرى لها غير الحضارات ذاتها ، فقد تكون الأسباب متمثلة فى السعى للسيطرة السياسية لبعض أصحاب المصالح ، أو الهيمنة لبعض القوى العالمية على مقدرات العالم ، أو السعى للحصول على مصالح مادية وغير ذلك من أسباب أخرى مشابهة ، كما هو ماثل للعيان فى عالم اليوم .

والإسلام على كل حال دين يرفض دعوى الصدام بين الحضارات ، ويدعو إلى الحوار بينها، ويؤكد ذلك القرآن الكريم حين يتحدث عن الاختلافات بين الشعوب والعلاقات فيما بينها : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ففى الحوار تستطيع الشعوب أن يتعرف كلٌّ منها على الآخر ، وأن يثرى بعضها بعضًا عن طريق التبادل الحضارى والثقافى .

ويبين القرآن الكريم فى وضوح أن الاختلافات بين الأديان لا يجوز بأى حال أن تقود إلى أى حرب من أجل السلطة وهيمنة القوة ، وبدلاً من ذلك يدعو القرآن إلى تنافس سلمى فى الخيرات وإلى تفاعل مثمر بين الحضارات . ويشير إلى أن الله قد جعل لكل أمة شريعة مختلفة وطرقًا مختلفة . ولكن الهدف بالنسبة للجميع هو ذات الهدف . ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وقد كان الله قادرًا على أن يخلق الناس جميعًا أمة واحدة ، ولو كان ذلك قد حدث لما كان هناك ضرورة إلى حوار دينى أو حوار حضارى أو تنافس فى الخيرات بين المجتمعات ، إذ لن يكون هناك فى هذه الحالة إلا أقل القليل من العمل أمام الناس ، وبذلك يصبح العالم عالمًا لا طعم له ولا لون، ولا معنى لوجوده أصلاً .

إن الإسلام حين يدعو إلى الحوار فإنه يدعو فى الوقت نفسه إلى التضامن العالمى بين كل الشعوب حتى تستطيع أن تتحمل معًا المسئولية عن هذا العالم .

ولكن هنتنجتون يذهب فى دعواه لصدام الحضارات مذهب الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز الذى كان يرى أن " الإنسان ذئب بالنسبة لأخيه الإنسان " ، وأن " الكل فى حرب ضد الكل " (١) .

لقد أثبتت لنا الحربان العالميتان الأخيرتان مدى عبثية الحروب . فالحروب لا تحل المشكلات ، بل تؤدى فقط إلى تفاقم المشكلات وإلى تدمير لا معنى له . وعلينا أن نتعلم من دروس التاريخ حتى لا نكرر نفس الأخطاء مرة أخرى .

وإذا أردنا أن نؤمن أنفسنا ضد هجوم منتظر من جانب جيراننا فإننا لا يجوز بأى حال من الأحوال أن نسمح بتدمير أساس حضارتهم ؛ لأن الحضارة ستبقى هى الفرصة السانحة للتوصل إلى حل سلمى لأى نزاع . ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نتناول قضية الإرهاب الذى أصبح اليوم يمثل ظاهرة عالمية ، وفى الوقت نفسه يدمر فرص الحوار بين الحضارات .

إن هدفنا جميعًا فى هذا الصدد يتمثل فى ضرورة محاربة الإرهاب فى شتى صوره وأشكاله . ونحن إذ نعبر جميعًا عن غضبنا ورفضنا لأحداث الحادى عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١م فإن ذلك لا يجوز أن يؤدى بنا إلى أن نعاقب على ذلك أناسًا أبرياء لا ذنب لهم ولا جريرة بحجة محاربة الإرهاب ، كما يحدث ذلك فى فلسطين والعراق وغيرهما من شعوب أخرى لا صلة لها من قريب أو بعيد بهذه الأحداث ، فمن شأن ذلك أن يؤدى إلى استمرار دوامة العنف العبثى الذى يؤدى بالتالى إلى تدمير فرص المستقبل .

وهذه القضية يمكن أن تتضح معالمها فى حوار حقيقى بين الحضارات . ومن أجل ذلك لابد لنا من إلقاء نظرة على موضوع الإرهاب من وجهة النظر الإسلامية .

إن من الملاحظ أن هناك ـ بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ـ اتجاهًا قويًّا يربط بين الإسلام والإرهاب . ويبدو الأمر كما لو أن العالم قد استيقظ فجأة ؛ ليرى أمامه دينًا جديدًا غريبًا يريد إرهاب العالم .

---

(١) راجع كتابنا " مقدمة فى علم الأخلاق ص ١٠٣ ـ دار الفكر العربى ١٩٩٣م .

وحقيقة الأمر أن الإرهاب موجود فى كل الحضارات، وأنه أصبح ظاهرة عالمية . وقد عانت أوروبا نفسها - على سبيل المثال - من الإرهاب فى النصف الثانى من القرن العشرين بصفة خاصة فى سلسلة من العمليات الإرهابية من جانب جماعات معينة، لا يزال بعضها يمارس نشاطه حتى اليوم كما هو حادث فى إيرلندا وإقليم الباسك فى إسپانيا .

ولم تسلم الولايات المتحدة الأمريكية نفسها من الإرهاب الداخلى قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر . وحادث الهجوم على برج التجارة العالمى فى أوكلاهوما[١]، وإطلاق الغازات السامة فى مترو الأنفاق فى اليابان، ومقتل رابين فى إسرائيل وغيرها من أعمال إرهابية لا تزال حاضرة فى الأذهان .

ولكن على الرغم من أن بعض هذه الجماعات الإرهابية تعلن انتماءها إلى الدين الذى تدين به، فإن المرء لا يسمع إطلاقًا أى ربط بين الإرهاب وبين الأديان الأخرى مثل المسيحية أو اليهودية أو البوذية أو الهندوسية . ومن أجل ذلك يفرض السؤال التالى نفسه :

لماذا هذا الترويج الإعلامى فى الفترة الأخيرة للربط بين الإسلام وحده من بين كل الأديان وبين الإرهاب . إن الإسلام موجود منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان . وكما أن الأديان الأخرى غير مسئولة عن أى عمل إرهابى يقوم به بعض أتباعها، فكذلك الإسلام غير مسئول عن أى عمل إرهابى يقوم به بعض المسلمين، حتى وإن رفعوا أيضًا شعارات إسلامية .

إن الإرهاب لم يكن فى السابق ولن يكون فى المستقبل أيضًا سمة مميزة للإسلام تميزه عن غيره من الأديان . لقد برهن الإسلام دائمًا على قدرته على السلام، ليس فقط خلال القرون العديدة التى شهدت عصر الازدهار الحضارى للمسلمين، بل

---

(١) من الممكن أن يطرح المرء هنا بعض الأسئلة التى تم تجاهلها حتى الآن : ألا يمكن أن تكون هناك صلة ما بين تدمير برج التجارة العالمى فى أوكلاهوما - الذى كان نتيجة لإرهاب داخلى - وبين تدمير مركز التجارة العالمى فى نيويورك ؟ هل يمكن أن يكون الهدف الأول بمثابة مقدمة أو تمهيد للهدف الثانى ؟ ألا يمكن أن يكون الإرهاب فى الحادثين واحدًا، أعنى إرهابًا داخليًا وليس خارجيًا أو إرهابًا مشتركًا بين الداخل والخارج ؟

وفى كل عصور التاريخ الإسلامى ، وقدمت الحضارة الإسلامية فى الأندلس نموذجًا يحتذى به للتعايش الإيجابى بين أتباع ديانات التوحيد الثلاثة : الإسلام، والمسيحية، واليهودية . وذلك على النقيض مما فعله الاستعمار الغربى فى العصر الحديث من تخريب وتدمير وسلب ونهب لثروات بلاد المسلمين وتطبيق لسياسة " فرق تسد " لضمان استمرار بقائه فى احتلال تلك البلاد .

وعلى مدى التاريخ الإسلامى كله ـ كما أكد ذلك الباحثون الغربيون أيضًا ـ لم يحدث أن أجبر المسلمون أحدًا على اعتناق الإسلام . فقد أعلن القرآن فى وضوح تام مبدأ حرية العقيدة فى قوله : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . والإسلام بطبيعته دين متسامح، ومن أجل ذلك يرفض كل شكل من أشكال الأصولية السلبية .

ويعد السلطان صلاح الدين الأيوبى ـ كما يعلم الغرب ـ نموذجًا للحاكم المسلم المتسامح الذى تعامل ـ بعد استعادته مدينة القدس ـ مع الصليبيين العائدين إلى بلادهم بتسامح منقطع النظير [(١)] ، يعيد إلى الأذهان ما فعله النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أهل مكة حين دخلها فاتحًا ، فقد عفا عنهم قائلاً لهم : « **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » .

كلمة ختامية

وفى ختام هذا البحث أود أن أؤكد مرة أخرى أن الصراعات بين الإسلام وأوروبا لم تكن أبدًا هى القاعدة . وعندما يتحدث المرء عن هذه الصراعات فإنه لا يجوز له أن يتجاهل تاريخ العلاقات الإيجابية الحضارية بين الحضارتين . فهذا التجاهل يؤدى إلى خلق صورة مغلوطة تمامًا عن هذه العلاقات .

والحوار الحضارى بينهما هو الذى يستطيع أن يبرز الصورة الصحيحة للعلاقات الأوروبية الإسلامية ، وبذلك يمكن القضاء على المفاهيم الخاطئة والأحكام المسبقة بينهما والتخلص من صورة العدو المتبادلة على كلا الجانبين .

ويضاف إلى مهام الحوار ضرورة نقل المعلومات الصحيحة عن حضارة كل

منهما للرأى العام عن طريق التعليم ووسائل الإعلام، وذلك على مستوى كل مجالات الحياة . ولا يجوز أن يبقى الحوار مجرد حوار بين المثقفين الذين عليهم بطبيعة الحال مسئولية فتح المجال بقدر الإمكان أمام كل فئات المجتمع لهذا الحوار الحضارى ، وبيان مدى الأهمية الحاسمة بالنسبة للمستقبل لمثل هذه الجهود التى تصنع السلام .

وينبغى ألا يغيب عن الأذهان فى هذا الصدد مستقبل الأجيال القادمة التى لا يجوز أن نتركها أسيرة لحضارة سلبية مشحونة بأعمال العنف العبثية . ومن هنا فإن علينا ـ مسلمين وأوروپيين ـ أن نفكر كثيراً فى هذه الأجيال التى هى مستقبل عالمنا ، فالأجيال الحالية والأجيال القادمة لم يكن لها ذنب لا فى الصراعات الحالية ولا فى الصراعات السابقة . ومن أجل ذلك فإننا مدينون لها بتهيئة الظروف المناسبة التى تستطيع من خلالها أن تنظر إلى المستقبل مدعومة بالأمل فى غد أفضل .

ولا جدال فى أن حواراً حضاريّا بين الإسلام وأوروپا يركز على القواسم المشتركة ويبنى عليها يعد أيضًا محاولة لخلق نماذج مثالية أمام شبابنا ، وبذلك يمكن الإسهام فى وقف دوامة العنف العبثى الذى لا معنى له .

ويجب أن يكون واضحًا أن إنقاذ البشرية لن يحدث عن طريق الدفاع الذى لا يتوقف ضد عدو مصطنع على كلا الجانبين ، وإنما عن طريق التأكيد على معنى الإنسانية فى الحضارة بالحوار العاقل الموضوعى الهادف . وبذلك يمكن أن نصنع باستمرار دوائر أوسع للسلام ونكسب المزيد من الأصدقاء الذين يكرسون جهودهم من أجل خير وسلام واستقرار هذا العالم الذى هو عالمنا جميعًا .

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٩٠ ـ ٧٩٥ ، القاهرة ١٩٧٦م .

الفصل الرابع

العلاقات الثقافية
بين العالم الإسلامى والغرب

١ ـ تمهيـــــد

٢ ـ العلاقات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب:

أ ـ المرحلة الأولى

ب ـ المرحلة الثانية

جـ ـ المرحلة الثالثة

٣ ـ إمكانات الحوار وآفاق التعاون

العلاقات الثقافية
بين العالم الإسلامى والغرب(*)

١ـ تمهيد

نحن جميعًا ندرك أن ما يشهده عالم اليوم من مشكلات سياسية واقتصادية وبيئية وغيرها من مشكلات تتطلب البحث عن حلول ناجعة لها تدفعنا دفعًا إلى ضرورة التحاور العميق بين العالم الإسلامى والغرب ، والمقصود هنا ليس مجرد التحاور بين بعض الأفراد من أصحاب النيات الطيبة من الجانبين ، وإنما المقصود هو التعاون بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، وبخاصة على المستوى العلمى من أجل خير هذا العالم واستقراره . ومن الواضح أن وحدة هذا العالم وفرصته فى الحياة ومدى قوة ترابطه تتأثر سلبًا أو إيجابًا بمقدار قوة أو ضعف أى حلقة من حلقات السلسلة التى تجمع أمم العالم المختلفة .

فما الذى ينبغى عمله فى هذا الصدد لبلوغ الأهداف المرجوة من أجل مصلحة الطرفين بصفة خاصة ومصلحة البشرية كلها بصفة عامة ؟

إننا إذا تأملنا مسار الحوار الإسلامى الغربى الذى تم حتى اليوم نكتشف أنه كانت له كثير من خصائص " المونولوج " أو الحوار من طرف واحد، وقد ترك ذلك على الجانبين انطباعًا بأن إمكانية الحوار الحقيقية غير قائمة . فكل جانب لم يستطع أن يفهم الجانب الآخر على نحو سليم . فهل وصل الأمر إلى حد اليأس وفقدان الأمل فى قيام حوار مثمر بين الجانبين ؟

(*) تم إلقاء أصل هذا البحث بالألمانية فى ندوة تأسيس " الجمعية العلمية للبحوث الإسلامية " التى عقدت فى جامعة بامبرج بألمانيا فى الفترة من ٧ إلى ٩ سبتمبر ١٩٩٠م ، وتم نشره فى ألمانيا فى الكتاب التذكارى للأستاذ الدكتور A . Falaturi الذى صدر تحت عنوان :
Gottes ist der Orient, Gottes ist der Okzident, Koeln- Wien 1991 .
كما نشر بالإنجليزية فى مجلة Islam and Christian Muslim Relations التى تصدر فى برمنجهام فى بريطانيا (يونيه ١٩٩١م) .

إننا لا نريد أن نغرق فى التشاؤم ونقطع الأمل فى إمكان التعاون البناء بين الجانبين . صحيح أنه لا يمكن تجاهل الحقيقة المتمثلة فى أن الحوار بين الجانبين فى العصر الحديث قد نشأ أصلاً تحت ظروف مادية تتمثل فى النفط والثروة الجديدة فى جانب والتفوق التكنولوچى والقوة السياسية فى الجانب الآخر .

ولكن على الرغم من ذلك فإنه من ناحية أخرى قد أصبح من الأمور التى لا تخفى على عاقل أن كلا الجانبين يشعران بأن هناك حاجة ماسة تقضى بوجوب البحث عن حلول على الصعيد الثقافى والحضارى ؛ لتكون على الأقل مكملة لتلك الحلول القائمة على أساس مادى .

ولكن العقول هنا تختلف فى تقديرها للأمور ، فكل جانب يشعر بأنه قد أسيء فى الغالب فهم مقاصده بشكل أو بآخر ، وهناك على الأقل شعور لدى كل جانب بأن الجهود التى تبذل فى إقامة جسور للثقة والتفاهم بين العالم الإسلامى والغرب تعد جهوداً متواضعة إلى حد بعيد ، ولا ترقى بأى حال من الأحوال إلى مستوى المسئولية المشتركة التى ينبغى أن يتحملها الجانبان .

ولعل عدم جدوى الحوار حتى الآن ترجع إلى افتقاره إلى لغة الحضارة واعتماده على اللغة العادية . ومن الواضح أن هذه ليست مساوية لتلك ، على الأقل بسبب تعقد الحضارات وتعدد جوانبها . وبصرف النظر عن ذلك كله فإن العالم الحديث المصبوغ بالصبغة التكنولوچية التى انتشرت فى كل مكان قد أدى من غير شك إلى إهمال لغة الحضارة بما له من قوة جبرية على التكيف فى اتجاه نمط واحد .

وإزاء هذه الظروف يبرز هناك بصفة متزايدة بديل للغة الحضارة يتمثل فى لغة العلم ، ويأمل المرء أن يكون ذلك بديلاً حقيقيّاً [١] .

إن الاختلافات الحضارية فى أساسها ليست اختلافات مطلقة مثلما تبدو . ومن أجل ذلك فإن محاولة التعرف على الآخرين تعرفًا حقيقيًا أمر لا ينبغى التخلى عنه . وإذا كانت هناك شعوب وأمم مختلفة بين البشر فإن هذا الاختلاف بينها يدعوها إلى أن يتعرف كل منها على الآخر ، بل إن وجهة النظر الإسلامية هنا ترى أن هذا

---

(1) Hans Kueng . Christentum und Weltreligionen, Muenchen 1984,p.98.

التعارف هو سبب وجودها على هذا النحو . فالقرآن الكريم يقول فى ذلك : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾ [الحجرات : ١٣] .

وفى إطار التعارف لا توجد طبقية أو امتياز لطائفة من الطوائف على غيرها بأى شكل من الأشكال . فالهدف فى النهاية أمام الجميع واحد . ويذكرنا القرآن الكريم دائمًا بالمساواة بين كل بنى البشر، ويرتبط ذلك ارتباطًا وثيقًا بمبدأ وحدة الألوهية . والمعيار الوحيد للتفاضل بين الناس هو التقوى والقرب من الله ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات : ١٣] .

ويشير القرآن فى الآية التالية للآية السابقة إلى أن عقيدة التوحيد ليست مجرد كلمات تقال بالأفواه ، وإنما ينبغى أن تستقر فى الأعماق بإخلاص : ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات : ١٤] . كما أن العقيدة لا يمكن أن تفرض بالقوة ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [البقرة : ٢٥٦] . وإنما تخضع لإرادة الإنسان وحريته : ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف : ٢٩] .

وعند التحليل الدقيق للمهمة الموكولة إلى كل البشر من مختلف الحضارات والمتمثلة فى التعرف الحقيقى والفهم المتبادل، فإننا نجد أن الفهم الصحيح هنا ليس فقط أمرًا واجبًا، وإنما يمثل فى الوقت نفسه فرصة لا يجوز التفريط فيها ، إنه الفرصة التى تتيح للمرء نفسه المجال إلى ترسيخ جذوره ترسيخًا أكثر عمقًا عن طريق الاعتراف بواقع الاختلافات بين البشر الذين جعلهم الله شعوبًا وقبائل مع بذل الجهود الصادقة لفهم الآخرين، وهنا يرتبط الفكر بالعمل فى وحدة واحدة مثل الجانب الأعلى والجانب الأسفل من اليد الواحدة . والطريق إلى تحقيق ذلك يمكن أن يكون طويلاً وشاقًا، ولكن بلوغ الهدف ليس أمرًا مستحيلاً ما دام الأمل قائمًا .

ويذهب أحد المسلمين الغربيين [1] وهو لى جاى إيتون Le Gai Eaton ـ وهو من

(1) Le Gai Eaton, Ch . Der Islam und die Bestimmung des Menschen, Koeln 1987, p. 56 ff .

العارفين بكلا العالمين : الإسلامى ، والغربى ـ يذهب إلى القول بأن عالمنا الذى يحيط به اليأس من كل جانب فى أشد الحاجة إلى الأمل الإسلامى . فالأمة الإسلامية ـ كما يقول ـ تعد شاهدة على هذا الأمل الذى يمكن أن يؤدى إلى النجاة من الطريق المسدود الذى يسير فيه العالم الحديث ، وذلك لأن الله يمثل بالنسبة للأمة الإسلامية محور حياتها ، وليس النزعة المادية أو النزعة المغرقة فى الملذات أو التكنولوچيا [١] .

ومن أجل ذلك يذهب هذا المسلم الغربى إلى القول بأن الإنسان الحديث إذا استطاع أن يفهم المسلم "ربما استطاع أن يبدأ فى أن يفهم نفسه قبل أن يمضى إلى تدمير ذاته" [٢] .

وهذه المهمة التى تتمثل فى ضرورة التعرف على الآخرين ـ كما هم فى واقع الأمر وما يتصل بذلك من معرفة المرء لذاته ـ تعد مهمة تسرى كذلك بالنسبة للمسلم .

٢ـ العلاقات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن لغة العلم يمكن أن تخدم ـ بوصفها وسيلة التفاهم ـ فى تحقيق الحوار بين الحضارات المختلفة . ولكن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تم التعامل بها بطريقة موضوعية ودون أن تشوبها نزعة متعالية [٣] وهذا يعنى أن تتم بطريقة عقلانية ودون أن تعكر صفوها نزعات أو ميول جدلية أو تبشيرية أو أيديولوچية .

فالعلم ينبغى أن يزيل سوء الفهم ويضع مكانه فهمًا صحيحًا ، ولكن الفهم الصحيح للحضارات الأخرى يتطلب تدريبًا تخصصيًّا وتكوينًا ثقافيًّا، وقد يتوفر التدريب التخصصى وتغيب الثقافة الضرورية أو تكون قاصرة . وهنا تنشأ حينئذ آراء لا تعدو فى الغالب أن تكون خليطًا من سوء فهم خاص وأخطاء مأخوذة عن الآخرين .

---

(1) Francis Edwards in : The Times 1980

(2) Le Gai Eaton, p. 58

(3) M . W . Watt : What is Islam? London 1979, p. 216

ويؤكد ذلك عالم الأديان الألمانى المعروف الأستاذ Kueng حول ما يقال عن الإسلام حيث يقول :

" إن ما يمكن أن يسمعه المرء أو يقرأه عن الإسلام فى وسائل الإعلام (الغربية) المختلفة وما يقوله المثقفون عنه أمر مزعج ومخيف . إنه مزعج بمعنى مزدوج : **أولاً** بسبب الاعوجاج والأحكام المغلوطة التى تتكشف فى هذه الأفهام ، **وثانيًا** بسبب الطريقة المخيفة والشريرة التى تلقى بها الأحكام عن الإسلام "[١] .

وليس هناك شك فى أن هذا التصوير المخيف للإسلام يفتقد تمامًا الشعور بالمسئولية العلمية .

ومن أجل ذلك فإن روح التسامح تعد اليوم أمرًا ضروريًّا لا غنى عنه أكثر من أى وقت مضى . ويمكن القول بأن روح التسامح يجب أن تسبق روح الفهم الصحيح ، فالتسامح من شأنه أن يجعل من السهل الوصول إلى الفهم الصحيح للآخرين .

ولكن التسامح بين الأديان يعد من الأمور المعقدة . صحيح أن هناك الآن بصفة عامة جهودًا تذهب إلى حد بعيد فى التأكيد على الميراث الإبراهيمى المشترك لكل الديانات السماوية ، ولكن الحق المطلق الذى تعلنه هذه الأديان لنفسها لا يزال يتعرض لسوء الفهم .

وموقف الإسلام الواضح من هذه القضية هو أنه يجوز لأى من هذه الأديان أن تدعى لنفسها الانتساب إلى الحقيقة طالما كانت ملتزمة بالوحى الأصلى . وبناء على ذلك فإن الاعتراف بكل الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر منذ بدء الخليقة دون تفريق بينهم يعد جزءًا أساسيًّا من عقيدة المسلم لا يجوز له أن يحيد عنه . وبذلك يعد التسامح الدينى بالنسبة للمسلم مبدأ من مبادئ الإيمان[٢] .

ومن المهم فى هذا الصدد الإشارة إلى أن الدين الواحد منذ بدء الخليقة الذى هو دين الله والذى يعبر عنه القرآن الكريم بأنه الإسلام ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾

---

(1) Kueng, P. 31 (Josef Van Ess) .

(٢) انظر فيما يلى الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب الخاص بالتسامح فى الإسلام .

[آل عمران : ١٩]، يطلب من كل الناس الشيء نفسه وهو التسليم لله ، أو بمعنى آخر إسلام الوجه لله .

ومن أجل ذلك يسعى المسلمون إلى تشكيل حياتهم الفردية والاجتماعية طبقًا لروح الإسلام واستجابة لما يعنيه مصطلح الإسلام من التسليم لله .

ويشير أحد علماء الإسلاميات[١] فى ألمانيا وهو الأستاذ خورى فى كتابه (التسامح فى الإسلام) إلى هذه الحقيقة ، ويعبر عن آمال المسلمين فى أن " يجد الإسلام فى العصر الحاضر الطريق لبناء المجتمع والدولة حتى يستطيع أن يقوم بالدور الحقيقى المنوط به فى العالم ـ دون أن يفقد شيئًا من هويته ـ بوصفه شاهداً بالقسط[٢] وبوصفه عنصراً مشاركًا فى تحقيق التضامن العالمى بين بنى البشر ، وفى إقامة نظام للمجتمع يكفل للناس جميعًا المساواة أمام القانون ، ويتمتعون فيه جميعًا بنفس الحقوق فى الحياة العملية ، ويشتمل أيضًا ـ بالإضافة إلى التسامح ـ على الاعتراف بحقوق الإنسان ـ التى لا يمكن التساهل فيها ـ لكل الناس دون تحفظ " .

وفى حين أن الغرب ينطلق فى بنائه للدولة وللمجتمع من وجهات نظر علمانية ، وبصفة خاصة من منطلقات اجتماعية وسياسية فإن اتجاه العالم الإسلامى فى هذا الصدد اتجاه دينى بصفة أساسية . وهذا يعنى أن تجديد الحياة الدينية يعد أمرًا ضروريًا لتكوين نظام عادل للمجتمع .

وهذا التوجه يتفق فى نهاية الأمر مع أحدث المعارف فى مجال فلسفة الحضارة والتى تقضى بأن جذور كل حضارة تترسخ فى الدين ، ومن أجل ذلك تستمد حياتها منه .

ولا شك فى أن كلاًّ من العالم الإسلامى والعالم الغربى يتجه بوضوح إلى إقامة نظام عادل للمجتمع ، على الرغم من اختلاف المنطلقات ، وتلك مهمة مشتركة ينعكس أثرها بالضرورة على بقية أجزاء العالم .

---

(1) A . Th. Khoury : Toleranz im Islam, Muenchen 1980, p. 185

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٨] .

والتاريخ يحدثنا عن أمثلة كثيرة للتعاون بين العالمين : الإسلامى والغربى فى المجال الحضارى بصفة عامة ، وفى المجال العلمى على وجه الخصوص . ومن منطلق الرؤية التاريخية نرى أن كفة الأمور المشتركة ترجح على كفة الاختلافات ، وهذا أمر يدعو إلى التفاؤل وإلى المزيد من الأمل .

أما ما يتصل بقضية الثقافة الإسلامية وتقدير هذه الثقافة فإنى أود هنا أن أشير إلى ما قاله فى ذلك أحد المستشرقين الذى وصف بأنه " شهيد الأدب العربى " (١) بسبب أعماله العلمية التى ضحى من أجلها بالكثير . لقد قال رايسكه Reiske منذ أكثر من مائتى عام :

" إن من يقدر تاريخ الآداب ستعتريه الدهشة عندما يجد أن هناك رجالاً كثيرين جدّا فى الشرق كانوا متبحرين فى كل أنواع الآداب فى وقت كانت فيه أوروپا غارقة فى ظلام ليل الجهل والبربرية ، وسيعرف بسرور مدى الإسهام الذى قدمه كل منهم فى سبيل تنمية الثقافة " (٢) .

ومنذ عصر التنوير فى أوروپا بذلت جهود كثيرة فى سبيل دراسة الحضارة الإسلامية دراسة موضوعية .

وقد تبين حينئذ " أن الحروب الصليبية قد أتاحت للأوروپيين فرصة التعرف على حضارة متفوقة ، وعقد صلات مع المسلمين فى إسپانيا وجزيرة صقلية . وقد قدم ذلك لأوروپا المسيحية التراث العربى والإضافات الثقافية للميراث العلمى القديم . وقد أَثْرَتْ الترجمات التى تمت منذ نهاية القرن الحادى عشر الدراسات العلمية فى مجالات العلوم الطبيعية والطبية والفلسفية " (٣) .

ويمكن باختصار شديد إجمال مراحل العلاقات الثقافية بين الغرب والعالم الإسلامى تاريخيّا فى ثلاث مراحل على النحو التالى :

---

(1) Fueck, J . Die arabischcn Studien in Europa, Leipizig 1955, p . 124

(2) Endress, G . Einfuerung in die islamische Geschichte, p . 13 Muenchen 1982.

(٣) المرجع السابق ص ١٤ .

(أ) المرحلة الأولى

تتميز هذه المرحلة بتأثر العالم الغربى بالحضارة الإسلامية فى عصر ازدهارها، وقد أظهر المسلمون منذ العصر العباسى انفتاحًا كبيرًا إزاء الحضارات الأخرى .

ويعبر ابن رشد عن هذا الانفتاح عندما يذهب إلى القول بأن دراسة كتب الأقدمين تعد واجبًا إسلاميًّا، ويضيف قائلاً : عندما نقرأ كتب الأقدمين نتأمل ما ورد فيها فإن كان موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وإن كان فيها ما لا يتفق مع الحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم (١) .

وقد تم الالتقاء بين الشرق الإسلامى والغرب بصفة أساسية فى الأندلس وفى جزيرة صقلية . وقد تأثر الغرب بحضارة الشرق الإسلامى المزدهرة على الصعيدين الدينى والعلمى بصفة خاصة . أما على الصعيد الدينى فقد كان الأثر سلبيًّا تمثل فى سيل جارف من الأساطير والافتراءات والأباطيل ضد الإسلام . ولكن الأمر كان على العكس من ذلك على الصعيد العلمى فقد كان التأثير إيجابيًّا .

وقد أسهم فريدريك الثانى حاكم صقلية - والذى نصب قيصرَ عام ١٢٢٠ ، وكان من عشاق الحضارة الإسلامية - أسهم بنصيب كبير فى نشر الثقافة العربية فى أوروبا . وقد أنشأ جامعة نابولى التى درس فيها فيما بعد القديس توماس الأكوينى قبل دخوله سلك الرهبنة ، وأهدى فريدريك إلى جامعتى باريس وأكسفورد وغيرهما ترجمات لمؤلفات عربية . وقد تابع ابنه مانفرد جهود والده فى تقديم ثمار الحضارة الإسلامية إلى الغرب .

وتجدر الإشارة هنا أيضًا بصفة خاصة إلى ريموند أسقف طليطلة من عام ١١٣٠ حتى عام ١١٥٠ ، فقد كان له الفضل فى إنشاء مجمع للترجمة عهد برئاسته إلى دومينيك جونديسالفى . وقد أنجز هذا المجمع ترجمات لاتينية للعديد من المؤلفات العربية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وتمت حينذاك أيضًا أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم عام ١١٤٣ .

وقد كانت هذه الترجمات - التى توفر العلماء الغربيون على دراستها - تمثل

(١) فصل المقال لابن رشد ص ١٣ (ضمن مجموع بعنوان : فلسفة ابن رشد - القاهرة ١٩٦٨م) .

الأساس الذى قامت عليه الفلسفة المدرسية . وقد بيّن " كارادیفو " فى بحوثه مدى سيطرة النزعة السينائية (نسبة إلى ابن سينا) اللاتينية فى العصر الوسيط فى أوروپا، كما أكد العالم الفرنسى رينان فى كتابه عن (ابن رشد والرشدية) سيادة النزعة الرشدية اللاتينية فى الفكر الأوروپى الوسيط، وأثبت أن هذه النزعة الرشدية قد أسهمت إسهامًا كبيرًا فى سبيل انتشار حرية الفكر فى ذلك العصر .

وقد ظل التأثير الرشدى قائمًا فى أوروپا حتى القرن السابع عشر، وكان هذا التأثير بمثابة التمهيد للنزعة العقلية فى أوروپا فى عصر النهضة (١) .

(ب) المرحلة الثانية

تبدأ المرحلة الثانية تاريخيّا بالحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر . وقد تعرف الشرق الإسلامى حينذاك على العالم الغربى ، ولكن دون أن يكون لذلك أثر يذكر ، اللهم إلا ما تركه علماء هذه الحملة ـ الذين جلبهم ناپليون بوناپرت معه ـ من دراسات علمية هامة عن مصر تمثلت فى كتاب " وصف مصر " ، بالإضافة إلى تأسيس المجمع العلمى المصرى الذى لا يزال قائمًا حتى الآن .

وقد شهد القرن التاسع عشر جهودًا أكثر من ذى قبل من أجل التعرف على الغرب . ففى عصر محمد على باشا بدأ إرسال بعوث مصرية إلى فرنسا لدراسة العلوم المختلفة . وقد برز من بين هؤلاء رائد التنوير فى مصر فى العصر الحديث " رفاعة الطهطاوى " على الرغم من أنه أرسل إلى فرنسا أصلاً ليكون إمامًا ومرشدًا دينيّا للبعثة المصرية . ولكن عبقريته الفذة جعلت منه حلقة وصل هامة بين الحضارتين الإسلامية والغربية .

(ج) المرحلة الثالثة

المرحلة الثالثة هى المرحلة المعاصرة . وقد شهد العصر الحالى انتشار المدنية الغربية والتكنولوچيا الغربية فى كل مكان من العالم تقريبًا بما فى ذلك العالم

---

(١) انظر : دور الإسلام فى تطوير الفكر الفلسفى الإسلامى فى الفصل الثانى من كتابنا : مقدمة فى الفلسفة الإسلامية ـ دار الفكر العربى ٢٠٠٣م .

الإسلامى . ولكن العالم الإسلامى لم يأخذ بمنجزات الحضارة الغربية فى كل جوانبها ، بل كانت له بعض التحفظات فى بعض الجوانب . وعلى سبيل المثال نجد أن هناك مواقف متناقضة فى العالم الإسلامى إزاء العلوم الاجتماعية الغربية . فهناك من يؤيد الأخذ بها بلا حدود ودون تحفظ ، وهناك من يرفضها رفضًا تامًا .

وقد ظهرت هناك محاولات راحت تبحث عن طريق وسط بين هذين الاتجاهين وذلك فى شكل جهود علمية نقدية . وهذه المحاولات العلمية النقدية ترتبط بطبيعة الحال ارتباطًا وثيقًا بمحاولات نقد ذاتى على الجانب الإسلامى .

وقد سبق أن أشرنا مرارًا إلى أن الحوار الغربى الإسلامى لم يستطع حتى الآن أن يصل إلى الحد الأدنى الذى يحظى برضا الطرفين . ومن أجل ذلك وصفتُ هذا الحوار فى مناسبة أخرى بحوار الصم أو " حوار الطرشان "[١] نظرًا لعدم فهم كل جانب للجانب الآخر على نحو سليم .

وفى مستهل القرن العشرين بدأت محاولات الجانب الإسلامى فى النظر إلى الحضارة الغربية نظرة نقدية[٢] . وقد عبرت باحثة غربية هى الأستاذة R . Wie-landt عن صلة العالم الإسلامى بالحضارة الغربية بقولها[٣] : "لقد شعر المرء فى العالم الإسلامى بوضوح بازدواجية التقدم القادم من الغرب ، ومن هنا كان السؤال الهام : ماذا يكون الحال إذا لم تكن هناك حدود ثابتة للتأثير الحضارى الغربى فى العالم الإسلامى ؟

ألا تكون هناك مخاطرة تتمثل فى خسارة باهظة تفوق ما قد يكسبه المرء عن طريق عملية التحديث من قوة سياسية ورفاهية مادية ؟

إن الخسارة هنا ستكون باهظة بالفعل ؛ لأنها تتمثل فى خسارة المرء لدينه ولكل ميراثه التاريخى ولذاتيته الحضارية بصفة عامة .

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا : الإسلام فى تصورات الغرب ـ القاهرة ١٩٨٧م ص ١٧ .

(2) Rotraud Wielandt : Islam und Kult. Selbstbehauptung . in: Ende, Steinbach, Der Islam in der Gegenwart, Muenchen 1984, p . 555 .

(٣) المرجع السابق .

والأمر المثير للدهشة أننا نجد الآن من بين الباحثين الغربيين[1] من يتحدث عن أن إعادة اكتشاف المسلم تؤدى إلى تشكك الغربى فى تصوراته الأيديولوچية ونماذجه التاريخية كذلك .

ويشير الباحث نفسه وهو الأستاذ Antes إلى أن ما يسمى بالتقدم الغربى " قد تحول إلى شكل من أشكال تعاليم الخلاص الجديدة التى تقدم فيها الآن فكرة التبشير المسيحى (الغربية) . . المرتبطة بالدعوى الكلاسيكية المطلقة فى ثوب علمانى طبقًا للشعار التالى . . : ليس هناك أى خلاص خارج طريقتنا فى الحياة .

وخلفية ذلك كله تتمثل فى نموذج تاريخى يقضى بأنه ليس هناك إلا تطور واحد يمكن تصوره ، ولا يمكن أن تترك فيه مرحلة جوهرية من مراحله ، أو لا يجوز تخطيها ، وذلك هو التطور الذى نقف نحن عند نهاية أبعد نقطة متقدمة فيه . وعليه فإن من لا يكون مثلنا على هذا النحو يعد ـ فى عرف هذا التفكير بطبيعة الحال ـ متخلفًا .

والمؤلف نفسه ـ الذى يذكرنا بنموذج التطور الداروينى المطبق على التاريخ ـ يقتبس فى هذا المقام عبارة لمؤلف إيرانى[2] يقول فيها :

" هناك تصوران أساسيان للحرية ، أولهما هو التصور الغَربى المتمثل فى خلق حاجات جديدة باستمرار على نحو متزايد ، وثانيهما هو التصور المقابل لذلك والذى تتبناه العقلية الشرقية التقليدية ، ويقوم فى أساسه على أن الإنسان يجب عليه أن يحد من حاجاته باستمرار ؛ لكى يصبح مستقلا خارجيًّا وداخليًّا " .

وهذا الموقف المتفتح الذى يطالب به المرء على الجانب الغربى يعد ضروريًّا لإجراء حوار إسلامى غربى مثمر ، ولكن الطلب بطبيعة الحال أمر أسهل من التنفيذ الذى سيجر وراءه بالتالى نتائج حاسمة .

---

(1) Antes, P . Ethik und Politik im Islam, Stuttgart 1982, p . 12 f .

(٢) هو : M. Minowi (المرجع السابق ص ١٣) .

٣ - إمكانات الحوار وآفاق التعاون

إنه إذا كان ينبغى أن يكون هناك معنى للحوار المطلوب وأن يكتب له الاستمرار فإنه يجب على الأقل أن تتوقف المعاملة السيئة للإسلام فى الغرب[١] . ولا يجوز الاعتذار عن هذه المعاملة السيئة بالنقد الموجه إلى العالم الإسلامى . وليس هناك شك فى أن الإسلام قد أسىء فهمه فى الغرب ، ولكن هناك فى العالم الإسلامى من يسىء أيضًا فهم الإسلام ، وهذا أمر يشترك فيه الإسلام مع غيره من الأديان ، ومن أجل ذلك تعد الجهود العلمية المبذولة لبحث الإسلام بحثًا موضوعيّا خاليًا بقدر الإمكان من الأحكام السابقة ـ تعد جهودًا على درجة قصوى من الأهمية .

وينبغى أن يكون البحث الإسلامى متصلاً بصفة خاصة بالحاضر ، بمعنى أن يكون متفتحًا وقادرًا على التغلب على المشكلات القائمة والقيام بالمهام الموكولة إليه بطريقة ابتكارية فى إطار الروح الإسلامى ، وإذا كان هذا البرنامج يعد برنامجًا طموحًا ، فإنه من ناحية أخرى يعد البرنامج الوحيد الممكن للبحث الإسلامى الذى يسعى إلى إحداث تقدم أصيل فى المجتمع الإسلامى .

ويتصل بذلك ما يمكن أن يُطلَب بحق من علماء الإسلاميات الغربيين الذين لا يعتنقون الإسلام ويدرسونه من الخارج على نحو ما يفعل المراقب الخارجى ـ ويتمثل هذا الطلب فى محاولة عرض الإسلام كما يتمثل ذلك فى مصادره الأصلية وفى أفضل الأفهام الإسلامية [٢] . وعلى سبيل المثال فإنه من الخطأ العلمى أن يقال إن القرآن الكريم ألفه محمد ﷺ . والصحيح من وجهة النظر العلمية أن يقال : إن القرآن يعد ـ طبقًا للعقيدة الإسلامية ـ وحيًا من عند الله أنزله على نبيه محمد ﷺ . كما أنه من الخطأ العلمى كذلك أن يقال : إن الله هو إله المحمديين[٣] ، وأن يوصف الإسلام بأنه المذهب المحمدى ، أو بأنه دين عدوانى[٤] .

---

(١) لقد ازدادت هذه المعاملة للإسلام سوءًا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م .

(٢) لقد سبق أن دعا إلى مثل ذلك هادريان ريلاند Hadrian Reland منذ ثلاثة قرون عندما أصدر كتابه (الديانة المحمدية) عام ١٧٠٥ باللغة اللاتينية والذى صادرته الكنيسة الكاثوليكية حينذاك (راجع كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى) .

(٣) انظر على سبيل المثال قاموس . Duden, Fremdwoerterbuch

(٤) أقرب مثال على ذلك ما ورد فى صحيفة دى فلت الألمانية بتاريخ ١/ ٩/ ١٩٩٠ فى مقال كتبه هانز بيتر أوسفالد عن رحلة البابا يوحنا بولس الثانى إلى إفريقيا .

وبصرف النظر عن ذلك فإن هناك عدداً كبيراً من المثقفين الغربيين لا يزالون يقبلون مثل هذه المعلومات الخاطئة عن الإسلام ويعدونها من قبيل المسلمات بدلاً من إزالتها من الطريق ، وهناك من جانب آخر بعض علماء الأديان المعاصرين الجادين الذين يلفتون نظر الباحثين فى الأديان إلى أن الأحكام القيمية على هذا الدين أو ذاك بالصحة أو بالبطلان أمر لا يدخل فى إطار بحوثهم العلمية [١] .

ويعترف أحد المستشرقين المعاصرين المعدودين وهو الأستاذ وات Watt بأن " البحث الموضوعى فى المائة والخمسين عامًا الماضية لم يستطع أن يقدم للعقل الغربى المعاصر صورة للإسلام خالية من التشويه الذى أصابها ، وإذا كنا الآن فى عالم كثرت فيه الصلات بين المسلمين والمسيحيين وازدادت أهميةً عن ذى قبل ، فإن هذا أمر يوجب على المرء أن يبذل قصارى جهده فى توضيح الأسباب التاريخية لهذه الأحكام المسبقة عن الإسلام، والتى لا تزال تراود أذهاننا دون وعى " [٢] .

وقد لاحظ المؤلف ذاته أيضًا بحق أن كل ما نجده أمامنا من خلط وقلب للحقائق فيما يتصل بالإسلام يرجع إلى قصور فى التكوين الثقافى [٣] .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن القضاء على هذا الموقف المتمثل فى سوء الفهم للإسلام لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الفهم الصحيح ، وعندئذ يمكن أن تحل محل الصورة المشوهة للإسلام صورة أخرى واضحة غير محرفة ، وهكذا نجد أن إزالة سوء الفهم والحيلولة دون عودته إلى الظهور مرة أخرى تحتم علينا أن نبذل قصارى الجهد فى سبيل ترسيخ فهم صحيح للإسلام على أساس علمى متين .

فكيف يمكن أن يحدث ذلك ؟

لقد أكد كارليل [٤] أن الهدف الرئيسى للمسيحية والإسلام هو فى الأساس هدف واحد ، ويعبر عن ذلك بقوله : " إن المسيحية تأمرنا أيضًا أن نسلم أنفسنا لله على وجه الخصوص " .

---

(1) H. J. Greschat : Was ist Religionswissenschaft ? Stuttgart 1988, P. 23.

(2) .W. M. Watt : Der Islam, Bd. I, Stuttgart 1980, P. 17

(٣) المرجع السابق ص ٣٨ .

(4) Watt, What is Islam ? P. 6.

وهذا يعنى الاتفاق مع المفهوم الإسلامى المحورى وهو التسليم لله ، ولكن هذا المفهوم الرئيسى فى الإسلام وهو التسليم لله أو إسلام الوجه لله كما يؤخذ ذلك من مصطلح " الإسلام " - هذا المفهوم يتعرض مثل الكثير من المفاهيم الإسلامية إلى الكثير من سوء الفهم ، فمن المعروف أن مصطلح الإسلام ينحدر من حيث الاشتقاق من نفس الأصل الذى ينحدر منه مفهوم السلام فى العربية ، وهذا أمر ليس من قبيل المصادفة ؛ لأن الإسلام يرتبط ارتباطًا لا ينفصم بإرادة السلام .

وإنه لمن المتناقضات غير المفهومة فى تاريخ العالم أننا من ناحية نجد أن الأديان العالمية الكبرى تدعو فى جوهرها إلى السلام ، ولكننا من ناحية أخرى نجد أنها فى غالب الأحيان قد أسىء فهمها وزج بها فى حروب لا معنى لها .

ولا يزال مثل هذا الفهم السيئ للأديان قائمًا حتى عصرنا الحاضر ، ولكن هذا لا يستند فى الحقيقة إلى مبادئ هذه الأديان ، بل يرجع إلى أغراض دنيوية يتم الدفاع عنها تحت غطاء دينى . صحيح أن الدين الحق بدعوته إلى إسلام الوجه لله يدعو فى الوقت نفسه إلى الجهاد أيضًا ، ولكنه جهاد من أجل رد العدوان ، وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] . وفى هذا الإطار يعد هذا الجهاد أيضًا جهادًا لإعلاء كلمة الحق وإقامة موازين العدل ، ومحاربة النزعات الشريرة فى النفس الإنسانية .

ومن هنا نجد أن " الدعاية الحربية للعصر الوسيط المسيحى " كما يسميها أحد المستشرقين(١) والتى تمثلت فى الحروب الصليبية ، والتى لا يزال أثرها باقيًا حتى اليوم(٢) قد أصبحت من مخلفات العصور الماضية ، ولم يعد لها فائدة بصرف النظر عما يمكن أن تسببه من أضرار لا حصر لها . وإذا كان الإسلام يعترف بصفة مبدئية

(١) انظر : Watt فى المرجع السابق ص١ .

(٢) فى غمرة جهوده المكثفة للحرب ضد الإرهاب بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م ، لم يستطع الرئيس الأمريكى بوش إخفاء ذلك إذ أعلن أنها حرب صليبية ، وإن كان قد تم بعد ذلك تخفيف وقع هذا التعبير على المسلمين بالإعلان بأنه لم يكن يقصد ذلك المعنى الذى يتبادر إلى الأذهان .

بالمسيحية فى صورتها الأصلية فإن مثل هذه التيارات الهجومية على الإسلام لا محل لها فى حقيقة الأمر ، ولكنها لا تزال تعتمد إلى حد كبير على الحجج الجدلية القديمة العقيمة المنحدرة من العصر الوسيط .

ويعترف العقلاء على كلا الجانبين الإسلامى والغربى بأن الظروف قد تغيرت تغيراً تامّا، وأن الحقيقة الواقعية فى أيامنا هذه تتطلب حلولاً واقعية للمشكلات القائمة ، وتتطلب جهوداً مشتركة للتغلب على الكثير من العقبات .

والعالم الإسلامى يعرف اليوم أكثر من أى وقت مضى أن المشكلات الجديدة فى عالمنا المعاصر والتى تعد على درجة قصوى من الأهمية للمجتمعات الإسلامية ، وبخاصة مشكلات التكيف المتعقل لا العشوائى مع المدنية والتكنولوچيا الحديثة ـ لم يعد يمكن أن تحل عن طريق إجابات العلماء القدامى الذين لم يعرفوا عنها شيئًا، كما لا يمكن بصفة خاصة أن تحل عن طريق التقليد الأعمى للأفكار الغربية الحديثة . . وإنما يمكن حلها بروح الإسلام باجتهاد جديد كما كان يفعل علماؤنا السابقون .

والغرب من جانبه يعرف الآن أكثر من أى وقت مضى أن ضرورة التعايش واستمراره فى عالم اليوم تتطلب التعاون الحقيقى مع العالم الإسلامى الذى يشكل سكانه أكثر من خمس سكان العالم ، ويحتفظ فى باطن أرضه بمعظم الثروات المعدنية والنفطية فى العالم .

وهناك من غير شك جهود ملحوظة لتهدئة صيحات الحرب القديمة والاعتراف بالدور الفاعل والمؤثر للإسلام فى توجيه الطاقات وصياغة الحياة لأكثر من خمس سكان العالم ممن يدينون بالإسلام .

ولكن هناك جهوداً أخرى مضادة مرتبطة بالجهود السابقة بطريقة غير مفهومة لا تزال تسىء فهم الإسلام بوعى وبغير وعى، وتنظر إلى العالم الإسلامى نظرة سلبية . ومن هنا نجد أن كارليل نفسه كان يريد أن يقتحم الإسلام كما يقتحم حصنًا معاديًا . ويتفق كثيرون مع كارليل فى هذا الصدد [١] .

---

(١) المرجع السابق ص٢ .

وهناك اليوم فى الغرب اتجاه ملحوظ يرى فى العالم الإسلامى العدو المحتمل بعد انهيار العدو التقليدى الذى كان يتمثل فى الاتحاد السوفييتى السابق ودول الكتلة الشرقية قبل تحولها عن الماركسية .

وهذا يعنى استمراراً لتراث لاهوتى متحفى من العصر الوسيط . فقد كانت دراسة الإسلام حينذاك لها هدف واحد معلن يتمثل فى محاربة الإسلام بعد أن تأكد المرء منذ ثمانمائة عام من أن مجرد الشتائم والافتراءات ونسج القصص والأساطير حول الإسلام لا تكفى لمحاربته ، ومن أجل ذلك أوعز بطرس الموقر حينذاك إلى أحد العلماء المسيحيين بترجمة القرآن ؛ لأن الأهداف التبشيرية تتطلب معرفة آراء الخصم معرفة جيدة ـ كما كان يقول ـ[١] .

وقد بدأت الدراسات الاستشراقية منذ عصر التنوير تتخلص شيئًا فشيئًا من طريقة التفكير اللاهوتية[٢] . وفى بداية القرن الثامن عشر وجدنا أن " هادريان ريلاند " Hadrian Reland لا يزال لديه أثر للاتجاه التبشيرى أو على الأقل كان يتحدث عن ذلك ، وإن كنا نعتقد أنه كان مضطرًا لذلك خوفًا من بطش الكنيسة حينذاك .

وبصرف النظر عن ذلك فلقد كان موقف ريلاند (ت ١٧١٨م) يعد موقفًا متقدمًا جدًا إذا قيس بمقاييس عصرنا فى نهاية القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة . فقد طالب ريلاند بدراسة الإسلام وضرورة عرضه عرضًا موضوعيًا ، وكان يرى أنه لا يجوز أن يفهم المرء الإسلام أخذًا من أقوال الآخرين وما كتبوه عنه فى مؤلفاتهم ، وإنما ينبغى على المرء أن يبذل قصارى جهده فى دراسة مستقلة للمؤلفات العربية ، وأن يرى بعينيه هو لا بعيون الآخرين ؛ ليعرف حقيقة الإسلام الذى انتشر انتشاراً واسعًا فى آسيا وإفريقيا ، وأصبح معروفًا فى أوروبا أيضًا لكثير من الناس .

ويضيف ريلاند : إنه إذا كنا نعترف بأن الله قد أعطى العقل لكل الناس ، فكيف يجوز للمرء أن ينكر العقل لدى المسلمين ولدى علمائهم ؟

---

(1) Fueck, P. 4f.

(٢) المرجع السابق ص٩٧ وما بعدها .

وفوق ذلك طالب ريلاند[١] منذ ثلاثة قرون بدراسة الإسلام من مصادره الأصلية ، وعرضه كما يعرضه المسلمون ويتعلمونه فى مدارسهم ومساجدهم .

ولكننا نعود مرة أخرى إلى العصر الحاضر . فبدلاً من النظر إلى الإسلام على أنه يمثل تهديداً للغرب والانطلاق فى دراسته من ذلك، ينبغى على الغرب ـ كما يقول وات ـ أن يحاول تأمل الإسلام بطريقة موضوعية ومعرفة إمكاناته الإيجابية [٢] وينبه إلى أنه لا يجوز التقليل من قيمة الإسلام [٣] .

فالمرء لا يستطيع ـ كما يقول ـ " أن يعرف الإسلام دون أن يفكر فى إمكاناته . فالإسلام هو أحد المرشحين الرئيسيين (فى الصراع من أجل سيطرة دين من الأديان فى مستقبل عالمنا) ، إنه منافس خطير للمسيحية وللإنسانية " .

ولست أدرى كيف يفهم Watt الإسلام على أنه منافس خطير للإنسانية وهو نفسه دين الإنسانية ؟

ولكن " وات " ينبه إلى أن الحماس المعادى للإسلام يمثل خطراً يتمثل فى إصدار أحكام غير موضوعية على الإسلام وتقدير إمكاناته تقديراً خاطئًا . فالخوف يؤثر على القدرة المعرفية ، وفى ذلك يقول :

إذا كان الإسلام يهدد تصورنا لديننا فى العالم (سواء كان هذا الدين هو المسيحية أو الماركسية أو غير ذلك) فكيف يمكن أن يكون فى وسعنا أن نحكم على الإسلام حكمًا موضوعيًّا وأن نقدر إمكاناته ؟

ومن أجل ذلك لا يريد أن يظل واقفًا عند حدود هذه التخوفات ، ويميل إلى اتخاذ موقف تأملى إيجابى ، ويشير إلى أن الإسلام يعبر عن رؤية روحية للعالم وللحياة ، وهى رؤية لا تختلف كثيراً عن مثيلتها فى المسيحية واليهودية ـ كما يقول ـ [٤] .

---

(1) Pfannmueller,G. Handbuch der Islamliteratur, Berlin, 1921, p. 63f.

(2) Watt : What is Islam ?

(٣) المرجع السابق ص ٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٦ .

ويذهب وات إلى القول " بأننا نقف اليوم أمام بداية عملية جديدة تقدم صياغة عقلية للأمور الجوهرية فى الرسالة الدينية التى يشتمل عليها القرآن [١] " .

وغنى عن البيان أن نشير إلى أن البرنامج الذى يتصوره " وات " فى هذا الصدد بوصفه متأملاً خارجيّا للإسلام لا يمثل بالضرورة موقف المسلم من الإسلام عندما يتغلغل الإسلام فى أعماقه فيبذل قصارى جهده ليحيا بالإسلام الذى يعنى بالنسبة له تدينًا حيّا ، وليس مجرد موضوع للدراسة . ولكن هذا لا ينبغى أن يحول بين المسلم وبين أن يفهم بقدر الإمكان فكر المحاور الغربى وخصوصيات طبيعته .

وعلى الرغم من كل الصعوبات فإننا إذًا بذلنا جهودًا جديدة باستمرار ؛ لكى نفهم الآخر الذى نتحاور معه ، وليس فقط أن نعرض تصوراتنا عنه ، فإنه يمكن أن تكون هناك فرصة للتعاون الحقيقى المثمر بين الطرفين . فإنه بصرف النظر عن حقيقة اختلاف طرق الأديان فإنها مع ذلك تؤدى - كما هو المأمول - إلى ذات الهدف ، والهدف الواحد يمكن أن تراه العين من أماكن مختلفة فى صور مختلفة ، وينبغى ألا يغيب عنا هذا الهدف المشترك للأديان . ففى توحيد الألوهية - كما قيل بحق - " تتأسس وحدة الجنس البشرى وتتأسس المساواة بين كل البشر أمام الله [٢] .

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى :

﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ [الشورى : ١٣] .

ويؤكد الأستاذ كونج " أنه لن يكون هناك سلام بين شعوب هذا العالم بدون أن يكون هناك سلام بين أديان العالم ، فكم كان يمكن أن توفر البشرية على نفسها الكثير من ويلات الموت والخراب والدمار إذا لم يكن هناك من دعا باسم الدين إلى

(١) المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(2) H. Kueng ; Christentum und Islam, in Zeitschrift ; Islam und der Westen. Jg. 5, Nr. 3, 1985, p.9

إثارة العداوات والأحقاد، بل دعا إلى الوفاق والسلام كما جاءت بذلك الكتب المقدسة لليهود والمسيحيين والمسلمين "[1].

ونود أن نضيف إلى ذلك أننا يمكن أن نتفادى فى حاضرنا ومستقبلنا أيضًا الكثير من الموت والخراب والدمار عن طريق الالتزام بدعوة الأديان إلى الوفاق والسَلام بين البشر . وهنا لابد أن تتطابق الدعوة إلى ذلك مع الممارسة العملية بأن نقول ما نفعل ونفعل ما نقول، كما يحث القرآن الكريم على ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف : ٢ ، ٣].

وقد صور أحد العلماء الغربيين وهو أوليفر لا كومب موضوع الإسلام تصويرًا بديعًا حين قال[2]: "إن الموضوع الذى يعد محور الإسلام ، أى حقيقة الإسلام، يمكن تشبيهه بجوهرة ، والإسلام يمثل الخزانة المعدة لاستقبال هذه الجوهرة وحفظها " .

ويرى المؤلف نفسه "أن أوروبا التى انسلخت عن المسيحية ينبغى أن تفكر فى هذا الموضوع الذى يمثل محور الإسلام للعثور مرة أخرى على الحقيقة التى لا يجوز إنكارها أبدًا "[2] .

ويمكن القول : إن تحقق المؤمن بإسلام وجهه لله يعبر عن هذه الجوهرة . والكلمات لا تستطيع أن تصور ذلك ؛ لأن الدين - كما قيل - شيء آخر مختلف تمامًا[3] . فالدين يفتح للإنسان الذى يسلم وجهه إلى الله بعدًا جديدًا تمامًا لا يستطيع العقل وحده أن يبلغه .

وفى ختام هذا البحث أود أن أشير إلى أنه إذا كان قد قيل[4]: إن عدم قدرة

---

(١) المرجع السابق ص ٤ .

Olivier Lacombe : Sagesse chretienne et sagesse d'orient,
in Luman vitae' V1, Brussel 1949, p . 699

(٢) المرجع السابق.

(3) Le Gai Eaton, p. 13

(٤) المرجع السابق ص ١٥ .

الغربى على فـهم المسلم تتطابق مع عدم قدرة المسلم على فـهم الغـربى ، فإنه يمكن القول أيضًا : إننا إذا أردنا أن نحقق أنفسنا ونعرفها فى أفضل إمكاناتها ، فإنه يجب علينا أن نحاول التعرف بصدق على الآخر الذى لم نفهمه . وهنا تكمن فرصتنا التى لابد أن نغتنمها قبل فوات الأوان . وهذه الدعوة ليست موجهة إلى طرف دون الآخر ، فالقرآن الكريم قد أعلنها دعوة عامة إلى كل الشعوب والأجناس فى كل زمان ومكان :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] .

***

الفصل الخامس

الجانب الروحى فى الإسلام

- تمهيـــد
- أولاً: الإيمان والروحانية
- ثانيًا: الأخلاق والروحانية
- ثالثًا: الروحية الفطرية
- رابعًا: العبادة والجانب الروحى
- خامسًا: الجانب الروحى والشعائر الدينية
- سادسًا: التصوف الإسلامى
- كلمة ختاميـــة

الجانب الروحى فى الإسلام (*)

تمهيد

لقد درج كثير من علماء الإسلاميات فى الغرب على تجريد الإسلام من الروحانيات ، زاعمين أن ما يصادفه المرء من روحانيات فى هذا الدين إنما يرجع إلى تأثره بالديانات الأخرى . وحتى يكون الحوار مع الأديان والحضارات الأخرى قائمًا على أسس صحيحة فإن من الضرورى التعريف بالجانب الروحى فى الإسلام اعتمادًا على مصادر الإسلام الأساسية .

ويهمنا فى البداية أن نؤكد أنه ليس من الإسلام في شيء تأكيدُ جانب واحد من جوانب الطبيعة البشرية على حساب الجوانب الأخرى، فالإسلام لا يخصّ الفطرة الروحية للإنسان وحدها بتأكيد خاص منفرد . فليس مطلوبًا من الإنسان أن يعزف عن الحياة الدنيا كل العزوف، ولا أن يعيش متجهًا إلى الآخرة دون سواها .

وكما أن الإنسان لا يستطيع أن ينمى جانبه الروحى إلا بتحقيق الانسجام مع كيانه الجسمانى والنفسى ، كذلك لا يستطيع أن يتجه إلى الآخرة إلا بتأكيد ذاته روحيًا وأخلاقيّا في الدنيا . وهذا يعنى أن الحياة بكل تشعباتها لابد أن تكون مصبوغة بالصبغة الروحية عن طريق الإيمان كما يمارسه المؤمنون ويعيشونه .

(*) محاضرة ألقيت فى Das internationale und interdisziplinaere Symposium (= الندوة الدولية للتخصصات المتداخلة) حول موضوع . Die Spiritualitaet der Weltreligionen . Perspektiven fuer Bildung und Erziehung أى " الروحانية فى الأديان العالمية . نظرات مستقبلية للثقافة والتربية " أقامتها الجمعية الأوروبية لبحوث الأديان العالمية فى مجالات التربية بالاشتراك مع معهد لوكوم loccum التربوى الدينى فى ألمانيا فى الفترة من ٣٠ أكتوبر إلى ٤ نوفمبر ١٩٩٤م . وقد نشرت فى كتاب ضم بحوث المؤتمر بعنوان : Kru-hoeffer, G.u.a.: Spiritualitaet der Weltreligionen. Loccum 1996 (Schwerpunkte).

ويتحقق هذا المسعى من خلال سلوك الإنسان المسئول مسئولية خاصة أمام الله، وهو ما يتيح للإنسان تأكيد كرامته وحريته .

وفى دنيانا هذه، فى هذا العالم الذي يعيشه الإنسان المؤمن عن وعي بأن الله هو الذى خلقه ، وبأن الآخرة تحدد صورته ، يستطيع الإنسان بثمار الإيمان وبالأعمال الصالحة أن يحقق إنسانيته. وبذلك يجد الإنسان نفسه على الطريق الذى عَرّفَه اللهُ بنى آدم، طريق الإسلام لله والخضوع لإرادته - سبحانه وتعالى.

والإنسان موجه بالفطرة لحياة روحية، وهذا يعني من منظور الإسلام أنه موجه لعبادة الله. فبغير الإيمان لا تكون للأعمال - حتى الأعمال الصالحة منها - قيمة معتبرة . [الأعراف : ١٤٧]، [الأحزاب : ١٩] ؛ [الكهف : ١٠٥]؛ وغيرها كثير.

ونعمة الإيمان ينالها الإنسان بالسعي الدءوب الذي يجعله جديراً بها . وما نسميه الإيمان قوامه العلاقة الشخصية بين الإنسان والله. ومن خلال هذه العلاقة ينال الإنسان القدرة على سلوك السبيل إلى آيات الله المنزلة فى كتابه الكريم ، وإلى آيات الله فى الكون كله وفى نفسه [فصلت : ٥٣]، كما ينال مفتاح الحياة الروحية [الأنعام: ٥٩].

وسنحاول فى الصفحات التالية توضيح هذه المعانى التى أشرنا إليها . وفى هذا الصدد سنتناول بالشرح علاقة الجانب الروحى بالإيمان وبالأخلاق وبالنمو الطبيعى للإنسان وبعبادة الله على أوسع وأشمل معنى وبأهم الشعائر الدينية. ثم نعرض فى هذا الإطار دور الأعياد الإسلامية، وننتقل بعد ذلك إلى توضيح المعنى الأساسى للتصوف.

أولاً : الإيمان والروحانية :

من خلال التمسك بالإيمان فى الحياة اليومية ، وبذل الجهد كل يوم من جديد من أجل تحقيقه، ينال المرء الحياة الروحية ويكتسب القدرة على التفكير والعمل المبدع .

وإن ما يقوم به الفرد من سلوك شخصى ـ فى أى وقت وفى أى مكان ـ له دور بالغ الأهمية فى حياته الإيمانية ، حيث يشهد هذا السلوك الظاهرى فى أغلب الأحيان على الإيمان الباطنى . والقرآن الكريم يؤكد باستمرار أهمية السعى الشخصى الأخلاقى للإنسان وبذل الجهد فى إثبات الذات روحيًا وهو ما ينمّى شخصية الإنسان ويؤكد حريته .

ويضرب القرآن الكريم في هذا السياق مثلاً يدور حول رجلين لكل منهما شخصية مختلفة عن الآخر ، أحدهما رجل أبكم عديم الفهم لا يقدر على شىء أبدًا لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ، وهو لذلك عبءٌ على سيده ، كلما أرسله لينجز شيئًا ، فشل وعاد دون أن يأتي بخير . ويسأل القرآن : كيف نسوِّى بين هذا الرجل وبين رجل آخر يتمتع بالاستقامة والحياة الروحية ويأمر بالعدل ويلتزم به ويمثل قدوة للآخرين ؟ ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [النحل : ٧٦] . والعدل فى الإسلام اسم من أسماء الله الحسنى . والرجل الذى يأمر بالعدل يصفه القرآن بأنه : ﴿ **عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [النحل : ٧٦] .

والصراط المستقيم تعبير من التعبيرات العديدة التى يطلقها القرآن على الإسلام ، وهو على النقيض من طرق الضلال والانحراف ، ومن شأنه أن يبلغ بمن يسلكه الهدف مباشرة ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة : ٦-٧] .

والأعمال الصالحة التي يطلبها الإسلام تتمثل أولاً وقبل كل شىء آخر فى الأعمال التى تحقق العدل ولا تحيد عنه بحال من الأحوال . كما نستخلص ذلك بوضوح من المثل السابق عن الرجلين المشار إليهما . فالله ـ سبحانه وتعالى ـ كما يذكر القرآن الكريم فى موضع آخر [التوبة : ١٩] ﴿ **لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ . ولهذا

يشدد فى هذا الموضع بوضوح وجلاء على أن سقاية الحاج، أى رعاية الحجاج، وعمارة المسجد الحرام لا تساوى فى قيمتها أعمالاً أهم منها مثل تلك الأعمال التى يقوم بها من آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد بنفسه وبماله فى سبيل الله .

والإيمان الحق هو إيمان القلب الذي يؤمن بالله وينقاد لهدايته . وهذا الإيمان يحفز الناس يوميّا إلى السعى على نحو متجدد ومتواصل نحو العمل من أجل حياة صالحة . وبغير الإيمان يبتعد الإنسان ـ شعوريّا أو دون وعى منه ـ على نحو متزايد ـ عن النبع الحقيقى للحياة وعن الواقع الحقيقى ، وتشتد حياته الروحية فقرًا، فيفتقد الأمل والحماس والعزم الأخلاقى .

ويرتبط ذلك بأن الإنسان ـ مثله مثل الخليقة كلها معه ـ ليس وليد الصدفة . فقد خلق لمقصد وطبقًا لخطة إلهية، وتتضمن هذه الخطة حرية الإنسان فى أن يقرر لحياته ما يريد . ولو كانت حياته تتقرر من خارجه وليس من داخله ، أى لو كانت حياته لا تنطبع بطابع قراراته الروحية ، لكان من المتنكبين عن الطريق المستقيم التائهين فى سبل الضلال .

وبفضل الروح التى نفخها الله فيه عند خلقه، والتى تُعد حلقة الوصل الدائمة بين الله وعباده ، يستطيع الإنسان عندما يقرر الإيمان، أن يستلهم الروح الإلهى ، وأن يسلك طريق الإسلام المستقيم ، وعندئذ يعبد الله بكل كيانه ، وهذا هو " الدين القيِّم " كما يبين لنا ذلك القرآن الكريم ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

وقد أرسل الله أنبياءه ـ كما ورد فى القرآن الكريم ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [الأنبياء : ٢٥ ، وغيرها من المواضع] ـ فى كل الأزمان يدعون الناس إلى الدين الحق . وكانت دعوتهم إلى الله تتمثل فى المقام الأول فى أن يكونوا مُثلاً يحتذى بها الآخرون .

ولهذا فنحن عندما نتعرض لموضوع " الروحانية " فى الإسلام بوصفه موضوعًا من موضوعات البحوث والعلوم التربوية [1] ، يمكننا أن ننطلق من طائفة كبيرة ومتنوعة من وثائق الإيمان فى الإسلام. ولدينا فى المقام الأول القرآن الكريم والسُّنّة النبوية التى تشمل حياة النبى محمد وأحاديثه. والنبى كما جاء فى القرآن الكريم ، هو القدوة العظمى و " الأسوة الحسنة " للمسلمين ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ [الأحزاب : ٢١] .

ولدينا بعد ذلك شواهد عديدة من حياة وأعمال عظماء المسلمين فى القرون الأربعة عشر المنصرمة ، الذين اتبعوا صراط الإسلام - بالمعنى المحدد للكلمة - على اعتبار أنه طريق الإيمان المنزل على خاتم النبيين والمرسلين ، والذين امتازوا على نحو خاص بحياتهم الأخلاقية النموذجية إلى جانب التدين العميق .

ثانيًا: الأخلاق والروحانية:

يؤكد كلٌّ من القرآن والسنة بوضوح وجلاء أن الأخلاق جزءٌ من الحياة الدينية لا ينفصل عن الإيمان [2] ، وينبهان باستمرار إلى أن حسن سلوك الإنسان له أهمية حاسمة بالنسبة إلى مصيره الروحى. ومن البديهى أن الأخلاق لا تعنى فى هذا السياق مجرد ترك الأعمال المنافية للأخلاق عن خوف من العقاب ، وإنما تعني فى المقام الأول أداء الأعمال الصالحة بدوافع روحية ، تلك الأعمال الصالحة التى تنبع من السعى إلى تحقيق قيم الحق والخير والعدل والرحمة ، أو بعبارة أخرى تنبع من نكران الذات .

ومن المهم فى هذا السياق أن نشير إلى أن الإسلام لا يطلب المستحيل ، فهو لا يطلب من الإنسان أن يكون إنسانًا صالحًا صلاحًا مطلقًا ، أو عادلاً عدلاً مطلقًا . وإنما يطلب منه أن يبذل كل الجهد فى أن يكون سلوكه سلوكًا صالحًا وعادلاً .

وهذا التمييز بين الأمرين هام جدّا . ففى مقدور الإنسان أن يسعى ويجتهد فى

---

(١) فى ذلك إشارة إلى موضوع المؤتمر الذى ألقى فيه هذا البحث .
(٢) انظر فيما سبق العلاقة بين الأخلاق والإيمان فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

أداء الأعمال الصالحة . أما أن يكون الهدف هو أن يصير الإنسان إنسانًا كاملاً كمالاً مطلقًا، فهذا شيء نراه بحق أمرًا مستحيلاً. ولهذا يدعو القرآن الإنسان أن يجتهد قدر استطاعته فى الالتزام بقيم السلوك الأخلاقى، وعلى رأسها قيمتا العدل والرحمة. والخبرة العملية تعلم كل إنسان قيمة العدل(١)، فإن لم تعلمه العدل فهى على الأقل تعلمه أن يتمنى العدل، وبخاصة إذا وجد نفسه عرضة للظلم .

والأساس الذى يقوم عليه العمل الأخلاقى هو قدرة الإنسان على أن يرى نفسه فى أخيه الإنسان . والقرآن يبين لنا أن الله يسبغ عونه على الإنسان الذى يسعى لتحقيق العدل لا لنفسه فقط ، ولكن أيضًا من أجل المظلومين من إخوانه من البشر . والله يلقى إلى الإنسان الذى يؤمن به - كما يشير القرآن إلى ذلك [البقرة : ٢٥٦]- حبل نجاة من عنده ، أو العروة الوثقى بالتعبير القرآنى؛ لينجيه فى هذا العالم المتلاطم أمواجه المتفرع سبل الضلال فيه؛ وبذلك ينقذه الله من الضياع . والإنسان الذى يسعى لإنقاذ إخوانه من البشر من الضلال ينقذ بذلك نفسه أيضًا . وحين يفتح قلبه للرحمة (التى هى اسم من أسماء الله الحسنى) من أجل الآخرين فإنه ينالها أيضًا . وفى هذا المعنى يعبر الحديث النبوى: «**من لا يَرحم، لا يُرحم**»(٢).

والإيمان الذي يدعو إليه الدين لا يحدث أثره إلا عندما يستقر فى القلب؛ لأن القبول الظاهرى بالدين لا يكفى ولا قيمة له ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحجرات : ١٤]. والإيمان بالقلب هو الإيمان الصادق بالله المتصف بكل صفات الكمال والذى وسعت رحمته كل شىء . ورباط الرحمة الذى يربط المؤمن بإخوانه من البشر وبالمخلوقات التى يتهددها خطر ما ، يأتى من عند الله .

---

(١) يُعد العدل لدى فلاسفة الأخلاق فى الإسلام جماع كل فضيلة، كما يُعد الجور والظلم جماع كل رذيلة .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

وحُجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م-٥٠٥هـ/ ١١١١م) فى بحثه عن الحقيقة ـ كما يروى لنا فى سيرته الذاتية " المنقذ من الضلال " ـ يعبر عن بحثه عن هذا الحبل الإلهى المنقذ من الضلال قائلاً :

" ولكنى أومن إيمانَ يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فأسأله أن يصلحنى أولاً ، ثم يصلحَ بى ، ويهدينى ، ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقّا ويرزقَنى اتباعه ، ويرينى الَباطل باطلاً ويرزقنى اجتنابه "[1]

وقد أخذ الجانب الروحى فى الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان يوجه حياةَ أعداد متزايدة من الناس . وقد أدى ذلك إلى نشأة واحدة من أعظم الحضارات التى عرفتها البشرية فى تاريخها ، ولا يزال الإسلام إلى اليوم في عالمنا الذى تحول إلى قرية كونية يمثل ـ بناءً على مبادئه العالمية ـ القوة المحورية للحياة الروحية بالنسبة للمسلمين . ذلك لأن الإسلام يدعو إلى العقيدة الإيمانية التى دعت إليها جميع الأديان السماوية منذ بدء الخليفة ، تلك العقيدة التى تلزم صاحبها بالإيمان بإله واحد خالق لكل البشر وكل المخلوقات ، وبالتالى يتضمن ذلك الدعوة إلى عبادته . وبهذه العبادة وحدها يمكن أن يجد الإنسان السكينة التى تتوق إليها روحه .

إن " التقوى " ، أو بتعبير آخر " البِر " ، هو ـ كما قال النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذات مرة : **«البِر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس، وتردد فى الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»**[2] .

والإنسان بطبيعته مفطور على الدين . فالدين فطرة مغروسة فى أعماق النفس الإنسانية ، والقرآن يبين لنا أن روح البشر قد أُعطيت عند خَلْقها العلم الفطري بربوبية الله ـ سبحانه وتعالى :

---

(١) الإمام الغزالى ، المنقذ من الضلال ، ص ٧٧ ، نشر أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت بدون تاريخ .
(٢) رواه الدارمى فى البيوع .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

والروحية التى يربِّى الإسلامُ المسلمَ عليها هى روحية ينميها الإنسان استناداً إلى الفطرة التى فطره الله عليها وهى فطرة التوحيد. ولكن الإنسان، فى غفلة منه، قد يبهره الشرك، أي عبادة الأصنام أيّا كان نوعها، ومن الأصنام المال والسلطة والمتعة، فتغريه الرغبة فى تحقيق الثراء أو السلطة أو المتعة، فيضل السبيل. أما إذا أدار لهذه الغوايات ظهره ، واتّبع فطرته الباطنة ، فعندئذ تصبح حياتُه حياة روحية، أى تصبح حياةً مبدعة وذات معنى .

ومن أكثر التفسيرات الخاطئة لتعاليم الإسلام شيوعًا حتى يومنا هذا ذلك التفسير الضيق الأفق القائل بأن الإسلام مجرد دين قوانين وأوامر ونواهى[1]، وهو ما يعنى بعبارة أخرى أنه دين يخلو من الروحية بالمعنى الصحيح. فالحياة الروحية تفترض مبدئيّا ألا ينحنى الإنسان لأى قوانين انحناء العبيد، بل أن تكون له القدرة على أن يتخذ قراره من الناحية المبدئية بحرية، وأن يتصرف بحرية. ولكن الإنسان، إذا صحت هذه الحجة، يمكن أيضًا أن يبدد حريته ، وهذا يحدث فى عبادة الأصنام المشار إليها . أما الحرية الحقة فالدين هو الذي يتيحها للإنسان . والقرآن الكريم يقرر بصريح العبارة : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦].

والعروة الوثقى ـ أو حبل الله المتين الذى لا ينفصم ـ والتى تتمثل فى التمسك بالدين ، يخضع الاستمساك بها لحرية الإنسان الذى يستطيع أن يتشبث بها كما يستطيع أيضًا أن يتجاهلها .

ثالثًا: الروحية الفطرية:

الإنسان بفطرته حر. ولكنه إذا أراد أن يظل حرّا، فإن عليه أن يحاول أن يشكل حياته على نحو معقول ومثمر. والحرية تزداد عمقًا لدى الإنسان من خلال الحياة الروحية. وعليه ألا يدع صراع القوى المختلفة بداخله يعوقه عن نيل الحرية. بل ربما

---

(١) وقد درج على هذا التفسير الضيق للإسلام عدد كبير من المستشرقين .

كان هذا الصراع معينًا له فى ذلك . وفطرة الإنسان المتمثلة فى أن يكون جسمًا وروحًا معًا في آن واحد تؤدى بطبيعتها إلى أن تنشط في داخله تناقضات ودوافع متضادة. والقرآن يدلنا على المخرج ويصفه لنا بأنه العمل ابتغاء عبادة الله وعمارة الأرض ، وهما يمثلان الهدف الذى من أجله خُلق الإنسان :

﴿ ... اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴾ [هود : ٦١] .

ويبين القرآن الكريم أن الإنسان خُلق من الأرض وأنه مكلف بالعمل فيها. وكما أن الزارع يعد الأرض ويستثمرها ، كذلك الإنسان عليه أن يبنى حياته ويستثمرها . ولا يكفى لتحقيق هذا الهدف أن يقوم الإنسان نفسه بالعمل الذى هو مضطر إليه على كل حال ؛ لكى يبقى على قيد الحياة . فالإنسان لم يخلق من الأرض فقط ، بل فيه تكمن الروح التى منحها الله له (الحجر : ٢٩ - ص : ٧٢) والروح تريد أن تفرض ذاتها . والدين يبين الصراط المستقيم المؤدي إلى إثبات الروح لذاتها. ولا يستطيع الإنسان أن يسلك الصراط المستقيم إلا إذا أخذ الدين مأخذ الجد ، ولم يجعل للدين جزءاً صغيراً من حياته فقط. فإذا هو قصر الدين على أوقات محدودة لا يتعدى حدودها ، أصبح دينه أشبه شىء باللعب واللهو . ويحذرنا القرآن من هذا المسلك ، ويحضنا على أن نجتنبه :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... ﴾ [الأنعام : ٧٠] .

ويتمثل مقصد الدين فى مساعدة الإنسان على اتباع ما يمليه عليه جانبه الروحى الذى يتحقق بعبادة الله ، فقد قرر القرآن أن الإنسان خُلق لهذا الغرض :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . مع الأخذ فى الاعتبار أن مفهوم العبادة لا يجوز اختزاله فى مجرد أداء الشعائر الدينية المعروفة .

والإنسان الذى يعبد الله حق عبادته يكون جديراً بأن يصبح خليفة الله فى أرضه ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾

[البقرة : ٣٠] ، وأن يتحمل مسئولية عمارتها ، أى تدبير شئونها ورعايتها وصنع الحضارة فيها ، طبقًا للتوجيهات الإلهية ومستعيناً فى كل ذلك بالعقل الذى هو هبة من الله للإنسان (البقرة : ٢٢ ـ طه : ٥٣) .

ويتجلى شكر الإنسان لربه على هذه النعم فى العمل بأقصى ما فى وسعه على إقامة العدل والسلام ، وعلى خلق الظروف المواتية لهما والمتمثلة في تحقيق الخير والكرامة لإخوانه من البشر . والإنسان عندما يتصرف على هذا النحو لا يحرر نفسه فحسب ، بل يسهم بذلك فى تحرير الأرض ؛ لتكون مستقرًا للسلام الإلهى . وعلى كل إنسان، كما جاء في الحديث النبوي، أن يكون في مجال عمله ومسئوليته مثل الراعى ، "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته "[1]، والإنسان بهذا كله يحقق مفهوم العبادة لله .

ومن السهل على كل إنسان أن يفهم أنه مكلف بأن يعمل فى هذه الحياة . أما ارتباط هذا التكليف بجعل الحياة ذاتها عبادة لله فإن هذا أمر لا يدركه الإنسان بسهولة . فالتكليف موجه إلى حرية الإنسان، والإنسان يستطيع أن يستجيب لهذا التكليف فيعبد الله، كما يستطيع أن يتجاهله وينساه. وتكليف الإنسان بعبادة الله موجه إلى روح الإنسان، أى إلى ذلك الجزء من طبيعته الذى لا يسهل ملاحظته ورعايته؛ لأنه ليس شيئًا ماديًا، ومن هنا يميل الإنسان إلى إهماله. والقرآن يعطينا فى هذا السياق طائفة من الإشارات المرتبطة بالخبرة العملية للبشر .

فيذكر القرآن الكريم أن الإنسان عندما يمسه الضُّر يتذكر الله فجأة ويدعوه، ويرجو عونه ، حتى إذا انكشف الضُّر ، زُيِّن له أن ينسى الله مرة أخرى . (يونس : ١٢) . وهو بهذا يهمل دون وعى منه ذلك الجانب الروحى من طبيعته . ولهذا يحذر القرآن الإنسان ويبين له أنه ـ عاجلاً أو آجلاً ـ سيدرك عواقب إهمال أكرم جزء من طبيعته . وتتمثل هذه العواقب في أن الإنسان ـ دون أن يعى ذلك بالضرورة ـ سينسى نفسه ويهمل روحه ، وبعبارة أخرى أدق أن الله ـ الذي نسيه هذا الإنسان ـ سيجعله ينسى نفسه ويعرضها للضياع . يقول القرآن :

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٩] .

ومن الخير للإنسان، كما يبين لنا القرآن الكريم ، أن يشكر الله على عونه الذى لا يقدر على شىء بدونه . وفى هذا الشكر يتجلى الجانب الروحى من طبيعة الإنسان، فالشكر الذى يتمثل فى العبادة الحقيقية لله يملأ نفس الإنسان بالبهجة الروحية ويمده بالمزيد من القوة الروحية أيضًا .

وإذا كان الله يريد من البشر أن يعبدوه فإن ذلك لا يعنى أنه فى حاجة إلى عبادتهم. فالبشر فى حاجة مستمرة إليه - سبحانه وتعالى - فى كل لحظة من لحظات حياتهم :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦-٥٨] .

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ... ﴾ [الزمر : ٧].

ومن الأمور البديهية أن العمل للدنيا ولما فيه الخير للناس يدخل فى باب العبادة لله والشكر على نعمائه . ومن هنا لا يجوز إهمال الدنيا أو التقليل من شأنها :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ... ﴾ [القصص : ٧٧] .

والموقف السليم للإنسان من عالمى الدنيا والآخرة يتمثل فى بذل الجهد من أجل أن يكون ما يؤديه الإنسان من عمل في الدنيا عونًا له فى الآخرة. وقد جاء فى أثر إسلامى مشهور: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا" .

فالدنيا والآخرة ليسا منفصلين عن بعضهما ، كما قد يبدو لمن ينظر إليهما من منظور مادى . وعلى المؤمن أن يضع دائمًا نصب عينيه أن الله يرى الإنسان في كل حركاته وسكناته . ولما لم يكن فى وسع الإنسان أن يرى الله فقد يميل بسهولة إلى نسيانه ، على الأقل بين الفينة والفينة .

ولهذا جاء فى حديث نبوى شريف : «اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك»[1] .

رابعًا: العبادة والجانب الروحى:

إن المؤمن الصادق الذي يصفه القرآن بأنه مَنْ ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [يس : ١١] أى بقلبه دون أن يراه يوقن بأن الله هو الحقيقة الأزلية الوحيدة التى لا حقيقة وراءها ، ومن هنا يؤمن به إيمانًا فطريًا على النحو الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٢٢] .

وهذه العبادة تعنى بالنسبة له السعى الحثيث لتحقيق الإرادة الإلهية فى نشر العدل والإحسان وكل قيم الخير فى كل مكان ، ولا تتمثل بكل بساطة فى مجرد المكوث فى أوقات معلومة فى بيوت الله لأداء الصلوات المفروضة فحسب . إن العبادة بالمعنى الشامل تعنى كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة قاصداً به وجه الله بصدق وإخلاص : ﴿ ... فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ٢] .

وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم :

﴿ ...فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

ولقد كانت حياة النبى ـ علية الصلاة والسلام ـ كلها عبادة مثالية ، وعنه يقول القرآن الكريم : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

والنبى هو قدوة المسلمين فى إسلامه لإرادة الله . والقرآن الكريم يبين لنا النهج الذى يمكن أن يختاره الإنسان فى حياته (البلد : ١٠ـ١١) . فهناك مبدئيًا طريقان أمام الإنسان ، أحدهما : طريق الإيمان والخير الذى يتطلب من الإنسان بذل الجهد ليقتحم العقبة أي يتخطاها ويتغلب على وعورة الطريق . أما الطريق الآخر ، طريق الشر ، فهو الذي يسلكه أولئك الذين ينكرون آيات الله في الكون وفي رسالاته

---

(١) المناوى ، فيض القدير ، المجلد ١ ص ٥٥١ .

المنزلة وفي أنفسهم وقلوبهم. إنه الطريق الذي يهبط بسالكيه إلى أسفل سافلين، إلى الذل والمهانة والحزن (التين : ٥) . وإنما ينجو من هذا المصير أولئك الذين آمنوا إيمانًا صادقًا وعملوا الصالحات:

﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾ [التين : ٦] .

ويشير القرآن الكريم إلى أن : ﴿ **رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٦] .

والمؤمن يعبد الله ويرجو رحمته. وعلى الرغم من أن الأعمال الصالحة للمؤمن لا تكفى فى حد ذاتها لتبرير موقفه أمام الله، فإنه يظل يجاهد، وهو فى حاجة إلى قوة روحية تمكنه، على الرغم من وعيه بضعفه، من الاستمرار فى عبادة الله، ومن اقتحام " العقبة "، وهذه المجاهدة تمكنه من الحصول على القوة الروحية.

والمغانم الروحية هى المقاصد الوحيدة التى تستحق أن يسعى إليها المؤمن. ومن خبراته فى الحياة يدرك الإنسان أنه لا يعيش - إلا فى الظاهر فقط - على الرزق الذى تأتى به المتع الدنيوية المجردة التي قد يسأمها بسهولة. أما الحياة الحقيقية التي يجدر به أن يحياها فرزقها يصفه القرآن بأنه " في السماء " . هذا الرزق الروحى يؤكد القرآن أنه حق مثلما أنكم تنطقون. وإشارة القرآن إلى النطق وإلى نعمة اللغة التي أوتيها الإنسان إشارة إلى نعمة الروح، ما فى ذلك شك. يقول القرآن :

﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** ﴾ [الذاريات: ٢٠- ٢٣] .

أما ما يصنعه الناس بنعمة الروح فيختلف أشد الاختلاف من فرد إلى آخر، فلا يسعى إلى اليقين الروحي من البشر إلا طائفة منهم. والقرآن يصنف الناس من الناحية الروحية إلى ثلاث مجموعات (فاطر : ٣٢) :

المجموعة الأولى تضم الذين ظلموا أنفسهم، أى ظلموا فطرتهم الروحية بغلبة سيئاتهم على حسناتهم.

أما **المجموعة الثانية** فتضم أولئك الذين لم يقطعوا ما بينهم وبين الإيمان من أسباب، ولكنهم مقتصدون أى أنهم لم يسرفوا فى السيئات، ولكنهم لم يكثروا من الحسنات .

وأما **المجموعة الثالثة** فهى ، كما يقول القرآن الكريم ، تضم الذين يشاركون فى التسابق نحو الخيرات ويفوزون بإذن الله بالسبق . والفوز فى السباق نحو الخير يمر عبر اقتحام العقبة، والاجتهاد فى أداء العمل الصالح .

إن الطبيعة الروحية للإنسان والتى تتمثل فى الروح ، هى ما تجعل الإنسان إنسانًا يختلف عن الحيوانات التي تميزها الغريزة. والروح هى التى مكنت الإنسان ـ كما يقول القرآن الكريم (البقرة : ٣١) ـ من أن يعطى الأشياء أسماءها ، أى مكنته من معرفة طبيعة الأشياء . وبهذا أوتى الإنسان القدرة على العمل العاقل ، أى القدرة على أن يتولى خلافة الله فى الأرض . والقرآن يقرر أن الله يُثَبِّت الذين آمنوا وتمسكوا بإيمانهم وشهدوا به :

﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

وفى هذا السياق يضرب القرآن الكريم مثلاً بالكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، يبين فيه الفرق بين الروح الطيبة والروح الخبيثة :

﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ [إبراهيم : ٢٤ـ٢٥] .

وبعبارة أخرى : إن الإنسان الذى يعبد الله بأداء الأعمال الصالحة في الدنيا وبالتوجه إلى الآخرة تصبح حياته مثمرة مثل الشجرة الطيبة .

وعلى العكس من ذلك نجد أن الإنسان الذى لا يؤمن والذى لا ينمى فطرته الروحية ينتهى بجذور مُجْتَثّة وأعمال عقيمة لا تؤتى ثمرة. يقول القرآن :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم : ٢٦] .

ولهذا يحض القرآن الكريم الإنسان المؤمن على أن يغيِّر حياته . فعليه ، بدلاً من أن يخوض مع الخائضين في أحاديثهم الباطلة ، أن يستخدم طاقاته فى عبادة الله بالمعنى الشامل لهذه العبادة . وعليه ، كما يقول القرآن الكريم ، أن يقيم الصلاة وأن يطعم المساكين ، وأن يكون من الموقنين باليوم الآخر (المدثر : ٤٣-٤٥) . كما أن عليه عندما يتكلم ألا يقول إلا قولاً سديداً . وعندئذ يجزيه الله على أعماله الصالحة خير الجزاء (الأحزاب : ٧٠ و٧١) . ويضاف إلى ذلك أن عليه أن يتقى الله وألا ينساه ، وأن يجعل كلامه مطابقًا لأفعاله (الصف : ٢-٣) . وعلى هذا النحو تكتسب حياته الاستقامة الضرورية والسند الثابت .

والقرآن يبين لنا (الأعراف : ١٧٢) أن الإنسان يحمل بالفطرة في ذاته علمًا بأن الله هو ربه ورب العالمين[(١)] ، وأنه وحده هو الحقيق بالعبادة . وحتى إذا كان الآباء والأجداد مشركين ، فليس ذلك - كما ينص القرآن الكريم - عذراً يبرر الآراء الدينية الخاطئة والشرك بالله . فالتنزيل الإلهى من رب العالمين على مر الزمن يذكّر الإنسان بالمعرفة الفطرية التي غرسها الله فيه ، والتي تدله على طريق العبادة لله وحده لا شريك له . فإذا هو سلك هذا الطريق المستقيم نال الإيمان الخالص الذى يمكِّنه من الالتزام بأداء ما عليه من تكاليف دينية تشمل خيرى الدنيا والآخرة . وبذلك تكتسب حياته السند القوى والصبغة الروحية الأصيلة .

---

(١) يتحدث ديكارت أبو الفلسفة الحديثة فى كتابه " التأملات " عن فكرة وجود الله بوصفها فكرة مغروسة فى فطرة الإنسان عند خلقه مثلما يختم الفنان صنعته باسمه . وفى ذلك يقول : "والحق أنه لا ينبغى أن نعجب من أن الله حين خلقنى غرس فىّ هذه الفكرة لكى تكون علامة للصانع على صنعته" . (التأملات ترجمة د . عثمان أمين ص ١٥٥) . وقبل ديكارت بأكثر من خمسة قرون قال حجة الإسلام الغزالى : "وصورة آدم مكتوبة بخط الله . . ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمى عن معرفة ربه" (مشكاة الأنوار تحقيق أبى العلا عفيفى ص ٧١) .

خامساً: الجانب الروحى والشعائر الدينية

تشمل فرائض الدين الإسلامى حياة المؤمن كلها، فهي تذكره دائمًا بالله وتحضه على التضحية ابتغاء مرضاته. ومن شأنها أن تعين من يلتزم بأدائها على أن يكرس حياته على نحو متزايد لعبادة الله، وبذلك تصبح حياته حياة روحية ثرية.

وتتضمن هذه الشعائر والمناسك فى المقام الأول أركان الإسلام الخمسة التى بنى عليها الإسلام كما جاء ذلك فى الحديث النبوى المعروف (١) وهى:

١- شهادة أن لا إله إلا الله رب البشر أجمعين وأن محمداً نبيه ورسوله.

٢- إقام الصلاة، أى تأدية الصلوات الخمس اليومية فى أوقاتها المعروفة.

٣- صوم شهر رمضان من كل عام.

٤- إيتاء الزكاة.

٥- الحج إلى البيت الحرام فى مكة لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وهذه الأركان الخمسة التى تحيط بحياة المؤمن كلها يوميّا وعلى مدار العام تشكّل الأسس التى من خلالها يمكن تنمية الجانب الروحى لدى المؤمنين أفراداً وجماعات.

ويمثل الإيمان بالله أو الشهادة، أهم ركن من أركان الإسلام، والإيمان الصادق هو الذى يبتغى به المؤمن وجه الله: ﴿ ... **ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ** ﴾ [الليل: ٢٠].

أما الإنسان الذى لا يؤمن بالله حق الإيمان، فإنه يعرض نفسه لأخطار كبيرة يصفها القرآن الكريم بقوله:

﴿ ... **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [الحج: ٣١].

---

(١) رواه كل من البخارى ومسلم فى صحيحيهما وأحمد فى مسنده والترمذى والنسائى ونصه: [بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان] راجع: فيض القدير للمناوى ج٣ ص ٢٠٨.

ونقدم فيما يلى شرحًا موجزًا للمعنى الروحى لبقية أركان الإسلام ، أعنى شعائر الصلاة والصوم والزكاة والحج . ثم نبين باختصار المعنى الروحى للأعياد الإسلامية .

الصلاة

تهدف الصلوات الخمس التى يؤديها المسلم في أوقاتها يوميًا إلى التذكير بالله . والتذكير بالله يصبح بالنسبة للمؤمن الصادق حمدًا لله يقول عنه القرآن :

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [الطور : ٤٨ـ٤٩] .

والتقوى فى نظر الإسلام ـ كما سبق أن بينّا ـ هى تقوى القلب ، وهى ليست مجرد تنفيذ ظاهرى للأحكام . إنها ـ كما يبين لنا القرآن الكريم (البقرة : ١٧٧) ـ ليست حركة يأتى بها المؤمن عندما يصلي فيولى وجهه قبَل المشرق والمغرب ، بل هى قيامٌ بالأعمال الصالحة حبّا فى الله . حتى أقل الأعمال الصالحة يحتاج إلى النية الطيبة وإلى القوة الروحية . ونجد فى حديث نبوى شريف مثلاً على ذلك :

«**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»[1] أى بوجه بشوش .

وتجارب الحياة تبين لنا أنه من الصعب على الإنسان أن يبتسم ابتسامة حقيقية ، إذا لم يكن يشعر بميل باطنى حقيقى إلى الابتسام . والصلاة المفروضة التي يؤديها المؤمن التقى تعنى فى نظر الإسلام توجه القلب إلى الله حبّا فيه . إنها صلاة وصلة بين المؤمن وربه . والصلاة الحقيقية تحظى بالقبول من الله الذى يستجيب لكل من يلتجئ إليه بالصلاة والدعاء ، والصلاة فى أصلها اللغوى دعاء (البقرة : ١٨٦) .

وهذه الصلاة التى يؤديها المؤمن فى تواضع لله وابتغاء وجهه لا تنفصل عن الجهد الذي يبذله المؤمن قبل الصلاة وبعدها ، والذي يستهدف السلوك الأخلاقى ؛ فقد جاء فى القرآن الكريم :

---

(١) رواه مسلم فى البر والصلة .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

وجاء فى الحديث النبوى أن النبى عليه الصلاة والسلام سمع عن امرأة تصلى وتصوم ، ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، أى بالغيبة والنميمة ، فقال إنها من أهل النار .

وعندما يكون المؤمن صادقاً في صلاته ، فإن صلاته ، شأنها شأن كل عبادة صادقة ، تمنحه مزيدا من القوة الروحية . وهذه القوة الروحية على مستوى الفرد تتضاعف في صلاة الجماعة . وفى الحديث الشريف : «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ (أى المنفرد) بسبعٍ وعشرين درجة** »(١) .

وعن صلاة الجمعة الأسبوعية يقول القرآن الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑨ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ٩ ـ ١٠] .

والصلاة تعين المؤمن على التغلب على ما يصادفه من عقبات ، وتزوده بقوة روحية متجددة . وعلى المؤمنين أن يذكروا الله كثيراً ، حتى يزدادوا إيمانا على إيمانهم ، وهو ما يعود عليهم بالخير فى الدنيا والآخرة .

الصوم

إن من يتأمل ويشاهد المسلمين فى تأديتهم فريضة الصوم ، يفهم كيف أن الجماعة لها هنا أثر بالغ الأهمية ، كما هو الحال بالنسبة إلى الصلاة ، فالجماعة تدعم الفرد وتسانده فى المجاهدة الدينية . وهكذا فإن ما قلناه عن صلاة الجماعة يمكن أن ينطبق على الصوم في الجماعة . والروحية لدى الفرد تسهم بدورها فى دعم جهود الجماعة ، وفى الوقت نفسه تقوى وتتعمق من خلال جهود الجماعة .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

وصوم شهر رمضان فى كل عام يعنى الصوم من قبل مطلع الفجر قبل أن تبزغ الشمس إلى غروبها . وفى هذه الأثناء يحرم على الصائم ـ كما هو معروف ـ الأكل والشرب وغير ذلك من شهوات الجسد .

ولم يفرض الله الصوم على المؤمنين تعذيبًا لهم ، فهو – سبحانه – يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر (البقرة : ١٨٥)، ويريد منهم أن يشكروه على ما هداهم .

ولكن التوصل إلى مستوى الروحية المطلوب لا يتم دون بذل الكثير من الجهد والعمل والمعاناة. والصوم الصادق من العبادات التى تساعد الصائم على التغلب على كل الصعاب التى تعترض طريقه للتوصل إلى تعميق ودعم الجانب الروحى لديه . ويشير القرآن الكريم إلى أن هدف الصوم هو التقوى، والتقوى تمثل المستوى الروحى المطلوب الذى يليق بالإنسان المؤمن .

ولقد كان الصوم مفروضًا ـ كما يذكر القرآن ـ على المؤمنين فى الديانات السابقة قبل الإسلام ، وكانوا يؤدونه فى نطاق أديانهم .

يقول القرآن فى ذلك : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

وقد خص الله شهر الصوم بفضل نزول القرآن فيه (البقرة : ١٨٥)، هذا القرآن الذى جعله الله : ﴿ **هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ** ﴾ .

الزكاة

إن كل أشكال الزهد المقصود على المستوى الدينى من شأنها أن تعمل على تقوية ودعم الجانب الروحى لدى المؤمن ، والزكاة فرض دينى مثله مثل الفرائض الدينية الأخرى يطلب من المؤمن ممارسة فضيلة الإيثار والتغلب على رذيلة الأنانية . فعليه أن يخرج فى كل عام قدراً معينًا مما يملك زكاةً تعطى للفقراء .

وقد تبدو الزكاة فى ظاهرها من الناحية المادية على أنها خسارة يتحملها من يؤديها . أما من الناحية الروحية فإن ما يحدث شيء مختلف تمامًا . فالمؤمن عندما يؤديها ابتغاء وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينال أجرًا يفوق كل ثروة .

يقول القرآن الكريم :

﴿ ... وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٢] .

وهذا الأجر - كما تبين آيات أخرى - يتمثل فى أن الله ينزع الخوف والحزن عن المؤمنين الصادقين ، فهم :

﴿ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٧] .

وهذه الدرجة التى يبلغونها من الروحية ، تتيح لهم راحة القلب وسكينة النفس ؛ لأن الله ، كما يقول القرآن الكريم ، ينزل عليهم السكينة (التوبة : ٢٦ ؛ الفتح : ١٨ ، ٢٦) ، ويعمر بها قلوبهم (الفتح : ٤) .

وهكذا يستشرفون مستقبلاً لا يخشونه ، فلن يكونوا فيه وحدهم ، وهم يبذلون ما يبذلون من جهد وسط الصعاب . وعندما ينتهون من اقتحام " العقبة " سيجدون اليسر فى انتظارهم : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥] .

وعلى المؤمن أن يستمر فى المسيرة بلا توقف ، وأن يَنْصَب ، أى يبذل الجهد الشاق ، فلا يفرغ من عمل صعب حتى يبدأ فى العمل الصعب الذى يليه ، وكله ثقة فى الله الذى يقول فى محكم كتابه :

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [الشرح : ٧-٨] .

والجهد المبذول فى العبادة ، والقوة اللازمة لأدائها ، يزيدان مع كل إنجاز يبلغ غايته ، والمؤمن الذى يتجه برغباته إلى الله فى صدق يجد منه - سبحانه - العون والتوفيق .

الحج

والحج إلى بيت الله الحرام في مكة ، فى وقت معلوم من كل عام ، شأنه شأن صلاة الجماعة والصوم مع الجماعة ، ينال فيه الفرد دعم الجماعة لما يبذل من جهد . وعلى كل مؤمن أن يحج البيت مرة واحدة فى حياته إن استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ويلبس الحجاج جميعًا أثناء هذه الرحلة التي تزخر بالشعائر الثياب البسيطة البيضاء التى ترمز إلى تلاشى الفروق الاجتماعية بين الناس أمام الله وتؤكد أن التقوى هى الشىء الوحيد الذى يحسب له حساب .

ويذكر القرآن الكريم أن نبى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان أول من أمره الله بأن يؤذِّن فى الناس بالحج إلى المكان الذى تقوم فيه مكة والكعبة المشرفة . والحج مثله مثل العبادات الأخرى ينبغى أن يؤديها المؤمن لله بنية خالصة : ﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ** ... ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

وعلى المؤمن أن يؤدى المناسك فى تبتل . ومن هنا فإنه يتحتم عليه الامتناع عن المعاشرة الزوجية وعن كل الأعمال المنافية للأخلاق والمرفوضة من الدين ـ مثل الرفث والفسوق والجدال ـ وبدون هذا الالتزام يفقد الحج قيمته . وأما الزاد الذى يوصى القرآن المؤمنين أن يتزودوا به دائمًا فهو التقوى :

﴿ **وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ** ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وتَقوى الله تمثل سياجًا منيعًا يقى الإنسان من ارتكاب المعاصى وتحثه فى الوقت نفسه على صالح العمل ، وتواكبها الثقة فى الرحمة الإلهية . هذه التقوى هي غذاء الروح الذى يمد القلب بأسباب الحياة الحقيقية المتصلة بأصل الوجود؛ فروح الإنسان ـ كما بين لنا القرآن ـ نفخها الله فيه عند خلقه ، وهى لهذا تهفو إلى أصلها الذى ينال منه الإنسان رزقه الروحى والمادى على حد سواء .

الأعياد الإسلامية

ونود فى نهاية هذه الدراسة أن نشرح بإيجاز معنى الأعياد الإسلامية الرئيسية التي ترتبط بالممارسة الدينية الجماعية للصوم والحج وتَختمها . وهى أعياد شكر روحى لله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذا الشكر ينصب على التوفيق فى أداء هذه الواجبات الدينية بنجاح . والأعياد مع هذا كله تعبر عن حالة من الارتياح النفسى ومن اكتساب مزيد من القوة الروحية نتيجة لأداء الفروض ، والفرد لا يحس وحده بوصفه فردًا بمشاعر الارتياح بعد النَّصَب عندما يحتفل بهذه الأعياد ، بل إنه يحس بها بوصفه عضواً فى الجماعة التى تضاعف مشاعر الارتياح والفرحة الروحية .

والاحتفال بالأعياد هو أولاً وقبل كل شيء آخر احتفال بمغزاها الديني من خلال صلوات الشكر التي تقام في البداية في المساجد ، ويتمثل المغزى الديني في تذكير المؤمنين بأن الإيمان وما يترتب عليه من كل عمل يؤدونه باسمه يعد بالنسبة للإنسان ﴿ **شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ** ﴾ [يونس : ٥٧ ، وغيرها] .

ومن هذا المنظور فإن الصيام والحج يرتبطان ارتباطًا رمزيًا على نحو ما بالعيدين اللذين يعقبانهما ، وذلك بالإضافة إلى المعنى العملي . فمن الممكن اعتبارهما رمزين لحياة المؤمن في تحولها من العسر إلى اليسر ، وفي سعيها إلى اجتناب الشهوات امتثالاً لأوامر الله وفيما يستتبع ذلك من فرحة روحية وقوة روحية ، لا هدف لها إلا مرضاة الله .

وحياة المؤمنين كما بينّاها تختلف اختلافًا واضحًا عن حياة غير المؤمنين التي تتسم بالغرور حيث إنهم : ﴿ **وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا** ﴾ [يونس : ٧] . وغفلوا عن آيات الله ، فهم لا يرجون لقاء الله ، ويظنون أن هدفهم يتمثل في الحياة الدنيا ولا شيء سواها .

سادسًا: التصوف الإسلامي

يُعتبر المتصوفة المسلمون الصادقون في تصوفهم ، وخلفاؤهم في الطرق الصوفية التي أسسوها والسائرون على دربهم ، قدوة على صراط الإسلام المستقيم ، فقد اجتهدوا على نحو خاص لتشكيل حياتهم الروحية . وذلك استجابة لدعوة الإسلام في ألا يسلموا أنفسهم للدنيا ، بل عليهم أن يسلموا أنفسهم لله .

ولقد شقوا على أنفسهم في أن يكرسوا حياتهم على نحو متزايد لعبادة الله فأصبح فكرهم روحيًا ، وعملهم روحيًا ، واستطاعوا بهذا أن ينالوا منزلة كبيرة في جماعتهم . وأنشأ كثير منهم مذاهب صوفية وفلسفية وأسسوا طرقًا صوفية . وعن طريق التصوف انتشر الإسلام في غرب إفريقيا .

وفي هذه الطرق الصوفية تأثر المريدون عن طريق التربية بمعلميهم المتصوفين . فكانوا يحضونهم بانتظام على التدريبات الروحية لذكر الله ويقيمون حلقات ذكر جماعية وغيرها من الاحتفالات .

ومن يريد أن يفهم التصوف الإسلامي فى جوهره على نحو أوثق - وليس من خلال الممارسات الخاطئة والأشكال والطقوس السلبية التى نراها هنا وهناك - فخير له أن يتأمل عبارة دالة قالها الصوفى والفيلسوف أبو حامد الغزالى شدد فيها على حقيقة مفادها : أن التصوف لا يمكن أن يفهمه على نحو صحيح إلا مَن حاول أن يمارسه عمليّا ، " فمن ذاق عرف " ، كما يقول . وحب الصوفية لله يُعد - كما يقول أيضًا - [1] :

"**حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها** " .

وفى موضع آخر من كتابه " المنقذ من الضلال " - وهو سيرته الذاتية - يقول عن تأثير طريق الصوفية على من يسلكه [2] :

" وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب من غير الله - تعالى - وتحليته بذكر الله " .

كلمة ختامية

وفى ختام هذه الدراسة يمكن القول بأن هناك علاقة تفاعلية متبادلة بين الفرد والجماعة فى جهود التوصل إلى درجة الروحانية . فالفرد المسلم بفضل تقواه ومن خلال جهوده الناجحة لاقتحام العقبة يشجع جماعته فى الاقتداء به . ومن ناحية أخرى تمثل الجماعة بالنسبة له عاملاً مشجعًا وداعمًا .

والمسلمون يأخذون على كل حال دينهم وتعاليمه مأخذ الجد ، ويجتهدون فى الالتزام بها ، وفى الوفاء بمتطلباتها . والحق أن الدين يحتل فى حياتهم بصفة عامة منزلة كبرى . وتمثل الروحانية الدينية بالنسبة إلى خيرتهم " الرزق الروحى " الذى يسعون أولاً وقبل كل شيء آخر إلى كسبه وبلوغ غايته .

---

(١) الإمام الغزالى ، المنقذ من الضلال ، نشر أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت بدون تاريخ ، ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٧ .

أما كيف تتولد هذه الروحانية بالتفصيل وعلى نحو ملموس - سواء فى المجال الشخصى أو من خلال التربية فى حياة الآخرين ، فأمر يصعب في النهاية التعبير عنه بالكلام . فالروح - وبالتالى الروحية التى تعد تجليًا للروح -

أمر يدخل فى دائرة الألوهية ، - كما يقول القرآن - ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء : ٨٥] .

والروح [١] كما يقول الغزالى فى " كيمياء السعادة " :

" محل معرفة الله - تعالى - ليس بجسم أو عرض ... ومعرفة الروح صعبة جدًا لأنه لم يرد في الدين طريق إلى معرفته ؛ لأن الدين هو المجاهدة ، والمعرفة علامة الهداية ... ومن لم يجتهد حق اجتهاده لم يجز أن يتحدث معه فى معرفة حقيقة الروح " [٢] .

ويشير القرآن الكريم إلى أن الله يؤيد " بروح منه " أولئك الذين كتب فى قلوبهم الإيمان لأنهم التزموا بمتطلباته . (المجادلة : ٢٢) . ونحن نجد فى آيات القرآن الكريم ، وفى السُّنة النبوية ، وفى شواهد كثيرة من تراث أئمة المسلمين ، العديد من الإشارات والتنبيهات إلى الروحية الإسلامية وإلى الطريق الموصل إليها . أما سلوك هذا الطريق وما يواكبه من اقتناع بصحته وحقيقته فمن شأن كل فرد على حدة . وإذا كانت التربية تدع للإنسان مكانًا لتنمية العنصر الربانى فيه ، وهو ذلك العنصر الذى منحه الله للإنسان عند خلقه ، فإن التربية تكون قد أدت واجبها وأثمرت ثمرتها .

***

---

(١) الروح يذكر ويؤنث كما جاء فى مختار الصحاح .

(٢) الإمام الغزالى ، كيمياء السعادة ، فى مجموعة رسائل الإمام الغزالى ، نشر أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت (ب ت) ، ص ١٢٦ / ١٢٧ .

الفصل السادس

الإسلام والحوار بين الأديان

١ ـ تمهيـــــــد

٢ ـ الحوار بين الأديان فى نظر الإسلام

٣ ـ أهداف الحوار

٤ ـ عناصر مشتركة وإمكانات التعاون

الإسلام والحوار بين الأديان (*)

١ ـ تمهيد

إن مما لا شك فيه أن عالمنا فى أشد الحاجة إلى السلام . ولقد تعلمنا من دروس التاريخ باستمرار أن الحروب لا تستطيع أن تحل المشكلات ، بل يمكن أن تتسبب فى ظهور مشكلات جديدة . وعلى أحسن الفروض تؤجل بتكلفة باهظة حل المشكلات ، وقد تعقِّد حلها تعقيداً يصل بها إلى درجة الاستعصاء التام .

وتستطيع الأديان من جانبها أن تسهم إسهامًا حقيقيّا فى إقامة السلام إذا ما أنعمت النظر فى مهمتها الحقيقية ونهضت بها ، ولكنها إذا استمرت فى المشاحنات والخصومات المتبادلة فيما بينها فإنها لن تتمكن من تأدية دورها الأصيل ، ألا وهو العمل من أجل السلام .

والدين لا يعنى الانصراف عن الدنيا والهروب منها ؛ لأن الإنسان يعيش فى الدنيا ، وهو جزء من الخليقة . والدين يؤهل الإنسان ليشغل المكان الذى حدده له الخالق فى هذه الحياة لكى ينهض بمهمته الإنسانية .

والإسلام يعلِّم الإنسان الفرد ويعلِّم الجماعات البشرية بصفة عامة الانفتاح على الدنيا ؛ لأنها من خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ مثلها فى ذلك مثل الإنسان ، الذى كلفه الله بأن يتحمل مسئوليتها . والقرآن الكريم يخبرنا أن الله جعل الإنسان خليفة له فى الأرض ، وأنه لذلك علم آدم الأسماء كلها (البقرة : ٣٠ـ٣١) ، وذلك يعنى العلم بأوسع معانيه .

(*) محاضرة ألقيت فى ندوة " مقاصد الحوار بين أديان التوحيد الثلاثة والأخطار التى تهدده " La Finalite du Dialogue entre Les trois Religions Monotheistes et les Dangers qui le menacent التى أقيمت فى جامعة السوربون ، باريس ، فى ١٣ يونية ١٩٩٤م.

ولقد كلف الإنسان بالحوار على كل المستويات حتى يكون قادراً على النهوض بمسئولياته . ومن أجل ذلك زوده الله باللغة وبالعقل ، والعقل يعنى الروح التى نفخها الله فيه عند خلقه (الحجر : ٢٩ ، ص : ٧٢) . ويختلف الإنسان عن المخلوقات الأخرى التى تعتمد على غرائزها الفطرية مما يجعل طبيعتها محدودة وبيئتها محدودة أيضًا ، أما الإنسان فإنه يتمتع بالحرية وبالتالى الانفتاح على العالم . ولهذا كان من الممكن أن تنشأ الحضارات الإنسانية المختلفة منذ خلق الإنسان . والحضارة هى من طبيعة الإنسان ، وهى فى الوقت نفسه فرصته ومهمته .

والأديان السماوية الثلاثة تتفق كل الاتفاق فى اعتبارها السلوك الأخلاقى شرطًا ضروريًا لتنمية الإنسان الفرد وتنمية المجتمعات البشرية . ولكن هذه الحقيقة كثيراً ما أسيء فهمها على مر التاريخ ، فتارة يكون التركيز على حقوق الإنسان الفرد وحده ، وتارة يكون التركيز على حقوق المجتمع وحده ، الأمر الذى يخل بالتوازن فى المجتمعات البشرية .

٢ـ الحوار بين الأديان فى نظر الإسلام

يبين لنا القرآن الكريم أن الأديان المختلفة يسلك كل منها سبيلاً مختلفًا عن غيره ولكنها جميعًا تسعى إلى هدف واحد :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ... ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وبدلاً من أن يجعل الناسُ من اختلاف الأديان والثقافات والأعراق منطلقًا للنزاعات والصراعات من أجل السلطة والاستعلاء وسيطرة القوة ، عليهم أن يجعلوا منها منطلقًا للتعارف والتآلف والتآخى . وهذا ما يؤكد عليه القرآن الكريم فى قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] . فالتعرف على الآخرين على اختلاف مشاربهم وأشكالهم

واتجاهاتهم يوسع أفقنا ويتيح لنا فهمًا أفضل لإنسانيتنا . والإنسان الذى يعرف نفسه حق المعرفة يتجاوز الفروق بين البشر ، ويزداد معرفة بنفسه من خلال معرفته بالآخرين الذين يشاركونه فى الإنسانية . وتؤهله هذه المعرفة للتعاون الخلاق مع الآخرين والتسامح الخالص معهم والاستعداد للتفهم ، أى تؤهله للحوار . والمخلوقات البشرية كلها تكشف عن نفسها شيئًا فشيئًا لمن يدرك أنه مخلوق وأنه جزء من كل ، وبناءً على هذه المعرفة ، يرى الطرق المختلفة التى تسلكها الجماعات البشرية المختلفة طرقًا تؤدى فى حقيقة الأمر إلى نفس الهدف .

ويُعتبر الاعتراف بالأديان السماوية الأخرى وبأنبيائها - من وجهة النظر الإسلامية - عنصرًا أساسيًّا من عناصر الإيمان . ومن هنا لا يجوز للمسلمين أن يفرقوا بين الرسل :

﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وقد كان الإسلام من بين كل الأديان سباقًا إلى الدعوة إلى الحوار . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...** ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

كما حدد القرآن الكريم منهج هذا الحوار الذى ينبغى أن تتصل حلقاته بين الأديان :

﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

والقرآن الكريم يأمر المسلمين بالتعايش السلمى الإيجابى مع كل الشعوب الأخرى وذلك بمعاملتها بالبر والعدل [الممتحنة : ٨] . أما إذا تعرض المسلمون للعدوان ، فعليهم بداهة أن يدافعوا عن أنفسهم ، وعليهم فى أثناء الحرب أن يتجنبوا ارتكاب أعمال منافية للأخلاق . فلا يجوز لهم أن يقتلوا الأطفال والنساء

والشيوخ وغير المحاربين ، ولا يجوز لهم أن يمثلوا بجثث القتلى أو إساءة معاملة الأسرى أو قطع الأشجار وإفساد المزروعات .

وهكذا فإن الحوار المبنى على التسامح والمفعم بالتفاهم مع أتباع الأديان الأخرى يعد واجبًا أوجبه الإسلام على المسلمين ، وهو فضلاً عن ذلك يمكنهم من أن يفهموا تدبير الله فى خلقه على نحو أفضل ، وأن يعبدوه ويسبحوا بحمده . ويبين لنا القرآن الكريم أن معيار التفاضل بين الناس أمام الله ـ أيّا كانت انتماءاتهم الدينية والعرقية ـ هو درجة التقوى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

والتقوى تجعل الإنسان قادرًا على الدخول فى حوار مع الآخرين . فهى التى تتيح له أن يكون إنسانًا بمعنى الكلمة منفتحًا على الآخرين وساعيًا إلى تحقيق الخير وإقامة العدل والسلام بين الناس .

والسلام هو الهدف الذى يسعى الإسلام إلى تحقيقه من خلال البشر . ويمكننا أن نتصور معنى السلام فى الإسلام فى صورة ثلاث دوائر متداخلة على النحو التالى :

الدائرة الأولى: تمثل السلام النفسى أو السلام مع النفس الذى يعنى التوازن العادل بين قوى النفس المختلفة . وهو سلام يتحقق على نحو سليم من خلال **الدائرة الثانية** التى تمثل السلام مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح ، وكلاهما يوفر الأساس المتين للسلام فى **الدائرة الثالثة** التى تمثل السلام مع الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية والسلام مع البيئة المحيطة بنا بكل ما تمثله من حيوان أو نبات أو جماد . وهذه الدوائر الثلاثة يؤثر كل منها فى الآخر .

وفى عصرنا الحاضر الذى تتقارب فيه الجماعات الثقافية والدينية فى قرية كونية تقاربًا متزايدًا تصبح قضية السلام والعدل بين الناس من القضايا ذات الأولوية المطلقة التى تزداد إلحاحًا كلما ازدادت صعوبة الإجابة عنها . وإنما تأتى الإجابة الصحيحة عنها من خلال الأديان عندما نفهمها حق الفهم ، أى من خلال الدين المُعاش .

ويؤكد القرآن الكريم فى هذا الصدد مبدأ حرية الإنسان فى اختيار عقيدته الدينية لما لذلك من أهمية حاسمة فى مسار حياته كلها :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

والدين يعنى التوجه الحر من جانب الإنسان نحو الله باختياره وهو الإسلام طواعية لإرادة الله .

ويرتبط بتعاليم القرآن الكريم التى تنص على أن السلام هو طريق الإسلام وهدفه، أن الإسلام لا يجوز بحال من الأحوال نشره أو الدعوة إليه بالقهر والإجبار على الدخول فيه، وإنما يكون ذلك بالقدوة الطيبة والدعوة بالحسنى، وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

٣ـ هدف الحوار

يظل الحوار بين الأديان حواراً فعالاً لا يتحول إلى مجرد حديث منفرد ، طالما كان معبراً عن السعى الحقيقى من جانب المتحاورين إلى السلام والعدل والتوصل إلى تفاهم خالص بين الأديان . وهو يتطلب من المشاركين فيه موقفًا إنسانيّا يتيح لهم اختراق جدار التعصب والأحكام المسبقة والأفكار المغلوطة والنزعات الداعية إلى العنف ، ذلك الجدار الذى عهدناه لا يكاد ينهدم حتى يقوم من جديد بين الأديان .

والمؤكد كل التأكيد أن الله ـ سبحانه وتعالى، وهو الذى لا يظلم أحدًا ـ لا يمكن أن يكون فى جانب من يلاحق الأبرياء ظلمًا وعدوانًا حتى ولو كان ذلك باسم الدين، ولا فى جانب من ينظر فى بلاده إلى هذا الظلم والعدوان ولا يفعل شيئًا .

والتعاون بين البشر كافة ينبنى على قاعدة متينة ـ كما يبين القرآن الكريم ـ تتمثل فى أنهم جميعًا قد خلقوا من نفس واحدة [النساء : ١]، وهو ما يعنى أن الإنسانية جمعاء على نحو ما بمثابة أسرة واحدة كبيرة . ومن هنا فأى عدوان على أى فرد من

أفرادها يعتبره الإسلام بمثابة عدوان على البشرية كلها ، وفى المقابل يعد تقديم الخير لفرد من أفرادها بمثابة تقديم الخير للإنسانية كلها (المائدة : ٣٢) .

والإنسانية التى يدعو الإسلام إليها تحض على احترام كرامة كل إنسان . والإنسان له كرامته حيّا وميتًا . وفى هذا المعنى روى البخارى أن النبى ﷺ نهض واقفًا تعبيرًا عن احترامه للميت عندما مرت به جنازة . فلما قيل له إنها جنازة يهودى ، قال : «**أليست نفسًا ؟**»[١] .

وأمر المسلمين بأن يقوموا احترامًا للميت كلما مرت بهم جنازة بغض النظر عن المعتقد الدينى للميت .

أما تنوع الأديان وتنوع الثقافات العديدة التى انبثقت منها على مدى تاريخ الإنسانية ، فإن ذلك يرجع إلى أن وراء ذلك كله رسالة دين حق توالت باستمرار فى صور متعددة . وتتمثل نواة هذه الرسالة فى علاقة الإيمان الحميمة التى تقوم بين الإنسان وربه مؤكدة إسلام المرء وجهه إلى الله الذى يعينه ويهديه سواء السبيل .

ويستطيع الإنسان الفرد مستعينًا بعقله أن يختار لنفسه العقيدة الدينية فى حرية تامة . ويمثل هذا الاختيار الحر اقتحام الإنسان " العقبة " إلى إنسانيته الحقة ومسئوليته الذاتية .

ولابد من دعم تنمية إنسانية الإنسان عن طريق التربية الصحيحة والتثقيف الرشيد ، وهذا من شأنه أن يوقظ فى الإنسان مهارات إبداعية ، وأن يؤهله للعمل المستقل الرشيد .

وفى عصرنا الحاضر ، وفى مواجهة الظروف المضطربة التى يتعاظم اضطرابها يومًا بعد يوم ، تتضح لنا بجلاء متزايد حقيقة المهمة التى تقع على كاهل الأديان . لقد أسهمت رسالات الأديان على مدى التاريخ فى بناء أنظمة حياتية واجتماعية فى عالمنا من شأنها أن تتيح لكل الناس بقدر الإمكان فرصة للتنمية . وبهذا يمكن الإسهام فى بناء السلام المنشود بين البشر .

---

(١) [صحيح] البخارى (١٣١٢)، ومسلم (٨١/ ٩٦١) .

ويختلف الإنسان عن المخلوقات الأخرى كافة ، فى أنه وحده الذى يتحمل مسئولية تشكيل حياته تشكيلاً حرّا، وفى أنه يشترك مع البشر الآخرين المؤهلين لهذه المهمة فى حمل مسئولية تدبير شئون الخليقة [الأحزاب : ٧٢]. ولكل إنسان دائرة مسئولية محددة ، ولكن هدفها جميعًا ينبغى أن يكون منصبًا على التكامل بين هذه المسئوليات من أجل إقامة التوازن المؤدى إلى السلام فى العالم .

وليس هناك أحد من حقه أن يجبر غيره على سلوك هذا الطريق أو ذاك . فالقرار ينبغى أن يكون نابعًا من أعماق الذات فى حرية تامة . ومن هنا وجدنا القرآن يؤكد على أن الناس أحرار فى أن يؤمنوا أو يكفروا . وبعبارة أخرى أحرار فى أن يسلكوا طريق الصواب أو طريق الخطأ [الكهف : ٢٩].

٤ ـ عناصر مشتركة وإمكانات التعاون

إن هناك عناصر عديدة مشتركة بين الأديان السماوية الثلاثة تجعل التعاون فيما بينها أمرًا ممكنًا . وعلى رأس هذه العناصر المشتركة الإيمان بالله الواحد خالق كل شىء، والذى دعا الناس إلى الإيمان به ، وإلى العمل الصالح ، كما دعاهم جميعًا إلى دار السلام .

والأديان السماوية الثلاثة لديها مبدئيّا نفس منظومة القيم الأخلاقية بسماتها الأساسية ، وهى منظومة ملزمة للمؤمنين كافة .

وهكذا يقوم الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة نتيجة لهذه العناصر المشتركة على أساس عريض . ومن المهم جدّا أن تؤخذ هذه الحقيقة فى الاعتبار . وبدلاً من الاسترسال على النهج القديم فى التشاحن حول المعتقدات الجزئية ، ينبغى على ممثلى الأديان أن يجتهدوا عندما يتحاورون فى إبراز العناصر التى تشترك فيها الأديان وفى أن يعوها كل الوعى ، وأن يجعلوا منها نقاط انطلاق نحو التعاون المطلوب .

وتشترك الأديان السماوية الثلاثة أيضًا فى سعيها الدءوب نحو إقامة السلام وتحقيق موازين العدل .

ولا يجوز للأديان أن تشغل نفسها بالتنافس من أجل السلطة الدنيوية ، بل من أجل خير الناس - كما يقول القرآن الكريم :

﴿ ... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ... ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وإن نظرة سريعة إلى عالمنا الذى نعيش فيه تبين لنا - أياً كان الاتجاه الذى ننظر إليه - أن منظومات القيم الأخلاقية فى العالم تتفكك تفككًا متزايدًا . ولا غرابة فى ذلك ، إذا ما تبينا أن أثر الأديان فى العصر الحديث قد تراجع تراجعًا ملحوظًا ، وهذا أمر ينعكس بصورة مباشرة على منظومة الأخلاق فى المجتمع ؛ لأن مصدر القيم الأخلاقية فى الأصل هو الدين .

وفى هذا المعنى يقول النبى محمد ﷺ :

«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[١] .

ومن أجل ذلك ينبغى أن يركز الحوار الدينى اهتمامه تركيزاً محوريّا على العناصر المشتركة بين منظومات القيم الأخلاقية فى الأديان السماوية الثلاثة . ويتصل بذلك اتصالاً وثيقًا العناية التامة بقيمة العدل ؛ لأن العدل يعد هدف كل عمل أخلاقى . والعدل قيمة لا تتجزأ ولا تعرف الاستثناءات .

والحوار الدينى الذى ينبنى على أساس من العناصر المشتركة بين الأديان يمكنه أن يجد إمكانات كثيرة للتعاون . فهناك مشكلات مشتركة كثيرة لا يمكن حلها إلا بالتعاون .

ومن بين هذه القضايا - على سبيل المثال لا الحصر - قضية دور الأديان فى حماية السلام العالمى ، والتعاون فيما بينها من أجل منع الحروب التى لا مبرر لها ، والحيلولة دون تخريب الموارد الاحتياطية للأرض نتيجة حروب عبثية لا معنى لها ، وإيقاف الحروب الدينية التى تضطهد البشر ظلمًا وعدوانًا ، وتضطهد شعوبًا بأكملها بسبب العقيدة . والتعاون الفعال فى محاربة الإرهاب والتطرف فى كل مكان فى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

العالم ، والانتصار للحق والعدل بالوقوف مع الحقوق المشروعة للشعوب المظلومة بصرف النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية ، والتعاون كذلك فى حماية مؤسسة الأسرة التى تمثل الخلية الأولى لكل حضارة إنسانية معروفة لنا ، والتى تتعرض اليوم للانهيار .

ومن البديهى أن التعاون بين الأديان لا يمكن أن يتحقق طالما بقيت الأديان تنظر صامتة إلى شعوب كاملة تتعرض بسبب عقيدتها للقهر والاضطهاد اللاإنسانى . ولهذا فإن الاستناد إلى معلومات صحيحة عن الأديان وعن العناصر المشتركة بينها من شأنه أن يساعد على اتخاذ المواقف الدينية الصحيحة التى تتسم بالتسامح والعدل .

إن هناك ـ على سبيل المثال ـ إرهابًا وتطرفًا فى كل ربوع العالم ، لا فى العالم الإسلامى وحده ، كما يزعم البعض . وسيتبين لكل إنسان يسعى لمعرفة الحقيقة الموضوعية أن الإسلام ، عندما يحيط به علمًا على نحو جيد ، يرفض رفضًا مطلقًا كل شكل من أشكال الإرهاب والتطرف .

ومن المعروف أن كل سورة من سور القرآن الكريم تبدأ بالبسملة التى تتضمن التوجه إلى الله الرحمن الرحيم. ورحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى نظر الإسلام تشمل البشر جميعًا دون استثناء. ومن هنا فإن عليهم فى المقابل أن يسعوا إلى تحقيق العدل والسلام .

والحوار بين الأديان على نحو يؤدى إلى التعاون البناء هو السبيل الوحيد للتصدى بنجاح للظواهر السلبية فى عصرنا مثل : الإلحاد والانحلال والإدمان والإيدز والتعصب والتطرف فى الفكر أو فى السلوك . كذلك من شأنه أن يحقق نجاحاً أكبر فى حل مشكلات التنمية الاجتماعية والسياسية فى البلاد النامية .

إن من الضرورى المسارعة إذن فى مد أواصر التعاون بين الأديان من أجل حل كل هذه المشكلات؛ لأنها تمس الإنسانية كلها بشكل أو بآخر . ولقد صور النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى حديث له بشكل رمزى البشرية محمولة على ظهر سفينة واحدة، ولهذا فإن على البشرية أن تنمى الشعور بالتضامن الجماعى فيما بينها إذا

أرادت لسفينتها ألا تغرق . فالأرض تحمل البشر جميعًا وهى تشبه السفينة الفضائية التى تسبح فى الفضاء الكونى .

ويبين حديث النبى - عليه الصلاة والسلام - بشكل رمزى الخطر الذى تتعرض له البشرية عندما تنقسم على نحو لا إنسانى إلى طائفتين ، طائفة تقيم فى أعلى السفينة ، وطائفة أخرى تقيم فى أسفلها . أما الذين فى أسفل السفينة فعليهم كلما احتاجوا إلى الماء أن يصعدوا إلى أعلى السفينة ، ولكنهم فى نهاية الأمر ضاقوا بهذا العمل ذرعًا وفرغ صبرهم ، فقرروا أن يخرقوا خرقًا فى قاع السفينة ؛ ليتزودوا منه مباشرة بالماء . وهذا بطبيعة الحال عمل خطير من شأنه أن يعرض السفينة للغرق ويعرض ركابها جميعًا للهلاك . وينصح النبى - ﷺ - بأن يقدم الذين يعيشون فى أعلى السفينة العون إلى الذين يعيشون فى أسفلها ؛ لكى يحولوا دون إعطاب السفينة وهلاك ركابها جميعًا .

وهذا الخرق فى السفينة الذى ورد فى هذا المثال يذكرنا بثقب الأوزون الذى يهدد الآن عالمنا الذى نعيش فيه ، كما أن مثال السفينة يذكرنا أيضًا بأننا بالفعل محمولون على الأرض كما لو كنا فى سفينة عبر الفضاء . والعمل التضامنى المشترك يمكن أن ينقذ العالم من الدمار الذى يهدد بقاءه واستمراره .

وإذا صح عزمنا على أن نقيم حوارًا سلميًّا بين الأديان ، فلا ينبغى أن ننفخ فى نار الكراهية وعقد الماضى من جديد . وأجدر بنا أن نفكر تفكيرًا إيجابيًّا يتجه إلى صياغة مستقبل ينعم فيه العالم بالسلام الضرورى له .

إننا نواجه اليوم أجيالاً جديدة وبالتالى عوالم جديدة ، أجيالاً لا تلام على مظالم العصور الماضية التى لم ترتكبها ، ولا تمتدح على الإنجازات الإيجابية التى أنجزها السابقون . إن ما تحتاج إليه الأجيال الجديدة منا هو ألا نضيع عليها فرصة بناء حياة خصبة ، بل نقدم إليها العون على ذلك .

***

الفصل السابع

عيسى عليه السلام
فى القرآن الكريم

- تمهيـد

أولاً: رسالة الأديان

ثانياً: السيدة مريم والميلاد المجيد

ثالثاً: عيسى عليه السلام :

أ - العبوديـة للـه

ب - رحمة من عند الله

رابعاً: عيسى والحواريون

- خاتمـة

عيسى عليه السلام فى القرآن الكريم (*)

تمهيد

قبل أن أبدأ الحديث عن " عيسى - عليه السلام - فى القرآن الكريم " أود أن أشير إلى أننى شخصيّا لا أحبذ إجراء حوارات دينية تتصل بالعقائد الأساسية لأصحاب الديانات السماوية ، وذلك لسببين : **أولاً** : لحساسية هذا الموضوع بشكل لا يمكن إنكاره ، الأمر الذى قد يؤدى إلى مزيد من التباعد بين أتباع الأديان المختلفة ، وليس إلى التقارب فيما بينها كما هو المأمول من حوار الأديان . **وثانيًا**: لأن الحوار حول العقائد لن يؤدى إلى نتيجة ، فكل أصحاب دين لن يتخلوا عن عقائدهم الأساسية ، ومن أجل ذلك ينبغى أن يركز الحوار بين الأديان على القواسم المشتركة بين الأديان بهدف إيجاد أسس مشتركة للتعاون بين أتباع الديانات السماوية .

ولكن معهد اللاهوت بجامعة زيوريخ بسويسرا - ممثلاً فى الأستاذة الدكتورة سوزانا هاينه Susanne Heine - قد طلب منى عام ١٩٩٣م محاضرة حول موضوع " عيسى - عليه السلام - فى القرآن الكريم " . واستجابة لهذه الرغبة أعددنا هذه المحاضرة التى أعقبها نقاش علمى جاد انطلاقًا من رغبة حقيقية فى التعرف على التصورات الإسلامية حول هذا الموضوع . وقد شجعنا ذلك على نشر المحاضرة فى كتابنا الذى صدر عام ٢٠٠٠م بالألمانية تحت عنوان " مدخل إلى الإسلام " . وفى الصفحات التالية يجد القارئ الكريم ترجمة لهذه المحاضرة .

وقبل أن أتحدث بالتفصيل عن عيسى - عليه السلام - في القرآن الكريم ، أود أن أشير إلى حقيقة هامة وأساسية ، وهى أن الإسلام لم يحاول قط أن يفرض على

(*) محاضرة ألقيت في جامعة زيوريخ ، سويسرا ، معهد اللاهوت ، ١٩٩٣ - Vortrag. Universitaet Zürich, Theolog. Seminar, 1993.

المسيحيين مفاهيمه عن عيسى ـ عليه السلام ـ ويرجع ذلك إلى تعاليم القرآن الكريم المبدئية التى تقرر أنه ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

ولا يعني هذا فقط أن أمور الدين لا إكراه فيها ، ولكنه يعنى أيضًا أن الدين واتخاذ الإنسان قرارًا باعتناقه بإرادة حرة أمران لا ينفصلان . إن الدين يعنى عودة الارتباط الحر بين الإنسان وربه الخالق لهذا الكون والحافظ لوجوده ، وهو الذى يتيح للإنسان هذه الحرية . وموقع الدين هو أعمق أعماق الإنسان، ألا وهو القلب .

وهناك اتفاق أساسى بين الأديان السماوية كلها فيما يتعلق بالإيمان بالله الواحد والإيمان بالدار الآخرة وبالأعمال الصالحة . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة : ٦٢]. أما فيما يتعلق بعيسى ـ عليه السلام ـ فمن المعروف أن هناك اختلافات كثيرة حوله بين الأديان .

وأفضل مدخل إلى صورة عيسى ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم هو شرح التعاليم القرآنية الخاصة بالنبوة . وطبقًا لها يُعد عيسى ـ عليه السلام ـ واحدًا من أهم الأنبياء الذين أنعم الله عليهم والذين تتابعوا منذ بداية الإنسانية لدعوة الناس إلى الإيمان بالله الواحد . وكانت رسالتهم جميعًا واحدة ، فقد كلفوا بأن يحضّوا الناس على الابتعاد عن طرق الضلال وأن يتجهوا إلى الله رب العالمين .

وكل إنسان بفطرته يعرف الله معرفة مغروسة فى أعماقه ، حتى وإن نسيها فى كثير من الأحيان . يقول القرآن فى ذلك : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

فإذا عبد الإنسان الآلهة الدنيوية الزائفة التي لا حول لها ولا قوة ، فإن مسلكه هذا يؤدى به دون شعور منه إلى التمزق الداخلي المستمر ، وبذلك يبدد الإنسان نفسه فى كل الاتجاهات جريًا وراء الصور الخادعة ، وينتهى به الأمر إلى الضياع فى طرق الضلال .

أما عودة الإنسان إلى اكتشاف الصلة الحميمة بينه وبين الله فإنها تمنحه السلام الداخلى والنعيم الباطنى اللذين يهفو إليهما من صميم قلبه . ولهذا فإن الدين الحق الوحيد هو عبادة الله وحده لا شريك له، وباتباع الدين الحق يتغلغل الإيمان بالله فى قلب الإنسان على نحو حقيقى .

ومن هنا دعا الأنبياء الناس إلى أن يخضعوا لإرادة الله وأن يعبدوه، والأنبياء أنفسهم يتميزون بهذا الخضوع لله . والرسالات المنزلة كلها تبين للإنسان الطريق إلى عبادة الله ، واختلاف الرسالات يعكس التدبير الربانى .

وارتباطًا بمفهوم قدرة الله الواحد المطلقة يطالب القرآن المسلمين (النساء : ١٥٠-١٥٢) بالإيمان بكل الأنبياء بوصفهم رسلاً من عند الله ـ جلت قدرته ـ وتوقيرهم، وعدم التفرقة بينهم . وبهذا الإيمان الذي يتسم بتبجيل الأنبياء والرسل جميعًا دون تمييز ينال المسلمون رحمة الله وغفرانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٢] .

ويطالب القرآن الكريم المؤمنين في وضوح تام بالإيمان بكل الأنبياء والرسل وبكل ما أوحى إليهم :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

وإذا كان القرآن الكريم من ناحية يسوى بين الأنبياء جميعًا بوصفهم رسلاً من عند الله ، فإنه من ناحية أخرى يتحدث عن درجات مختلفة للأنبياء وفقًا لترتيب إلهى .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

ولكن المؤمنين لم يؤمروا بإجراء ترتيب جوهرى ونهائى للرسالات السماوية ، فهذا أمر اختص به الله وحده . والمطلوب من المؤمنين - بدلاً من ذلك - أن يركزوا كل اهتمامهم على من أرسل الرسالات كلها إلى الناس بالآيات البينات تلو الآيات ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . وما ينبغى للبشر أن يتعجلوا الاستنتاج ، فالله وحده هو الذى سوف يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه .

ويبين لنا القرآن الكريم أن الله - سبحانه وتعالى - لم يترك عباده عبر التاريخ الإنسانى - منذ آدم حتى محمد عليهما السلام - دون أن يذكِّرهم باستمرار عن طريق رسالاته إليهم بما فيه صلاحهم وسعادتهم فى دنياهم وأخراهم . فتاريخ الإنسانية جمعاء ، وتاريخ كل فرد على حدة ، هما تاريخ الفعل الإلهى المتمثل فى الرسالات السماوية وفى الكون كله ورد الفعل الإنسانى على ذلك .

وهكذا نجد الرسالات السماوية المتتابعة تصحح ما اقترفه البشر من تأويلات خاطئة ضمّنوها ما وضعوه من مذاهب دينية . كذلك تأتى الرسالات السماوية ، فى هذا السياق ، وإزاء موقف البشرية ، بعلمٍ جديد . وكل رسالة سماوية - عندما تتضح معالمها وتمهد للمؤمن الصراط المُستَقيم - تحمل إليه أولاً وقبل كل شيء آخر بُشرى ، وتحمل إليه تحذيراً بأن ينأى بنفسه عن الأوهام وما يرتبط بها من فتنة الدنيا ، وتحضه على أن يحرر نفسه بالتوجه إلى الله - سبحانه وتعالى - فهو الحقيقة الوحيدة المطلقة .

والقرآن يبين لنا أنه لا يجوز أن يحول شيء بين الله والإنسان يعوق إسلام وجهه إلى الله . والأنبياء أنفسهم ليسوا إلا رسلاً يوجهون الناس إلى طريق الله ، ولكن الإنسان هو الذى يسلك الطريق بنفسه دون وساطة بينه وبين ربه .

ولقد علَّم عيسى - عليه السلام - الناس من خلال حياته وتعاليمه هذا الخضوع لإرادة الله . وقال - بناء على ما ورد فى القرآن الكريم - إنه يعبد الله ربه ورب الناس جميعًا الذين يحق عليهم أن يعبدوه ؛ لينالوا رحمته [آل عمران : ٥١ ، وغيرها] .

ويؤكد القرآن الكريم بعبارة قاطعة لا ريب فيها مكانة عيسى - عليه السلام -

الخاصة بين الأنبياء ، وأنه ينتمى إلى مجموعة الأنبياء الذين ميزهم الله واصطفاهم . ويقول القرآن عنه إنه " وجيه " فى الدنيا وفى الآخرة ، وإنه من المقربين (١) .

وجدير بالذكر أن القرآن الكريم قد أشار إلى أنبياء كثيرين ، ولكنه لم يذكر بالاسم منهم إلا خمسة وعشرين ، يحتل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد مكانة خاصة (٢) .

فما هى - فى نظر القرآن الكريم - الميزة الخاصة التي امتاز بها عيسى ، عليه السلام؟

إن هناك إشارات كثيرة إلى هذا التميز يجدر بنا أن نكشف عنها . وفى هذا الصدد نعود إلى الآية ٢٥٣ من سورة البقرة التى تبدأ بقوله تعالى :

﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ .

بعد هذه الكلمات مباشرة نقرأ قول الله ، تعالى :

﴿ **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾ .

فقد أيد الله - سبحانه وتعالى - عيسى - عليه السلام - بالبينات وهى المعجزات التي آتاه الله إياها ، وذلك من قبيل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، كما أيده الله بروح القدس وهو جبريل - عليه السلام - الذى كان يسير معه حيث سار (٣) .

وإذا كانت إرادة الله - سبحانه وتعالى - تقضى بأن يتجه الإنسان بإيمانه إلى الله وحده ، وأن يلتمس هدايته ، فإن هذا العمل المتمثل في قيام الإنسان بالاستسلام لإرادة الله هو عمل يخضع لإرادة الإنسان ولا يمكن أن تحققه البيناتُ بالإكراه ، كما أن الأنبياء المؤيدين بالروح القدس لا يمكنهم أن يحلوا محله ، ويكونوا بديلاً عنه .

---

(١) وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ** ﴾ [آل عمران : ٤٥]. والمقصود بهذا الوصف أن الله قد خلقه ذا مكانة وشرف وكرامة فى الدنيا بالنبوة والبراءة من العيوب ، وفى الآخرة بعلو درجته مع الصفوة المقربين إلى الله من النبيين أولى العزم .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، المجلد ٤ ، ص ١٧٢ ، بيروت ١٩٦٩ .

(٣) راجع تفسير الجلالين .

وتعاليم القرآن الكريم المتعلقة بوحدانية الله تعبر فى الوقت نفسه عن حرية الإنسان التى ينالها بالإيمان بالله وعبادته .

وبعد هذا التمهيد الذى طال بعض الشىء نود ـ فى الصفحات التالية ـ أن نفصل القول فى توضيح الصورة القرآنية للمسيح ، عليه السلام .

أولاً: رسالة الأديان

إن وراء العدد الكبير من الأديان ومن ثقافات الإنسانية التي نبعت منها ـ كما يقرر القرآن الكريم ـ رسالة تكرر ظهورها منذ بداية الخلق هى رسالة الدين الواحد الحق . وتقوم هذه الرسالة على علاقة الإيمان الشخصية التى تربط بين الله والإنسان .

والبوصلة ـ إذا صح هذا التعبير ـ التى يتبعها الإنسان المؤمن فى طريقه إلى الله تتمثل ـ كما يقرر القرآن الكريم ـ فى قلب الإنسان عندما يتجرد من كل الميول الأنانية ويخضع لله . وقد دعا كل الأنبياء برسالاتهم إلى هذا الطريق الإيمانى ، كما دعوا الناس إلى أن يطيعوهم ؛ لأنهم مكلفون من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بتبليغ الرسالة .

وكما أن آيات القرآن المنزلة تأمر المسلمين بأن يطيعوا النبي محمداً ﷺ [آل عمران : ١٣٢ ؛ المائدة : ٩٢ ؛ وغيرهما] ، فقد كان الأمر كذلك بالنسبة لعيسى ـ عليه السلام ـ فعندما جاء بالبينات من عند ربه أمر الناس بأن يطيعوه ، فالأنبياء يبلغون رسالات الله . يقول القرآن الكريم :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [الزخرف : ٦٣-٦٤] .

وهكذا نجد أن الأديان كلها ، عندما نتأملها على هذا النحو ، تمثل طرقًا أقرها الله تتجه نحو نفس الهدف . ولما كان الهدف منذ آدم ـ عليه السلام ـ وإلى محمد ﷺ هدفًا واحدًا [الشورى : ١٣] فإن الدين ، بناءً على هذا ، فى أساسه دين واحد ، يتمثل الهدف والطريق إليه فى الإسلام لله ، والإسلام كلمة تعنى الخضوع

والانقياد. وبناء على تعاليم القرآن الكريم فإن الدين منذ آدم بهذا المعنى العام هو الخضوع لله، هو الإسلام :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ... ﴾ [الشورى : ١٣].

و(**أقيموا الدين**) تعنى الخضوع لله والإسلام له. وتأمر الآية الكريمة الناس ألا يسيئوا فهم الدين، وألا يتوسلوا به إلى التفرق إلى أحزاب مختلفة يحارب بعضها بعضاً.

ويشير القرآن الكريم إلى أن من يقيم الدين ولا يجحد بآيات الله [آل عمران : ١٩] فإنه يهتدى إلى الصراط المستقيم، ويصف المؤمنين بقوله :

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧].

والتصميم على الإيمان بالله، الواحد، رب العالمين، وإله الناس، كل الناس، تصميم امتاز به النبيون على نحو مثالى. فقد امتازوا بصبر يغلب كل شيء، صبر الصمود، وصبر اتباع آيات الله فى الكون كله، فى الآفاق وفى البشر أنفسهم، وهى الآيات التى كثيراً ما تحدث عنها القرآن الكريم [فصلت : ٥٣، وغيرها]. وبهذا أصبح الأنبياء أنفسهم من آيات رحمة الله.

ثانياً: السيدة مريم والميلاد المجيد

وعيسى - عليه السلام - آية من آيات الله. وقد وصف القرآن الكريم عيسى - عليه السلام - وأمه بأنهما من آيات الله [مريم : ٢١؛ المؤمنون : ٥٠]. وعلى الرغم من أنهما بشر - وهذه حقيقة يؤكدها القرآن - فإنهما يعتبران بإسلامهما لله آية من آياته - سبحانه وتعالى - الذى جعلهما بالتالى آية للناس.

ويسجل القرآن الكريم أن أمَّ السيدة مريم، تميزت في أعمالها بالخضوع لله، فعندما كانت حاملاً نذرت لله ما فى بطنها، فلما وضعت مريم دعت الله أن يحفظها [آل عمران : ٣٥- ٣٦]. فاستجاب الله لها تقديراً لتقواها [البقرة : ٢٥٥؛ الزخرف : ٨٦، وغيرهما]. يقول القرآن الكريم :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

وأصبحت مريم صدِّيقةً، صدّقت بكلمات ربها وكُتُبه، وواحدةً من القانتين، ومَنَّ الله عليها بالروح الإلهية، يقول القرآن الكريم :

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] .

وتعد السيدة مريم ـ كما يقرر القرآن الكريم ـ مثلاً أعلى للنساء جميعًا . وأبلغتها الملائكة أن الله قد اصطفاها ، وأن عليها أن تقنت لربها، وأن تركع فى خشوع . هذا ما قالته لها الملائكة كما جاء فى سورة آل عمران :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢-٤٣] .

وبُشرت مريم بمعجزة مولد عيسى عليه السلام بوصفه مولد " كلمة من الله " . يقول القرآن الكريم :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٥-٤٦] .

فلما سألت مريم الـمَلَك كيف يمكن أن يكون لها ولدٌ ولـم يمسسها بشر، قال لها : ﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٧] .

وطبقًا لما قاله الـمَلَك فإن معجزة مولد عيسى بغير أب تحدث بالأمر الإلهى " كُن " . وهذا هو تفسير التراث الإسلامي لوصف عيسى بأنه "كلمة من الله " كما جاء فى بشارة الـمَلَك . وعن ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ يقول القرآن أيضًا :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

وقد تبعت معجزة ميلادّ عيسى ـ عليه السلام ـ معجزات عديدة في حياته، بدأت بعد مولده مباشرة . فعندما وجه الناس اللوم إلى مريم ؛ لأنها ولدت طفلاً دون أن

تكون متزوجة، وهي من أسرة شريفة، أشارت، كما يقول القرآن الكريم، إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فسألوها :

﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم : ٢٩] .

وهنا حدثت المعجزة وتكلم عيسى صبيًا فى المهد .

ومريم ، كما ذكر القرآن الكريم، "صدِّيقة" (المائدة : ٧٥) أى متمسكة كل التمسك بالصدق ، وقد أسلمت مريم لله ـ حسبَ التعبير الإسلامى ـ وخضعت لهدايته .

وعلى الرغم من كل ما أنعم الله به على مريم وعيسى ـ عليهما السلام ـ فإن القرآن الكريم يقرر أنهما بشر ، يحتاجان إلى هداية الله . ولقد أشرنا من قبل إلى أن القرآن قد وصفهما بأنهما من آيات الله ، وبأنهما بشر .

وأثبت القرآن هذه الحقيقة مبينًا أنهما كانا من البشر ، فقد ﴿ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة : ٧٥] ، وكانا آيتين من آيات قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسنبين فيما يلي أنهما كانا كذلك آيتين من آيات رحمة الله .

ويذكر القرآن الكريم أن الله أنعم على مريم وعيسى ـ عليهما السلام ـ بروح من عنده لحرصهما على الخضوع والخشوع لله فجعلهما آيتين من آيات الله .

أما وصف عيسى ـ عليه السلام ـ بالألوهية فيرفضه القرآن الكريم كل الرفض (المائدة : ١٧) . فهذه الصفة تتناقض مع الإيمان بالله الواحد الخالق البارئ رب الناس، رب العالمين (المائدة : ٧٣) .

ولكن الدرجة الرفيعة التي تتبوؤها مريم في القرآن الكريم تظل على رفعتها لا ينقص منها شيء على الإطلاق . فالقرآن يشتمل على سورة كبيرة من سوره تحمل اسمها . ومن دلائل تكريم الله لها أنها المرأةُ الوحيدة التي ورد اسمها صريحًا فى القرآن الكريم .

ويقول القرآن الكريم عن مريم وابنها عيسى ، عليهما السلام :

﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] .

وفى الآية التالية من نفس السورة :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] .

والأمة التي تتحدث عنها الآية الكريمة هي أمة البشر كافة . وعلى البشر أن يدركوا أنهم أعضاء فى أمة واحدة ، وأنهم ينتمون إلى جماعة واحدة . وعليهم جميعًا أن يعبدوا الله ، وأن يسلموا أنفسهم لهدايته . فنجاة الإنسان لا تتحقق إلا بأن يضع نفسه بإرادته بين يدى الله الذى يمسك فى قبضته كل شىء .

ثالثًا: عيسى عليه السلام

لقد كان عيسى - عليه السلام - كما يشير القرآن الكريم - عبدًا من عباد الله ، وفى الوقت نفسه كان " رحمة " من الله ، أو كما ذكر القرآن الكريم : ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [مريم : ٢١] . أما تلاميذ المسيح وهم الحواريون ، فقد وصفهم القرآن بأنهم أنصار الله [آل عمران : ٥٢] .

وحتى تتضح الصورة على نحو أفضل فإن علينا أن نفصل القول فيما يلى فى هذه الأمور الثلاثة من وجهة النظر الإسلامية .

(أ) العبودية للـه

ظهر عيسى - عليه السلام - إنسانًا حرًا فى عالم انقاد فيه الناس للآلهة المادية المزيفة انقياد المستعبدين . ويشير القرآن الكريم المرة تلو المرة ، دعمًا لرسالته ، إلى ضرورة دراسة التاريخ . فقد حدث في أزمان مختلفة أن أعلن أناس كثيرون أنفسهم آلهة أو أشباه آلهة ، وعبدهم العامة .

وقد ألغى عيسى هذا الوهم الذى سيطر على قطاع كبير من عامة الناس وعلى قلّة من المتعالين الذين نسبوا أنفسهم زورًا إلى الألوهية . ودعا عيسى الناس ، على العكس من ذلك ، إلى عبادة الخالق الواحد إله الناس وملك الناس ، مبينًا أن هذا هو الطريق لنيل رحمة الله ، وذلك هو صراط الله المستقيم .

والقرآن الكريم يبين لنا (المائدة : ١١٦ ، وغيرها) أن عيسى - عليه السلام - لم يقل للناس قط أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، بل وقف صراحة فى وجه مثل هذه

الادعاءات . وعلى العكس من ذلك بيَّن أنه رسول الله إلى بنى إسرائيل (آل عمران : ٤٩) وأن الله - سبحانه وتعالى - ربه ورب العالمين .

ويقص علينا القرآن الكريم ما قاله عيسى - عليه السلام - لبنى إسرائيل بقوله :

﴿ .. أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٤٩-٥١] .

والقرآن الكريم عندما يتحدث - كما فى الآية السابقة - عن تقوى الله ، حيث يقول ﴿فاتقوا الله ..﴾ ، فهو يتحدث عن الدواء الوحيد الناجع ضد الخوف من البشر المستبدين الذين يستعبدون الناس . ولهذا نقرأ فى آية أخرى :

﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

ورسالة عيسى - عليه السلام - هى رسالة هداية إلى صراط الله المستقيم ، وهى فى الوقت نفسه تصديق للرسالات السماوية السابقة ، وبشرى تتمثل فى الإنجيل الذى فيه هدى ونور . يقول القرآن الكريم :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٤٦] .

وتشتمل رسالة عيسى - عليه السلام - على موعظة للناس تحضهم على ألا تكون طاعتهم للتعاليم الإلهية - التى جاءت فى التوراة - على نحو شكلى أو آلى أو لمجرد الخوف من الناس ، بل عليهم أن يطيعوها - على العكس من ذلك - بوصفها وصايا صادرة من الله الذى يريد من البشر أن يستجيبوا له ويطيعوه ، فتكون نجاتهم فى الاستجابة والطاعة لله رب العالمين . ولا ينبغي للإنسان أن يعبد الدنيا التى لا قيمة لها فى حد ذاتها ، بل عليه أن يعبد الله وحده ، الخالق الرازق الحافظ للكون كله .

فإذا فعل الإنسان ذلك، فقد وعى نظام الأشياء الحقيقي، فالأشياء كما خلقها الله ليست مادية خالصة. وإذا ما خطا الإنسان هذه الخطوة، اقترب من هدفه المتمثل فى الوصول إلى الحقيقة .

ويقرر القرآن الكريم أن عيسى - عليه السلام، بكل ما أنعم الله به عليه - ليس إلهًا، وما هو إلا رسول من عند الله الواحد الذى لم يلد ولم يولد :

﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ [النساء : ١٧١] .

إن الموضوع الأساسى للدين - الداعى إلى عبادة الله الواحد الأحد، والمحذر من الخسران المبين نتيجة التكبر وما يستتبعه من الانفصال عن الله يتلقى - بإرادة الله - إضافة جديدة من خلال عيسى - عليه السلام - الذى أوتى بينات من عند الله وتأييد من الروح القدس . فقد دعا عيسى - عليه السلام - إلى عبادة الله والبر بمخلوقاته، وتلك الدعوة هى الصراط المستقيم. ومعجزات الرحمة التى أجراها الله على يديه، عندما أبرأ الأعمى والأكمه والأبرص ، بل وأحيا الموتى بإذن الله ، تؤكد هذا المعنى كما تؤكده حياته كلها. يقول القرآن الكريم عنه :

﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [النساء : ١٧٢] .

وقد عَلَّم عيسى - عليه السلام - الناس من خلال حياته وكلماته ما ينبغى أن يحرص عليه الإنسان ، ألا وهو إسلام الوجه لله رب العالمين عن إيمان به ينبع منه الاجتهاد فى العمل فى ضوء العدل والرحمة اللتين هما من صفات الله .

وعندما نتكلم عن عبادة الله ينبغى أن نعى جيدًا ما جاء فى القرآن الكريم عن رب العباد من أنه - جلّ شأنه - غنى عن العالمين كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ **وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وفى قوله أيضًا : ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ** ﴾ [الأنعام : ١٣٣] .

إن عبادة الله فى حديث القرآن الكريم تعنى أن الذى يعبد الله حقًا يحرر نفسه في الوقت ذاته من عبودية الدنيا. وهذه هى البشرى، وهذا هو الصراط المستقيم، وهذا هو الدين الحق.

ومن هنا يبين لنا القرآن الكريم أن من الخطأ أن يحاول الإنسان الوصول إلى الله عن طريق معوج يستعين فيه بولى أو معين. يقول القرآن الكريم:

﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وبعد ذلك مباشرة تأتى تكملة الآية بقوله ـ تعالى:

﴿... وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

ويدعو القرآن الكريم العباد إلى الالتجاء إلى الله مباشرة دون وساطة فى قوله ـ تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ويقرر القرآن الكريم أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد أدرك إدراكًا تامًا أنه رسول الله وعبده عندما جاء بالبينات:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣ـ ٦٤].

وعندما صدَّق عيسى ـ عليه السلام ـ على ما بين يديه من التوراة، أشار فى الوقت نفسه إلى رسول يأتى من بعده. وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وفى ذلك إشارة إلى إيمان المسلمين بمحمد ﷺ الذى بشر عيسى بمجيئه من بعده .

(ب) " رحمة " من عند الله

لقد سبق أن أشرنا إلى ما جاء فى القرآن الكريم من وصف عيسى ـ عليه السلام ـ بأنه " آية " . ويضيف القرآن إلى ذلك وصفين آخرين أولهما أنه " رحمة " من عند الله ﴿ **وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا** ﴾ [مريم : ٢١] ، وثانيهما أنه علم الساعة " :

﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [الزخرف : ٦١] .

والسؤال عما إذا كان المقصود بهذا الوصف الأخير التنبؤ بأن عيسى ـ عليه السلام ـ سيظهر فى آخر الزمان ـ كما يذهب إلى ذلك بعض المفسرين ـ سؤال لا يمكن الإجابة عنه بصورة قطعية اعتماداً على النصوص القرآنية .

فالذى يتضح من النص القرآنى بجلاء تام أن رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ بوصفه ﴿ **وَرَحْمَةً مِّنَّا** ﴾ ترتبط بناءً على هذا فى علاقة وثيقة لا تنفصم برسالة العدل الإلهى وترتبط بالتالي بيوم الحساب . ومن هذا المنطلق يتضح مضمون عبارة قرآنية أخرى عن عيسى ـ عليه السلام ـ وهى :

﴿ ... **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا** ﴾ [النساء : ١٥٩] .

والحق أنه ليس من الرحمة فى شيء الزعم بأن حكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على سعي الإنسان وعمله يستند إلى الرحمة الإلهية وحدها ، ولا يستند إلى العدل الإلهى . ومن هنا لا يصح ، عند تأمل رحمة الله ، أن ننسى أنها الوجه الآخر لعدل الله الذى شاءت إرادته ألا يغفل عن أى إنسان . ولهذا جاء بعد الحديث عن وصف عيسى ـ عليه السلام ـ بأنه ﴿ **لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ** ﴾ ـ والساعة هى يوم القيامة ـ قوله ـ تعالى :

﴿ ... **فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [الزخرف : ٦١] .

فعيسى ـ عليه السلام ـ الذى هو " رحمة منا " ، أي من الله ، علّم الناس أن تقوى الله وخشيته ليستا من الأمور الظاهرية ، بل هما تنبعان من إسلام المرء وجهه إلى

الله . والله ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ أقرب إلى الإنسان من ﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] . والله يحب المقسطين الذين يؤمنون به، ويعملون الصالحات .

وقد جاء فى الحديث الشريف فى شأن العلاقة الحميمة بين الله والإنسان فى العبادة وما يرتبط بها من العمل الصالح :

[تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك](١) .

والإيمان هو التوجه الذى لا يتزعزع إلى الحقيقة الكبرى التى لا تطاولها حقيقة أخرى ـ والتى تلوح لنا آياتها فى آفاق الكون وفى أنفسنا ـ وهى حقيقة وجود الله جل شأنه :

﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ [فصلت : ٥٣] .

والأعمال الصالحة هى الأعمال التي تنبت وتربو من هذا التوجه ، وهى التى تتحقق بهداية الله .

وربما أساء البعض فهم ما يشير إليه القرآن الكريم مراراً من أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يهدى من يشاء ، ويشرح صدر من يشاء للإيمان . ولكن سياق القرآن في كماله وجوهر رسالته يبين بوضوح وجلاء أن رحمة الله تتجه فى الواقع إلى الناس كافة ، وما عليهم إلا أن يفسحوا لها مكانًا فى حياتهم بأن يسعوا ما وسعهم الجهد إلى صالح العمل . ومن المعروف أن التربة إذا كانت متحجرة أشد التحجر فإنه لا ينفذ المطر من خلالها ولا يُنبت فيها شيئًا ، وكذلك الحال بالنسبة إلى القلب القاسى المتحجر فإنه ينغلق فى وجه كل خلجة من خلجات الرحمة .

وآيات الله الدالة على الحقيقة لا تحصى ولا تعد ـ كما بين القرآن الكريم ـ . ورحمة الله آية من هذه الآيات ، يتجلى بها على كل إنسان يبتغى وجه الله ويسعى فى أن يرى نفسه فى الآخرين الذين يشاركونه فى الإنسانية ، كما يجتهد فى السعى إلى سلوك طريق العدل والاستقامة .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإيمان – باب سؤال جبريل النبى عن الإيمان .

وعيسى ـ عليه السلام ، الذى جاء فى القرآن الكريم أنه رحمة من الله ـ دعا الناس إلى نبذ العنف والسعى إلى السلام . وقد طلب لنفسه السلام عندما تكلم فى المهد ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ ... وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣٢ـ٣٣] .

رابعًا: عيسى والحواريون

عندما أرسل الله عيسى ـ عليه السلام ـ برسالته إلى بنى إسرائيل ، وتبين ـ كما يقول القرآن الكريم ـ (آل عمران : ٥٢) ، أنهم لا يؤمنون الإيمان الحق ، سأل :

﴿ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٢ـ٥٣] .

ويبين لنا القرآن الكريم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد توفاه ورفعه إليه وطهره من الذين كفروا أى أخرجه من بينهم ، وأن الله قال له :

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

وهذا يعنى أن الله لم يمكّن أعداء عيسى ـ عليه السلام ـ من قتله أو صلبه :

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : ١٥٧ـ١٥٨] .

وهكذا حفظ الله عيسى ـ عليه السلام ـ ونجاه من الذين اضطهدوه ، ورفعه إليه . وهذه الحقيقة تعنى أملاً لكل المضطهدين ظلمًا ، وكل المقهورين ، فى أن الخير لابد أن ينتصر فى النهاية حتى إذا لم يظهر على هذا النحو فى بعض الأحيان ، وأن الإنسان يستطيع أن يسهم فى تحقيق هذا الهدف بما يبذله من سعى جاد ، وأن الخير ، حتى إذا بدا قليلاً ، ينتصر فى آخر الأمر على كمِّ الشر حتى إذا بدا كثيرًا غالبًا . فهناك على كل حال هذا الأمل الذى لا يمكن أن يُصلب .

لقد كان عيسى ـ عليه السلام ـ رحمة من الله ، ولقد ظهرت النعمة التى أنعم الله بها عليه ، لا فى حياته هو فحسب ، بل فى قلوب الحواريين الذين اتبعوه ، حيث جعل الله فيها : ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ (الحديد : ٢٧) . ولهذا يعتبر القرآن الحواريين أنصار الله (آل عمران : ٥٢-٥٣) .

ويوجه القرآن الكريم فى موضع آخر الحديث إلى النبى محمد ﷺ قائلاً له إن النصارى أقرب الناس للذين آمنوا ، وإن هذا القرب يقوم على شىء يذكره القرآن الكريم دائمًا كلما دار الحديث حول القلب ، ألا وهو المودة أى المحبة ، يقول القرآن الكريم :

﴿ . . .ولَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ﴾ [المائدة : ٨٢] .

ولكن القرآن الكريم ينبه النبى محمداً ﷺ فى الوقت نفسه إلى بعض التفسيرات البشرية التى اختلطت بتعاليم الإنجيل الإلهية الصحيحة ، ويبين له أن القرآن الكريم الذى أنزله الله إليه بالحق قد جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومهيمنًا عليهما :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

كلمة ختامية

وفى ختام هذا العرض للتصور الإسلامى لعيسى ـ عليه السلام ـ نجد أن الكلمة المحورية هنا هى : السلام . لقد طلب المسيح السلام ، والمسلمون يرجون السلام . والقرآن الكريم يبين لنا أن هناك طرقًا مختلفة إلى السلام الذى هو نعمة من عند الله :

﴿ . . . لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ . . . ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وعلى المسلم عندما يجادل أتباع الأديان الأخرى أن يجتهد في أن يكون قدوة

لغيره متمسكًا بالجدال بالتى هى أحسن وملتزمًا بآداب الإسلام وتعاليمه ، يقول القرآن الكريم :

﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ومن هنا لا يجوز للمسلمين أن يحاولوا فرض التصور الإسلامى على غيرهم من أهل الكتاب . فالله وحده هو الذى سوف يفصل بين الجميع فى النهاية : ﴿ **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

ومن سماحة الإسلام التى تفوق كل تصور أن القرآن الكريم قد وعد أصحاب الديانات الأخرى بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إذا استوفوا شروطا ثلاثة هى : الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح ، وذلك دون الدخول فى أى تفاصيل أخرى تتعلق بالمعتقدات وفى ذلك يقول القرآن فى صراحة ووضوح :

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [المائدة : ٦٩] . وقد تكرر هذا المعنى أيضًا فى آية أخرى فى سورة البقرة (الآية ٦٢) .

***

الفصل الثامن

الصراع والتعددية والتضامن
فى التصور الإسلامى

١ ـ الإنسان والنزاع

٢ ـ الإسلام والنزاع

٣ ـ تعددية المجتمعات البشرية

٤ ـ الإسلام والتضامن بين الناس

٥ ـ إرادة السلام

٦ ـ صلة الإسلام بالديانات السماوية الأخرى

٧ ـ دور الأديان فى العصر الحاضر

الصراع والتعددية والتضامن
فى التصور الإسلامى (*)

١ ـ الإنسان والنزاع

يشهد عصرنا الحاضر نزاعات وصراعات عديدة فى مناطق كثيرة من العالم . ولعل ما شهدته البشرية فى القرن العشرين من نزاعات مسلحة يعد أشد ما عرفه الإنسان عنفًا ودموية على مدى تاريخه الطويل . وتلك مفارقة غريبة . فالمفروض أن الإنسان كلما ارتقى فى سلم التقدم والحضارة كلما كان أكثر ميلاً إلى السلام والاستقرار ، وأكثر بعدًا عن العنف والإرهاب . ولكن ما حدث ويحدث فى عالم اليوم قد فاق جميع التوقعات .

والواقع أن النزاع فى حد ذاته ليس بالأمر الجديد على الإنسان ، إنه قديم قدم الإنسانية ذاتها . فبعد أن كان الإنسان ـ كما هو معروف فى الأديان السماوية ـ يعيش فى الجنة التى هى دار السلام أهبطه الله إلى الأرض التى بدأ فيها قصة النزاع التى لاتزال وستظل فصولها تتوالى بشكل أو بآخر إلى نهاية العالم .

ولقد جاء التنبؤ بذلك على لسان الملائكة فى القرآن الكريم عندما أخبرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأنه سيخلق الإنسان ويجعله خليفة فى الأرض ـ يقوم بعمارتها وسكناها ، فقالوا : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

فقد تصور الملائكة أن الأرض بدون الإنسان ستكون واحة سلام ، وأن الإنسان

(*) بحث قدم إلى مؤتمر " التوحيد والنزاع : سبل الوقاية وحل النزاعات بين الأديان التوحيدية الثلاثة فى حوض البحر الأبيض المتوسط " الذى أقامه معهد (Istituto Suor Orsola Benin-casa) فى مدينة ناپولى بإيطاليا من ١٣ـ١٥ ديسمبر ١٩٩٥م .

هو الذى سيعكر صفوها ، وعقدوا مقارنة بين ما سيصدر عن الإنسان من فساد وإفساد وما يصدر عنهم من تسبيح وتحميد لله . فهم فى طاعة دائمة ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم : ٦]. ولكن الله رد عليهم بقوله : ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة : ٣٠] .

فقد اختص الله الإنسان دون الملائكة بمعرفة أسماء الأشياء التى بها يعمر الكون ويقوم النظام فى العالم ، وميزه بالعقل الذى يبين له الخير من الشر والنافع من الضار، ومنحه الحرية ، وحمله المسئولية عما يصدر عنه من أفعال .

ومن أجل ذلك كله أصبح الإنسان مؤهلاً للخلافة فى الأرض وإعمار الكون . فإذا أحسن استخدام حريته وحكم عقله استقام سلوكه ، وإذا أساء استخدام هذه الحرية ولم يحكم عقله انحرف سلوكه، ويترتب على هذا الانحراف فى السلوك النزاع والشقاق بين البشر . فالسلوك المنحرف لن يكون بطبيعة الحال فى صالح الآخرين ، بل سيصطدم لا محالة بحرياتهم وحقوقهم فيحدث النزاع .

وقد حدث ذلك بالفعل عندما اختلف ابنا آدم : قابيل وهابيل مع بعضهما (المائدة : ٢٧) ، وانتهى الأمر بسفك الدماء الذى تنبأت به الملائكة .

٢ـ الإسلام والنزاع :

إن النزاع ـ كما رأينا ـ أمر واقع بدأ مع الإنسان، وسيستمر معه . ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة الإنسان ذاتها . إنه مخلوق من مادة وروح ، وكل منهما له طبيعة مختلفة، وبصرف النظر عما قاله الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى هذا الشأن، وانتهى به المطاف إلى ثنائية حادة فى الإنسان، فإننا نلمس فى داخلنا وحدة الإنسان .

وإذا التفت الإنسان إلى ما اشتمل عليه التكوين الإلهى للإنسان من إبداع ونظام وجمال فإن ذلك ينعكس بصورة إيجابية على رؤيته لكل ما حوله ومن حوله . فمن المعروف أن الإنسان إذا كان يشعر بالسعادة فى داخله والتوافق المتناغم بين جسمه وروحه فإنه يرى كل ما حوله جميلاً ، ويكون قادراً على رؤية إبداع الله فى كل شىء ، وبمعنى آخر يرى الله فى كل شىء، فيشعر بالسكينة والاطمئنان، ويبتعد

عن كل أسباب النزاع والشقاق . أما إذا كان يشعر بالشقاء فى داخله فإنه لا يرى فيما حوله إلا البؤس والشقاء، ولا يشعر بوجود الله .

والكون مملوء بالآيات الإلهية التى تذكر الإنسان بوجود الله ، ولكن لا يلتفت إليها إلا من يبحثون عن اليقين . يقول القرآن فى ذلك : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت : ٥٣]. ويقول أيضًا : ﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴾ [الذاريات : ٢٠- ٢٢].

وفى هذه الآية الأخيرة إشارة إلى أن الغذاء الحقيقى لحياة الإنسان يأتى إليه من أعلى ، أى من الله . وهنا تأتى أهمية دور الوحى الإلهى الذى يلفت نظر الإنسان إلى أنه إذا ابتعد عن الله وأدار ظهره للخالق فإنه سيبوء بالخسران والضياع . ومن أجل ذلك يصف الله وحيه إلى الناس فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة بأنه رحمة من عند الله (الإسراء : ٨٢ على سبيل المثال) فالناس فى حاجة إلى هداية الدين ليعصمهم من الوقوع فى دائرة النزاع والشقاق . وبالنظر إلى استمرار وجود النزاع فى الأرض فسيظل الإنسان فى حاجة ماسة إلى الدين الذى يعمل على وقاية الإنسان من أخطار النزاع وما تحمله من تدمير وتخريب .

وقد أعان الله الإنسان على ذلك فغرس فى نفسه معرفة الله ، تلك المعرفة التى يستطيع الإنسان أن يكتشفها فى نفسه إذا صفت وتجردت من كل الشوائب . يقول القرآن فى ذلك : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [الأعراف : ١٧٢]. وحتى هؤلاء الذين يشركون مع الله آلهة أخرى يقول القرآن عنهم : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [لقمان : ٢٥ ، الزمر : ٣٨] .

فالكون له رب واحد خلقه وتعهده بالرعاية ، وشمله برحمته وعدله ، والجميع منه ومرجعهم إليه .

٣ـ تعددية المجتمعات البشرية

ولكن الله لم يخلق الناس على وتيرة واحدة . فهم مختلفون فيما بينهم ، وكل منهم له شخصيته المستقلة عن الآخر ، ولو كان قد خلقهم على نمط واحد لكانوا قد خرجوا عن أن يكونوا بشراً ، ولكن الله أراد لهم أن يكونوا بشراً مختلفين فى أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وأجناسهم . يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩] .

ولكن الإسلام من جانب آخر يرى أن تعددية الأجناس أو المجتمعات البشرية لا يجوز أن تكون عائقًا أمام توحيد جهود الناس وتآلفهم وتعاونهم فيما بينهم . فالتعددية ينبغى أن تفتح الطريق أمام الوحدة . وهنا تكمن المهمة الإنسانية التى ينبغى على الإنسان أن يتحمل مسئوليتها . ويشير القرآن إلى ذلك بقوله :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فالإنسان لا يعيش وحده ، وإنما هو عضو فى جماعة بشرية . وتعرُّف الإنسان على الآخرين يسبقه تعرفه على ذاته ، وهذه المعرفة للذات تتأكد بصورة أكثر وضوحًا حين يتعرف الإنسان على نفسه مرة أخرى فى الآخرين . وتعرفه على نفسه من خلال الآخرين يجعله قادراً على التعاون معهم والفهم الحقيقى لهم والتسامح معهم . إنه يدرك فى النهاية أنه مخلوق لله مثلهم ، والذى يعرف نفسه على هذا النحو يرى الطرق المختلفة للجماعات الإنسانية بوصفها طرقًا توصل إلى نفس الهدف . فالطريق إلى السلام أمام الخلق مستقيم ، ولكنه فى الوقت نفسه متنوع .

والإسلام بالإضافة إلى ذلك يلفت نظرنا إلى وحدة الأصل الإنسانى على نحو يبين أن الناس جميعًا مخلوقون من نفس واحدة ـ كما يقول القرآن ـ : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [النساء : ١] . وإذا كان الأمر كذلك فإن إساءتى لفرد آخر تعد فى الوقت نفسه إساءة لى أيضًا باعتبار أننا جميعًا ننحدر من

أصل واحد . ومن هنا كان تعبير القرآن فى هذا الصدد تعبيراً واضحًا حين ينهانا عن السخرية من الآخرين أو العيب فى حقهم فيقول : ﴿ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : ١١]، يعنى : لا تعيبوا على الآخرين، فهم جزء منا ونحن جزء منهم .

ومن أجل ذلك جعل القرآن الاعتداء على فرد واحد من أفراد البشر كأنه اعتداء على البشرية كلها ، وفى المقابل جعل تقديم الخير لفرد واحد كأنه تقديم الخير للبشرية كلها . وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

٤ـ الإسلام والتضامن بين الناس

وهذا كله يبين لنا أن التضامن بين البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم يعد ضرورة حياتية للجنس البشرى ، وله أساسه الذى أراده الله . ولذلك فإنه إذا حدث خلاف بين الناس فإن الإسلام يلفت نظرهم إلى أن هذا الخلاف من ناحية يعد أمرًا طبيعيّا ، ولكنه من ناحية أخرى لا يجوز له أن يتجاوز الحدود العادية ويتطور إلى نزاع يؤدى إلى تدمير للذات وتدمير للآخرين فى الوقت ذاته .

ومن أجل ذلك لفت النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ نظرنا إلى ضرورة البحث عن أسلوب للتضامن بين الناس إذا أرادوا ألا يكونوا عرضة للهلاك [(١)] .

إن موقف الإسلام المبدئى فى هذا الصدد ينبنى على نظرته الشاملة للبشرية كلها بوصفها أسرة إنسانية كبيرة يختلف أفرادها فيما بينهم ويتنازعون ، ولكنهم إذا عادوا إلى رشدهم واستمعوا إلى صوت العقل ونداء الوحى الإلهى فإنهم سرعان ما يعودون إلى حظيرة السلام .

وهذا ـ على سبيل المثال ـ ما كان من أمر قبيلتى الأوس والخزرج فى بداية عصر

(١) راجع فيما سبق فى نهاية الفصل السادس حديث النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى صور فيه البشرية كلها كأنها تتجمع فى سفينة واحدة ، ونبه إلى ضرورة تضامن جميع ركابها من أجل إنقاذها من الأخطار التى تهددها بالغرق بمن فيها من الركاب .

الإسلام . فقد كانت هاتان القبيلتان فى المدينة ـ قبل انتقال النبى إليها ـ فى حروب وعداوات متصلة، ولكنهما بعد هجرة النبى إلى المدينة ودخول أفراد القبيلتين فى الإسلام أصبحوا إخوة متحابين متعاونين فيما بينهم . وقد عز ذلك على بعض أعداء الإسلام فحاولوا إثارة نار العداوة بينهما مرة أخرى مذكرين لهم بالقتلى من كلا الفريقين . وقد أفلحت هذه الجهود الشريرة فى إحياء نار العداوة القديمة . وكاد الأمر أن يتطور إلى نزاع مسلح بين القبيلتين .

وعندما سمع رسول الله ذلك خرج إليهم مذكراً لهم بالإسلام الذى وحد بينهم، وقضى على ما كان بينهم من أحقاد وعداوات ، وأن ما يفعلونه الآن هو عودة إلى الجاهلية ، أى عودة إلى إلغاء العقل وتحكيم الأهواء والانفعالات . فعادوا بعد ذلك إلى رشدهم وفطنوا إلى ألاعيب مثيرى الفتنة ودعاة الشقاق ، وأصبحوا مرة أخرى بنعمة الله إخواناً [(١)] . ويشير القرآن إلى ذلك فى قوله :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

٥ ـ إرادة السلام

وقد حرص الإسلام فى تعاليمه على أن يغرس إرادة السلام فى نفوس أتباعه ويربيهم على ذلك . ولا يعنى هذا إقامة السلام فيما بينهم فحسب بوصفهم أتباع دين واحد ، ولكنه يعنى أيضًا إقامة السلام مع كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وأديانهم وألوانهم .

فهناك تطابق تام بين الإسلام والسلام ، فكلمة الإسلام فى العربية مشتقة من نفس الأصل الذى اشتقت منه كلمة السلام، وتحية المسلمين فيما بينهم هى السلام . والمسلم يتجه فى نهاية كل صلاة من الصلوات الخمس اليومية بتحية الإسلام وهى السلام يمينًا وشمالاً ، الأمر الذى يرمز إلى نصف العالم يمينًا ونصفه الآخر شمالاً ، معبراً بذلك عن أمنية المسلمين بالسلام للعالم كله .

---

(١) تفسير ابن كثير ـ طبع دار الحديث بالقاهرة ١٩٩٠م . سورة آل عمران (١/ ٣٦٦ـ٣٦٨) .

وقد وضع الإسلام للمسلمين مبدأ عامًّا للتعايش السلمى بينهم وبين غيرهم من الشعوب يتلخص فى ضرورة التعايش مع الآخرين أيًّا كانوا ، ومعاملتهم بالعدل والإنصاف والتسامح ، طالما أن هؤلاء لم يصدر منهم أى عدوان على المسلمين ، ولم يتعاونوا مع أعداء المسلمين ضد المسلمين وفى ذلك يقول القرآن :

﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة : ٨] .

والعدل المشار إليه فى هذه الآية يترتب عليه التسامح الإيجابى ، وهذا التسامح هو ثمرة الرحمة التى تعد الوجه الآخر للعدل .

وهناك حدود لإرادة السلام ، ولكن ليس هناك حدود للعدل . فهو قيمة مطلقة ينبغى أن تكون . والقرآن لا يطلب من المسلمين فوق ما يطيقون، فالتسامح مع الأعداء المستمرين فى عدوانهم ليس أمرًا سهلاً . والقرآن يعترف بهذا الواقع الإنسانى ، ومن هنا فإنه ليس من العدل والتسامح أن يتخذ المسلمون من أعدائهم الذين يريدون تدميرهم أصدقاء؛ لأنهم بذلك يظلمون أنفسهم ويساعدون الآخرين على ظلمهم ؛ ولذلك نهى القرآن عن مصادقتهم، فقال عقب الآية السابقة :

﴿ **إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الممتحنة : ٩] .

فإذا توقف المعتدون عن ظلمهم للمسلمين فينبغى على المسلمين أن يكونوا على استعداد للتجاوب معهم إذا رغبوا فى السلام ـ كما يقول القرآن ـ : ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الأنفال : ٦١] .

وإذا كان السلام لا يقوم إلا على العدل فإن المفهوم الإسلامى للعدل لا يمكن حصره فى دائرة الشكل القانونى . فالعدالة فى الإسلام تدع للآخرين فى الوقت نفسه الطريق إلى السلام مفتوحًا ، وذلك عن طريق الرحمة التى تعد الوجه الآخر للعدل كما سبق أن أشرنا . وهذا يعنى أن الإنسان تحت ظروف معينة ينبغى عليه أن يعطى لعدوه فرصة للسلام شريطة أن يكون هذا العدو على استعداد للسلام أيضًا .

وتاريخ المسلمين يعرف أمثلة كثيرة رجحت فيها كفة الرحمة على مجرد العدالة القانونية . وهنا نشير إلى صلاح الدين الأيوبى الذى ضرب مثلاً حيّا على السلوك الإسلامى العادل والرحيم فى تعامله مع الصليبيين بعد أن استعاد القدس منهم عام ١١٨٧ . فقد عامل الصليبيين العائدين إلى بلادهم بتسامح منقطع النظير ، ولم يمنحهم حريتهم فحسب ، بل زود الفقراء منهم بما يكفيهم من المؤونة فى طريق عودتهم إلى بلادهم ، ولم يمس أماكنهم المقدسة بسوء على الرغم من أن بعض المسلمين طالبوه بمعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على القدس عام ١٠٩٩ .

ولكن صلاح الدين نهرهم عن المساس بالأماكن المقدسة للمسيحيين، وأمر باحترامها والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين (١) .

وإذا كان الإسلام قد أمر المسلمين بالتجاوب مع الرغبة فى السلام من جانب الأعداء فإنه من ناحية أخرى فى حالة ما إذا لم يبد العدو أى رغبة فى السلام وأصبحت الحرب أمرًا ضروريّا للدفاع عن الأرض والأنفس والأموال لا يجد الإسلام مفرّا من السماح للمسلمين بقتال الأعداء بشرط ألا يتجاوز المسلمون مهمة الدفاع إلى العدوان . فالطريق إلى السلام لا يسمح إلا بالفعل الأخلاقى وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

ومن هنا حرّم الإسلام التمثيل بالقتلى فى الحرب أو إساءة معاملة الأسرى ، أو قتل غير المحاربين من الشيوخ والنساء والأطفال . وهكذا حرّم الإسلام على المسلمين كل شكل من أشكال التصرفات المنافية للإنسانية .

ولكن الحرب الدفاعية ضد العدو ليست هى نهاية المطاف . فالهدف الأسمى للمسلمين هو محاربة العداوة والكراهية فى قلوب الأعداء ، ومن هنا لا يجوز للمسلمين أن يفقدوا الأمل فى ذلك ؛ لأن الأمل هو ملاذ السلام . يقول القرآن : ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً** ﴾ [الممتحنة : ٧] .

---

(١) انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٧٩٠-٧٩٥ ، القاهرة ١٩٧٦م .

ويوصى القرآن بعدم النزول إلى مستوى هؤلاء الذين يمارسون الظلم ويتبعون طريق الشر . وفى ظروف معينة يوصى بالرد على السيئة بالحسنة، فإن ذلك قد يعطى للظالم الفرصة لإعادة النظر فى موقفه ، وبذلك ينقلب العدو إلى صديق . وهذا ما يشير إليه القرآن فى قوله :

﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت : ٣٤] .

والإسلام فى الوقت الذى يجعل فيه الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة واجبًا دينيًا بالإضافة إلى كونه واجبًا إنسانيًا فإنه يدعو إلى الوقوف فى وجه الظلم . ومن هنا يتساءل القرآن مستنكرًا عدم مواجهة الظلم الواقع على الضعفاء من الناس قائلاً :

﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** ﴾ [النساء : ٧٥] .

كما يقول النبى أيضًا : «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا** ». قالوا يا رسول الله : ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا ؟ قال : «**تمنعه من الظلم فذلك نصره**»[(١)] .

٦ـ صلة الإسلام بالديانات السماوية الأخرى

والإسلام فى سعيه المتواصل من أجل خير الإنسان وسعادته يقف موقفًا متسامحًا إلى أبعد الحدود من الديانات السماوية السابقة ، ويبدى استعداده للتعاون معها من أجل سلام العالم . فالديانات رسالتها رسالة سلام، فقد أرسل الله منذ بدء الخليقة رسله وأنبياءه بالوحى إلى الناس لهدايتهم إلى طريق الحق والرشاد وإبعادهم عن طريق الغواية والضلال . والإسلام يعترف بكل أنبياء الله الذين حملوا رسالته إلى الناس على مر العصور . فالإسلام يؤمن بوحدة الدين . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الإكراه ـ باب (٧) .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣]. ونظرًا لأن الإسلام يعترف من حيث المبدأ بكل الديانات السماوية السابقة عليه، فإنه يستطيع دون عقبات أن يعيش فى سلام معها ، وأن يتعاون معها بلا حدود من أجل إرساء دعائم السلام فى العالم .

وإن تعددية الأديان ، والحضارات التى انبثقت منها على مر التاريخ ، ترجع فى نظر القرآن إلى دين واحد جاءت به رسالات عديدة ترمى إلى هداية الإنسان ومساعدته على تطوير شخصيته . والتربية الدينية الصحيحة يمكن أن توقظ فى الإنسان الكثير من الإمكانات والقدرات الإنسانية التى تجعل منه شخصية متماسكة لها أصل ثابت فى الأرض، ولكنها متصلة فى الوقت نفسه بالسماء .

والإسلام يهيئ أتباعه للسلام مع الآخرين ويربيهم على ذلك . ويمكننا فهم ذلك بطريقة أوضح إذا عرفنا أن السلام فى التصور الإسلامى يمكن تلخيصه فى صورة ثلاث دوائر متداخلة . أما الدائرة الأولى فإنها تتمثل فى السلام النفسى الذى يحظى به الإنسان فى داخله . وهذا السلام النفسى يكون ممكناً عن طريق الدائرة الثانية، أى عن طريق السلام مع الله كما يتمثل ذلك فى العقيدة الدينية . وكلتا الدائرتين تجعلان الدائرة الثالثة ممكنة وهى التى تتمثل فى السلام مع الآخرين ومع العالم الذى يحيط بنا . والدوائر الثلاثة جميعها يؤثر كلٌّ منها فى الآخر .

وهناك عناصر مشتركة بين الأديان السماوية يمكن أن تشكل أساسًا راسخًا لقيام تعاون مشترك بين أتباع هذه الأديان . ومن أهم جوانب الاتفاق بين الأديان السماوية الثلاثة : الإسلام والمسيحية واليهودية ، أنها جميعًا تؤمن بإله واحد أوحى إلى عباده عن طريق الرسل . وهذا الإيمان يتضمن سلوكًا مستقيمًا ودعوة إلى السلام والمحبة بين الناس . وفضلاً عن ذلك فإن كلا من هذه الأديان الثلاثة لديه منظومة من القيم الأخلاقية متشابهة فى أسسها وملزمة لكل المؤمنين .

والقرآن يبين لنا أن واجب الأديان ليس التنافس على مطامع دنيوية ، وإنما التسابق فى فعل الخير للناس . وهذا ما يعبر عنه القرآن بقوله :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وبدلاً من أن يتنازع أتباع الأديان فيما بينهم من جديد حول بعض المعتقدات الجزئية فإن عليهم أن يسعوا فى الحوار فيما بينهم إلى التأكيد على جوانب الاتفاق وأن يكونوا على وعى بذلك أيضًا . فهذه الجوانب المشتركة تمثل منطلقًا للتعاون البناء بين الأديان السماوية الثلاثة .

وإن نظرة سريعة على عصرنا الحاضر تبين لنا أننا حيثما توجهنا نجد أن هناك ازدياداً مستمرّاً فى تراجع القيم الأخلاقية . وهذا أمر ليس بمستغرب إذا علمنا أن دور الأديان ازداد أيضًا تراجعًا فى العديد من مناطق العالم .

فمصدر الأخلاق فى الأساس هو الدين . فهناك ترابط وثيق بينهما أكد عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال : «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[١] .

٧ـ دور الأديان فى العصر الحاضر

من كل ما سبق يتضح لنا الموقف الأساسى للإسلام ، وهو موقف داعم للسلام، مؤيد لحق الإنسان فى الحرية والكرامة والعدل . وفى عصرنا الحاضر الذى تقترب فيه الجماعات الدينية والحضارية المختلفة من بعضها بعضًا بصفة مستمرة فى " قرية كونية " ـ تصبح قضية السلام والعدل بين الناس من القضايا الملحة التى تتطلب العثور على حلول رائدة للمشكلات المعقدة التى تقف عائقًا أمام البشرية فى سعيها نحو السلام . والفهم الصحيح للأديان ولدورها الرائد فى النهوض بالبشرية يمكن أن يسهم بشكل فعال فى العثور على حلول مناسبة للمشكلات القائمة . وهناك العديد من المشكلات المشتركة التى لا يمكن حلها إلا بالتعاون بين الأطراف المعنية[٢] .

ومن الضرورى أن يكون لممثلى الأديان مواقف بعيدة عن التعصب ومبنية على معلومات صحيحة عن هذه الأديان ، وعلى وعى بالجوانب المشتركة بينها .

---

(١) رواه الإمام البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

(٢) انظر نماذج من هذه المشكلات فى الفصل السادس من هذا الكتاب .

فالإرهاب والتطرف مثلاً من الظواهر المنتشرة فى العالم كله وليس فى العالم الإسلامى فقط - كما يزعم البعض - .

والمعرفة الصحيحة بالإسلام تبين أنه دين يقف ضد كل شكل من أشكال التطرف والإرهاب ، وأن مفهوم الرحمة يعد من المفاهيم الرئيسية فى تعاليم الإسلام . ومن هنا تبدأ كل سورة من سور القرآن الكريم باسم الله الرحمن الرحيم . ورحمة الله واسعة تمتد لتشمل كل شىء ، وكل إنسان يسعى جاهدًا لتحقيق العدل والسلام .

وبالحوار بين الأديان - الذى يقود إلى تعاون بناء - يمكن مكافحة العديد من الظواهر السلبية لعالمنا ، كما يمكن أيضًا الإسهام فى إيجاد الحلول لمشكلات التطور الاجتماعى والسياسى للدول النامية . وكل ذلك يسهم إسهامًا فعالاً فى الوقاية من النزاعات المحتملة ، كما يمهد الطريق لحل النزاعات القائمة .

وكل هذه المشكلات وغيرها من مشكلات فرعية أخرى تحتاج منا بذل أقصى الجهد للبحث عن حلول مناسبة لها ؛ لأنها تهم العالم كله بشكل أو بآخر . فنحن جميعًا نجلس فى زورق واحد - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى مثال السفينة الوارد عن النبى صلى الله عليه وسلم -[1] .

وإذا أردنا أن نجرى حوارًا مثمرًا بين الأديان ، ونصل إلى تعاون مشترك فيما بينها فإنه لا يجوز لنا أن نستعيد دائمًا فى ذاكرتنا وحواراتنا عوامل الكراهية القديمة والعقد الموروثة من أزمان غابرة وأن نحييها من جديد ، بل ينبغى بدلاً من ذلك أن نتبنى فكرًا إيجابيًّا يسعى إلى بناء مستقبل مشرق ينعم فيه العالم بالسلام .

ونحن اليوم نواجه أجيالاً جديدة وعوالم جديدة لم يكن لها ذنب فى أى ظلم وقع فى العصور السابقة ، كما أنها لا تمتدح أيضًا على الأعمال الإيجابية للأجيال السابقة . وإن ما تحتاجه منا الأجيال الجديدة أن نتيح لها الفرص المناسبة فى بناء حياة مثمرة ، وأن نساعدها فى الوصول إلى ذلك .

***

---

(١) انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

الفصل التاسع

الإسلام وحقوق الإنسان

- تمهيـد

أولاً: الحق فى المساواة

ثانيًا: الحق فى الحريـة

- كلمـة ختاميـة

الإسلام وحقوق الإنسان(*)

تمهيد :

لقد أصبح موضوع حقوق الإنسان فى العصر الحاضر من الموضوعات المثيرة للاهتمام والتى يدور حولها جدل كثير ونقاش عريض وتتصدر اهتمام المجتمع الدولى . وقد تكونت فى مختلف أنحاء العالم منظمات كثيرة لحقوق الإنسان للدفاع عن الإنسان الذى هو أكرم خلق الله .

ويكثر اللغط بين الحين والآخر حول موقف الإسلام من هذه القضية . وعلى الرغم من أن الإسلام قد اعتبر الكفاح من أجل تحقيق العدل من ألزم واجبات الإنسان الذى يتقى الله ، فهناك من يزعمون أن حقوقَ الإنسان إنجازٌ من إنجازات العصر الحديث وأن الإسلام لا يعرف ما يسمى بحقوق الإنسان . ولست أريد في هذه المحاضرة أن أشتغل بتفنيد هذه المزاعم التي تقلب الحقائق ، وأن أكشف عن أسبابها ، وإنما أريد أن أعرض الموقف الأساسى للإسلام تجاه هذه القضية .

ويمكننا أن نرد حقوق الإنسان العامة إلى حقين أساسيين : حق الإنسان فى المساواة وحقه فى الحرية . والإنسان يمتلك هذين الحقين منذ مولده على أساس إنسانيته . وحقوق الإنسان الأخرى تتفرع من هذين الحقين .

ونحن عندما نمعن النظر فى مَصدري الإسلام وهما : القرآن الكريم وصحيح الحديث النبوى ، ونفهمهما حق الفهم ، نتبين أن الإسلام يعترف فى وضوح وجلاء بحق الإنسان في المساواة وحقه فى الحرية وبالحقوق الأخرى التي تتفرع

(*) محاضرة ألقيت فى المجلس الإسلامى فى بون بألمانيا عام ١٩٩٥ Islamisches Konzil, Bonn, 1995

منهما . ويشدد القرآن على أن كل هذه الحقوق تقوم على أساس مبدأ الإخاء بين البشر جميعًا، أى مبدأ الإنسانية .

أولاً: الحق في المساواة

وحق الإنسان فى المساواة تبرهن عليه تعاليم القرآن الكريم التي تنص على الوحدة المبدئية للجنس البشرى . فالبشر جميعًا كما يقرر القرآن الكريم قد خلقوا من ﴿ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ كما جاء فى الآية الأولى من سورة النساء .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً . . . . .** ﴾ .

فأصلُ البشر كافة واحدٌ، كلهم من ذرية آدم وحواء، وليس في الدين الإسلامى طبقات أو فئات أو أجناس أو أمم لها امتيازات طبيعية تمتاز بها على الآخرين . فالبشر كلهم يحصلون منذ مولدهم على نفس التكريم، فقد كرمهم الله جميعًا بوصفهم بنى آدم كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم :

﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وفى هذه الآية إشارة إلى أن الله كرّم البشر وفضلهم على كثير من خلقه . فما هى مقومات هذه الكرامة ؟

إن البشر جميعًا متساوون مبدئيًا، بغض النظر عن بعض الفروق الثانوية مثل الجنس ولون البشرة الخ . ومن هنا فإن الوضع الطبيعي هو أن تقوم بينهم علاقة الأخوّة، ولكن هذا الوضع المبدئى الطبيعى تتراكم فوقه الفروق الشعوبية والثقافية والدينية .

ولا شك فى أن الوعى الحقيقى بالمبدأ الإنسانى عن طريق التربية والتثقيف من شأنه أن يحمل الإنسان على أن يعامل إخوانه من البشر على أساس من التسامح الحقيقى واحترام حقوقهم الإنسانية . والإسلام لا يعترف إلا بفارق وحيد بين البشر

له أثره الحاسم فى مصيرهم . ويتمثل ذلك فى التقوى - كما ورد فى القرآن الكريم ، أو بتعبير آخر : العمل الصالح :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فبينما يطمح الناس ، كما نعلم ، إلى التميز من خلال السلطة أو الثروة المادية أو الوجاهة الاجتماعية ، يعلمنا القرآن أن الله يفاضل بين الناس بناء على مقياس آخر وهو التقوى التى هى الثروة الباطنة الكامنة فى الإنسان التقى ، وترتبط بهذه الثروة الباطنة المكانة الروحية التى ينالها الإنسان بأعماله الصالحة . ومن البديهي أن هذه التقوى تتمثل في علاقة خالصة بالله تدفع الإنسان إلى بذل أقصى الجهد فى النضال من أجل تحقيق العدل لخير الناس كافة .

والإنسان المؤمن يبتغى رضاء الله ، يبتغى وجه ربه الأعلى ، كما يقول القرآن ، ويسعى إلى ما فيه صالح البشر . والناس جميعًا متساوون : " سواسية كأسنان المشط " كما بين النبى محمد فى خطبة الوداع . ولهذا فمن الظلم البين ، أن يظن ظان أنهم مختلفون كل الاختلاف منذ مولدهم ، وأن يعاملهم على هذا الأساس . لقد أدى مبدأ المساواة الإسلامى بين البشر جميعًا إلى قاعدة المساواة أمام القانون الذى لا يفرق فيها الإسلام بين غنى وفقير ، ولا بين حاكم ومحكوم .

وقد جاء في الأثر أن النبي ، رفض شفاعة أسامة بن زيد لديه من أجل تبرئة امرأة من أسرة مرموقة من بنى مخزوم ، أدينت بالسرقة . ويشهد الحديث الذي رواه البخارى ومسلم أن النبى شدد على المساواة عند التقاضى وعلى ضرورة تطبيق معيار واحد على الجميع ، فلو كانت المذنبة هى فاطمة ابنته ، لحكم عليها بنفس الحكم الذى يحكم به على غيرها[1] .

كذلك أكد الخليفة الأول أبو بكر الصديق فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة وعلى نحو حاسم كل الحسم مساواة الناس جميعًا أمام القانون ، وفى ذلك يقول رضى الله عنه : «أيها الناس ، إن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم .

أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق»[1] . ويزخر التاريخ الإسلامى بالعديد من الأمثلة على أن المسلمين تمسكوا كل التمسك بالمساواة وبالمعاملة العادلة لجميع الناس .

أما أن هذا المبدأ ضروري ضرورة قاطعة غير مشروطة وأننا كثيراً ما نشكو من أنه لا يتبع ، فهذا ما يظهر بوضوح في كلمة شهيرة وجهها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص :

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا !»

وقد قال الخليفة عمر هذه العبارة فى أعقاب حادثة كان واليه على مصر عمرو بن العاص طرفًا فيها ، فقد أتاه يومًا رجل من مصر يشكو إليه ظلم الوالى عمرو بن العاص . فقد اعتدى ابن عمرو بن العاص بالضرب على المصرى بلا أدنى حق ، فلما رفع المصرى القضية أمام الوالى لم يعطه حقه ، بل سجنه حتى لا يشد رحاله إلى الخليفة عمر ويشكو إليه ما وقع عليه من ظلم . ولكن السجين استطاع أن يهرب من السجن ، وأن يسافر إلى الخليفة عمر بن الخطاب ويقص عليه القصة كلها .

واستدعى الخليفة إليه الوالى عمرو بن العاص وابنه ، وتأكد من صحة شكوى المصرى . فبمَ حكم الخليفة ؟ لقد أعطى المصرى درته وأمره بأن يضرب بها ابن عمرو بن العاص ، فضربه . ثم أمره بعد ذلك بأن يضرب الأب وهو الوالى ؛ لأن الابن قد ارتكب ما ارتكب نتيجة لنفوذ الأب . ولكن المصرى قال : لقد ضربت من ضربنى ، وهذا يكفينى [2] .

ولا ينطبق مبدأ المساواة بين البشر جميعاً أمام القانون على المسلمين فقط ، بل يشمل كذلك إخوانهم من غير المسلمين . والمبدأ القانونى الإسلامى فى هذا الصدد ينص على أن : **(لهم ما لنا وعليهم ما علينا)** .

ولقد دعا النبى محمد ﷺ مراراً ، كما تبين لنا أحاديثه ، إلى حسن معاملة الجيران ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، فقال ـ على سبيل المثال ـ :

---

(١) صفة الصفوة الجزء الأول ص ١٣٥ - ١٣٦ ، ط دار الكتب العلمية .

(٢) علي الطنطاوى وآخرون : أخبار عمر ، ص ١٨٣ و ، ما بعدها ، دمشق ١٩٥٩ .

«**ليس منا من بات شبعان وجاره جائع**»[1] .

وينطبق هذا الأمر على الجار المسلم والجار غير المسلم . وقد أُثِر عن ابن عباس – ابن عم الرسول الكريم – أنه قال لغلامه وقد ذبح شاة :

«**لا تنس جيراننا اليهود**» .

والشريعة الإسلامية ترى أن من حق غير المسلمين أن توفر لهم الدولة احتياجاتهم وترعاهم . ولهذا عندما رأى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب يهوديًّا هرمًا يتسول فى المدينة قرر له ولنظرائه معاشًا ثابتًا من بيت مال المسلمين .

ويشدد الإسلام كذلك على المساواة بين الرجل والمرأة نظرًا لأنه ليس هناك بينهما من منظور الإنسانية فرق على الإطلاق . كذلك من ناحية الكرامة الإنسانية لا يوجد شىء يفرق بينهما (الإسراء : ٧٠) فهما من " بنى آدم " الذين كرمهم الله دون تمييز . وطلب العلم فرض عليهما معًا . والزواج يُعد وسيلة لغرس " المودة والرحمة " (الروم : ٢١) بين الرجل والمرأة . والله يزن أعمال الرجال والنساء بميزان واحد كما يؤكد ذلك القرآن الكريم :

﴿ **أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

فالرجال والنساء ينالون الجزاء الذى يستحقونه من الله على أعمالهم ووفائهم بالتزاماتهم على نحو واحد دون تمييز :

﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ** ﴾ [النساء : ٣٢] .

وقد أعطى الإسلام المرأة الحق فى أن تتصرف مستقلة فى مالها الذى لا يحق للزوج أن يأخذ منه شيئًا إلا بإذنها . فلها ذمة مالية مستقلة تمامًا عن الرجل . كذلك حرم الإسلام إكراه المرأة على الزواج من رجل لا تحبه .

وليست هناك فروق بين الرجل والمرأة إلا تلك التي تتصل بالطبيعة ، وعلى

(١) رواه الطبرانى والحاكم والبيهقى .

الرجل التزامات مالية حيال زوجته وأولاده . أما فيما عدا ذلك فالرجل والمرأة ندان، متساويان كل التساوى .

ثانيًا: الحق فى الحرية

أما الحق الأساسى الثانى ، وهو الحق في الحرية ، فيمكن القول بأن الإسلام قد أعطى الإنسان الحق فى الحرية بكل صورها . فهو يعطيه مبدئيّا الحرية السياسية والفكرية والدينية والمدنية .

فكل إنسان بالغ عاقل له الحق في أن يشارك فى اختيار رئيس الدولة ، وفى اختيار النواب الذين يمثلونه . ومن حقه أن يرشح نفسه لأعلى منصب فى الدولة . وشكل الحكومة وأسلوب الشورى يمكن اختيارهما فى حرية، وليس هناك من شرط إلا أن يكونا قائمين على العدل واحترام الحقوق الأساسية للمواطنين .

ولقد أدرك الخليفة الأول أبو بكر الصديق والخليفة الثاني عمر بن الخطاب ضرورة تحديد سلطة الخليفة الذى هو رأس الدولة . ولهذا طلب كل منهما من المسلمين فى خطبتهما الأولى عند توليهما المنصب بأن يعينوهما فى شئون الحكم عند الضرورة ، وبأن يردوهما إلى الصواب إن أخطآ . وهذه الإشارات تدلنا على ما عرفه الإسلام من إدراك مبكر لضرورة الرقابة على إدارة الدولة .

وفى القرآن الكريم أمر الله النبى محمدًا ـ الذى جعله قدوة للمسلمين ـ بأن يستشير المسلمين . وجاء هذا الأمر واضحًا وصريحًا فى القرآن الكريم :

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم عن المؤمنين :

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] .

أما الحرية الفكرية فإن الإسلام قد ضمن للبشر جميعًا الحق في حرية الرأى . والعلماء الذين يدرسون الكون كله بما فيه الإنسان ينعمون بحرية البحث العلمى . وليس من قبيل المصادفة أن القرآن الكريم قد وصف شوق الإنسان إلى العلم ،

وقدرته على تحصيله فى جميع المجالات ، بأنهما ما يميزان الإنسان ويسموان به على جميع الكائنات الحية الأخرى .

والشرط الأساسى الذي يضعه الإسلام لذلك، كما يؤكد مراراً، هو التفكير النقدى ، ويشمل ذلك بطبيعة الحال التفكير القائم على النقد الذاتى . فهذا التفكير يمكِّن من الفهم المستقل ومن العمل المبدع . والإسلام لا يضع حدوداً لمجال البحث العلمى فى أى اتجاه، ويحض القرآن الإنسان على أن يجمع العلم من كل مكان ، من السماء والأرض وما بينهما ، بل ومن داخل النفس البشرية ، ويحضه على أن يستخدم العلم والقوانين المكتشفة لنفع البشر .

وفى الحديث الشريف :

«من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة» (١) .

أما فيما يتصل بحرية العقيدة فقد قرر الإسلام المبادئ التالية :

١ ـ لا يجوز أن يجبر أحد على التخلى عن دينه واعتناق الإسلام أو اعتناق أى دين آخر .

يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وفى موضع آخر يقول :

﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف : ٢٩] .

ولهذا السبب ضمن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب لأهل القدس (إيلياء) من المسيحيين أمنهم ، فقد أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم. . . . أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبانهم ولا من شىء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يُضار أحدٌ منهم . . " (٢) .

---

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذى.

(٢) نقلاً عن عبقرية عمر تأليف عباس العقاد، طبعة وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٦٨ ، ص١١٩ .

٢ ـ يقرر الإسلام حرية المناقشات الدينية . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وفى موضع آخر يقول :

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

٣ ـ الإيمان الخالص يقوم على الاقتناع واليقين ، لا على مجرد التقليد أو الإكراه .

ويمكن القول فى إيجاز بأن الإسلام يدعو فى أمور الدين إلى التفكير العميق والتأمل وعدم القبول إلا بالبراهين الحقيقية .

أما الحرية المدنية فإن الإسلام يشترط في شأنها أن يكون الإنسان رشيداً بمعنى أن يكون قد بلغ سن الرشد واكتمال العقل قبل أن يقدم على إبرام العقود وتدبير أمور حياته فى استقلال مثل البيع والشراء والهبة والزواج والوصية . . إلخ .

كلمة ختامية

لقد اتضح لنا مما سبق أن حقوق الإنسان في الإسلام كانت في عصر النبوة والخلافة الراشدة ثابتة الأركان ، ليس على المستوى النظرى فحسب ، ولكن أيضًا على مستوى التطبيق العملى .

وهناك فى هذا السياق حقيقة لها أهمية خاصة لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان . وتتمثل هذه الحقيقة فى تأكيد الإسلام على الدور الحاسم للمعنى الإنسانى فى تحقيق العدل . فالتراحم بين البشر ، وهو ما يمكن تسميته أيضًا بالأخوة ، يمثل فى نظر الإسلام شرط تحقيق العدل .

ولهذا فإن من الأهمية بمكان العمل على تربية الإنسان على " الإنسانية " بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وهذه التربية هى مهمة الدين ؛ لأن الدين يعلمنا ما هو الإنسان . وكل فرد من أفراد البشر يرتبط بالآخرين برباط الإنسانية . وهناك

حديث نبوى يقول : «**من لا يَرحم ، لا يُرحم**» أى من لا يرحم الناس لا يرحمه الله (رواه البخارى)[1] .

ويشدد الإسلام بصفة خاصة على العمل المسئول الذي يقوم به الفرد الذى يتمتع بالحقوق الإنسانية التي تصون كرامته ، وعليه أن يكون تجسيداً لهذه الكرامة وأن يحفظها فى تعامله مع إخوانه من البشر ، وذلك من أجل نفسه ومن أجلهم . ولهذا استهدفت مقاصد الشريعة الإسلامية منذ البداية حفظ الإنسان ، فهي تنص صراحة على حفظ حياته وحفظ دينه وحفظ عقله وحفظ ماله وأسرته (النفس والدين والعقل والنسل والمال) من خلال ما قررته من أحكام . ومن حق كل إنسان المطالبة بهذا الضمان[2] .

والمعروف أن كل حق يقابله واجب ، فمن أراد حفظ حقوقه ، فإن عليه أن يؤدي واجباته . وكل إنسان يتحمل ـ بما يأتيه من أفعال ـ المسئولية حيال إخوانه من البشر ، وهو ما يعنى صون حقوق الآخرين .

فلا يجوز فى نظر الإسلام أن يتمسك الإنسان بحقوقه هو وينظر فى سلبية إلى معاناة الآخرين الذين لا حيلة لهم فى حفظ حقوقهم . يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** ﴾ [النساء : ٧٥] .

ولابد لنا فى الختام أن نشير إلى أن التاريخ الإسلامى قد شهد بعض الفترات التى انتهكت فيها حقوق الإنسان ، وتنطبق هذه الإشارة على ما يجري من انتهاكات لحقوق الإنسان على يد غير المسلمين في أجزاء كثيرة من العالم فى عصرنا الحاضر .

ولكن هذه الوقائع لا تبرر بحال من الأحوال اتهام الإسلام بأنه ضد حقوق الإنسان ، انطلاقًا من بعض تصرفات حمقاء صدرت أو تصدر من بعض أبناء

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم .

(٢) راجع كتابنا : مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد .

المسلمين فى الماضى أو الحاضر . فمثل هذه التصرفات تصدر أيضًا من بعض أتباع الديانات الأخرى ، ولا تتحمل هذه الأديان مسئولية ذلك . والمصادر الإسلامية المعتمدة تنفى هذا الاتهام نفيًا قاطعًا . فالإسلام يضع كرامة الإنسان فى بؤرة الاهتمام، والإسلام يعلمنا أن الإنسان ينال كرامته من خلال نضاله فى سبيل تحقيق العدل والرحمة ، أى فى سبيل إنسانية الإنسان .

وعلينا أن نعترف بأن هناك مسلمين لا يتبعون اليوم أحكام الإسلام كل الاتباع، إما لأنهم لا يفهمونها، وإما لأنهم يغفلونها. وليس هناك شك فى أن المسلمين إذا أرادوا أن يُحترم دينُهم وأن يمكِّنوا لأنفسهم فى عالم اليوم، وأن يعلو شأنهم ، فإن عليهم ليس فقط أن يفهموا دينهم الفهم الصحيح، بل عليهم أن يتبعوا أيضًا تعاليمه فى تعاملهم مع الآخرين . وعندئذ يكونون قادرين على صون حقوق الإنسان المسلم التي تنتهك بطريقة همجية في أجزاء كثيرة من العالم، كما حدث مؤخرًا على نحو خاص فى البوسنة وكوسوفا وفى الشيشان وفى فلسطين . ومن المؤسف أن دول العالم المتحضر التى تساند عادة حقوق الإنسان تنظر فى الغالب إلى هذه الانتهاكات الهمجية متبلدة لا تفعل شيئًا. ولهذا يجب على المسلمين أن يتعلموا الدفاع عن حقوقهم على نحو أفضل .

يقول القرآن الكريم : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد : ١١] .

وفى الآية نفسها : ﴿**وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾ أى ليس لهم من دون الله من ناصر ينصرهم ، وعليهم أن يدركوا هذه الحقيقة .

إن "العدل" و "الرحمة" قيمتان عظيمتان ، فضلاً عن أنهما من أسماء الله الحسنى . وحق الإنسانية على الإنسان ـ بما هو خليفة الله فى الأرض ـ أن يناضل فى سبيلهما حتى يتحققا وينعم البشر بالسلام والاستقرار .

***

الفصل العاشر

الإسلام والأسس العامة للمجتمع

- تمهيـد
- دور الأمـة
- مبادئ المجتمع الإسلامى
- الإسلام ومشكلة النظام العالمى

الإسلام والأسس العامة للمجتمع (*)

تمهيد

لعله من نافلة القول أن نؤكد أن عالمنا المعاصر يشهد تحولات بالغة الأهمية ، وتطورات متلاحقة غير مسبوقة ، لها آثار بعيدة المدى فى المجتمعات البشرية فى كل مكان فى العالم . والمجتمعات الإسلامية - شأنها شأن المجتمعات الأخرى فى ربوع الأرض كلها - تتعرض لمؤثرات حديثة متباينة . فالمدنية الكونية المعاصرة - بتكنولوجيتها وأسلوب حياتها الحديث واتجاهاتها المغرقة فى المادية - تؤثر أيضًا فى المجتمع الإسلامى بشكل أو بآخر ، وذلك إلى جانب المترسخ فيه من تراث الثقافة الإسلامية وأساليبها الفكرية والحياتية . وفى مقدمة هذا التراث الثقافى المترسخ فى المجتمع الإسلامى لا يزال الفكر الدينى له تأثيره الواضح فى الحاضر ، كما كان الأمر كذلك فى السابق .

فهل من الصواب القول بأن العالم الإسلامي يشهد عملية نمو متزايد لهيمنة الثقافة الإسلامية ؟ أم القول بأن العالم الإسلامى يغلب عليه الآن أيضًا الفكر المادى المعهود في العصر الحديث ؟

إن مما لا شك فيه أن هذين السؤالين يعدان فى غاية الأهمية . ونحن وإن كنا سنعرض لهما فى هذا البحث إلا أننا لن نستطيع أن نفصِّل القول فيهما فى إطار هذه المحاضرة نظرًا لما يتسمان به من تشابك وتعقيد .

(*) محاضرة ألقيت في المؤتمر الدولي " أوروبا والثقافة الإسلامية " ، الذي انعقد في جامعة كولن (كولونيا) بألمانيا عام ١٩٩٣

Vortrag auf dem Internationalen Kongress “Europe and the Islamic Culture” Universitaet Koeln,1993

ويمكننا بادئ ذي بدء أن نقرر أن العالم الإسلامى منفتح من حيث المبدأ على كل التطورات والتحولات الإيجابية فى العالم المعاصر ، وبصفة خاصة على التحولات الديموقراطية وعلى حقوق الإنسان العامة ، وإن صح القول أيضًا بأن هناك طريقًا إسلاميّا خاصّا فيما يتعلق بالديموقراطية وحقوق الإنسان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالأسس الدينية على النحو الذى سنشير إليه فيما بعد .

وليس هناك من شك فى أن العلمانية بطابعها الغربى وكذلك أيضًا ما يسمى بالثيوقراطية أو الحكم من خلال السلطة الدينية ليسا حلين مناسبين لمشكلات البلاد الإسلامية . فالإسلام لم يكن فيه - كما كان الحال فى أوروبا - طبقة كهنوتية يمكن أن تنتزع السلطة لنفسها وأن تستغل الدين لمصالحها الخاصة ، الأمر الذى يهيئ الفرصة لقيام حركة علمانية تعمل على إسقاط هذه الطبقة الكهنوتية وتجريدها من السلطة . وبناء على ذلك لا توجد مبررات لقيام نخبة من رجال الدين المسلمين - الذين يدّعون لأنفسهم العصمة أو الحصانة ضد النقد أو المعارضة - بتأسيس حكم دينى على النحو المشار إليه يمكن أن يستند إلى تبرير إسلامى حقيقى .

وأفضل أسلوب لتأمل العلاقة بين الإسلام والمجتمع هو الانطلاق من الفهم الذاتي للعالم الإسلامى ، وليس من منطلق فهم المراقب الخارجى للعالم الإسلامى . وحقيقة الأمر أن المفاهيم الخاطئة والأحكام المسبقة عن الإسلام - والتى لا تزال قائمة ومرتبطة بخوف متوهم من الإسلام - قد مهدت السبيل لدعاية روجت لما يسمى بالأصولية الإسلامية وأدت إلى عواقب سياسية وخيمة . ومن هنا ينبغي أن تنطلق الجهود التى تبذل من أجل فهم المجتمع الإسلامي وتطلعاته من المفهوم الإيجابي للإسلام بوصفه دينًا يرتبط برباط الأخوة بالأديان الأخرى بصفة عامة وبالمسيحية بصفة خاصة .

وينطبق على خصوصية الثقافة الإسلامية التى نمت تاريخيًّا ، ما ينطبق على خصوصيات الثقافات الأخرى ، من أنها لا تُفهم الفهم الصائب إلا إذا انطلقنا في تأملنا إياها من صميم ذاتها وليس من خارجها . ونحن لا نحسن صنعًا إذا نقلنا إليها آليّا مفاهيم نشأت في بيئات ثقافية أخرى، وبخاصة البيئة الثقافية الغربية، من قبيل : الأصولية ، والعلمانية، والثيوقراطية .

ويمكن القول بصفة عامة إن تحقيق تقدم في التفاهم المتبادل بين الحضارتين الإسلامية والغربية لا يتم إلا من خلال احترام الهوية الثقافية المختلفة، أي من خلال التسامح، لا من خلال تشويه الصورة والهجمات الشرسة وتثبيط الهمة.

ولكن التسامح المتبادل يفترض بطبيعة الحال أن يكون لنا موقفنا الخاص المعترف به من الطرف الآخر. وعن طريق هذا التسامح يمكن تحقيق تفاهم متبادل أصيل. فالتسامح إذن هو القاعدة الضرورية للتعاون [1]. ومجتمعنا العالمى المتطور فى حاجة ماسة إلى هذا التعاون فى مجالات عديدة وبصفة خاصة فى مجالات البيئة وحقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب والإدمان.. إلخ.

ويعتبر الوضع في الشرق الأوسط وما يتسم به من صراعات مادية على الهيمنة ـ من جانب إسرائيل على وجه الخصوص ـ رمزاً لعالمنا الذى يتردى على نحو متزايد إلى الفوضى. والمفارقة الغريبة أن هذا الوضع المتردى فى الشرق الأوسط يحدث على الرغم من أنه مهد أديان التوحيد الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية، والتى هى فى جوهرها أديان تدعو إلى الإخاء والمحبة والسلام.

إن الشرق الأوسط من الناحية الجغرافية يمثل جسراً طبيعيّا بين الشرق والغرب وملتقى للثقافات المختلفة. ومهمة هذه الأديان ـ التى تتمثل فى جوهرها فى صنع السلام من خلال تشكيل نظام حياتي اجتماعي رشيد ـ لم تكن في زمن من الأزمان أشد ضرورة للحياة منها اليوم. والفهم الذاتى للإسلام يبين على كل حال أنه دين يدعو إلى السلام والتعايش الإيجابى بين البشر.

دور الأمة

يعد السلام هدفًا وطريقًا للأمة الإسلامية. والإسلام بناءً على موقفه الوسطى يبتعد تمامًا فى نظامه الاجتماعى عن الفردية المتطرفة وعن الجماعية المتطرفة، وهو أيضًا بعيد كل البعد عن موقف قاصر على الحياة الأخرى وحدها دون ما سواها، وعن موقف التحيز للروحانية وحدها، وعن الاتباع الحرفى المتزمت للتعاليم الدينية دون إدراك لجوهرها وهدفها.

---

(١) راجع الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب الذى تناولنا فيه " التسامح فى الإسلام ".

إن الإسلام يدعو المسلمين إلى الانفتاح على العالم والعمل من أجل خيره وإعماره . وعبادة الله طبقًا لتعاليم الإسلام تتمثل في المقام الأول فى كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة - دينيّا كان هذا العمل أم دنيويّا - طالما قصد به المرء وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم فى ظل الفضائل والقيم الإسلامية ، وعلى رأسها العدل والرحمة .

لقد قيل إن الأمة - فى التصور الإسلامى - تقوم على التوجه إلى الله ، وهذا صحيح ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : إلى أى حد استطاعت الأمة الإسلامية تحقيق هذا الهدف فى الماضى وكذلك فى الحاضر أيضًا ؟ وهنا نلاحظ أن الحرية وبالتالى المسئولية الذاتية يعدان محورالتعاليم الإسلامية ، وبدونهما لا يمكن فهم رسالة الإسلام الذى أسيء فهمه كما لم يُسأ فهم دين آخر ، وارتبط بإساءة فهمه الهجوم المتواصل عليه .

إن جوهر الإنسان واحد فى كل الثقافات والأديان . والله - سبحانه وتعالى - عندما خلق الكون جعل كل مخلوق فيه متسقًا مع السنن الكونية . ويؤكد القرآن هذه الحقيقة قائلاً : ﴿**مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ**﴾ [الملك : ٣] . ويعنى هذا أن الكون المخلوق ليس فيه تنافر أو خلل بأى شكل من الأشكال ، والإنسان الفرد مطالب بإثبات ذاته فى انسجام مع هذا الكون . وهذا أمر تشترك فيه كل الثقافات والأديان .

والتصور الإسلامى فى هذا الصدد يقوم على أن الله - سبحانه وتعالى - يتجه برحمته إلى الناس كافة ، سواء كانوا فى مشارق الأرض أو فى مغاربها . ويريد الله من الإنسان أن يتجه بدوره إليه - سبحانه - بالإيمان عن طريق الحرية الممنوحة له ، ويكون ذلك بتقديم الخير لمخلوقات الله بالعمل الصالح على النحو الوارد فى الوحى الإلهى . فإذا نفذ الإنسان إرادة الله هذه ، قاده الله إلى طريق السلام ، وهداه إلى سبيل الرشاد .

وعلى الإنسان أن يستخدم فى ذلك عقله الذى منحه الله إياه ، والذى يصفه

حجة الإسلام الغزالى بأنه " أنموذج من نور الله "[1] . وعندما يحقق الإنسان ذلك، فسيتضح له الطريق إلى معرفة ذاته وإلى السلام بالمعنى الشامل ، الأمر الذى يجعله متجهًا بصدق إلى فعل الخير فى تنافس شريف مع الآخرين ـ كما يقول القرآن الكريم ـ : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

والخيرات التى تتحدث عنها الآية الكريمة ليست قاصرة على الخيرات المادية وحدها ، وإنما هى فى المقام الأول تشمل كل ما ينمى إنسانية الإنسان . ويتحقق هذا السبق فى العمل الجاد من أجل حياة كريمة فى سلام عادل وسكينة تملأ القلوب .

والسلام الذى تهدف إليه الأمة الإسلامية يمكن تصويره على هيئة ثلاث دوائر يؤثر كل منها فى الآخر ، وذلك على النحو التالى[2] :

١ ـ السلام مع الله، سبحانه وتعالى .

٢ ـ السلام مع الذات .

٣ ـ السلام مع العالم الذى يعيش فيه الإنسان بمن فيه وما فيه من مخلوقات الله .

وهذه الأنماط الثلاثة تحقق الاتساق بين عالمنا هذا وما بعده، بين دنيانا وآخرتنا . وهناك أثر مشهور يوصى الإنسان بأن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غدًا . ودعوة الإسلام إلى المسئولية الذاتية للإنسان أمام الله تحرره ، عند الالتزام بها ، تحريرًا مبدئيًا من استبداد أى سلطات دينية بشرية كما تحرره من أى أيديولوچية سائدة .

لقد قامت الأمة الإسلامية منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان فى وقت كانت تسود فيه أوضاع همجية لدى القبائل العربية المتناحرة ، فلم يكن للنساء على سبيل المثال حقوق إلا فيما عز وندر . فغيَّر الإسلام هذا الوضع تغييرًا جذريًا، وقرر المساواة المبدئية بين البشر جميعًا أمام الله فى كل الحقوق والواجبات .

---

(١) مشكاة الأنوار للغزالى ص٤٤ ـ القاهرة ١٩٦٤م . ويصف الجاحظ العقل بأنه " وكيل الله عند الإنسان " .

(٢) سبقت الإشارة إلى ذلك أيضًا فى الفصل السادس من هذا الكتاب .

وما لبث المسلمون ، بمثاليتهم هذه وتحمسهم لمثل الإسلام العليا ، أن أسسوا واحدة من أعظم الحضارات فى تاريخ البشرية ، وظلت مزدهرة على مدى قرون طوال في جزء كبير من العالم . ولا يزال المسلمون فى عالم اليوم أيضًا على يقين من أن التصور الإسلامى لمجتمع عادل يتعايش مع الآخرين فى سلام أمر يمكن تحقيقه إذا أجمع الناس أمرهم على ذلك وإذا ما صحت العزائم وصدقت النوايا وتوفرت الإرادة المخلصة .

مبادئ المجتمع الإسلامى

يهمنا هنا أن نوضح باختصار المبادئ الأساسية للمجتمع الإسلامى ، ونستعين فى هذا الصدد بحديث نبوى شريف يبين فيه النبى - عليه الصلاة والسلام - كيف يتم اتخاذ قرار سليم طبقًا للتصور الإسلامى . فقد سأل النبي أحد صحابته ، وهو معاذ بن جبل ، عندما بعثه إلى اليمن ليتولى القضاء ، عن المنهج الذى سينتهجه هناك قائلاً : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ، فرد قائلاً : " أقضى بكتاب الله " ، قال : فإن لم تجد ؟ قال معاذ : " فبسنة رسول الله " ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : " أجتهد رأيي ولا آلو " ، أى لا أقصر . وقد وافقه النبي على منهجه هذا وامتدحه على حسن إدراكه وفهمه [١] .

والاجتهاد يعنى بذل أقصى الجهد عن طريق العقل الإنسانى للتوصل إلى القرار الصحيح ، وهذا أمر يشمل أمور الدنيا وأمور الدين على السواء . ومن هنا وصف المفكر الإسلامى الراحل محمد إقبال الاجتهاد بأنه مبدأ الحركة فى الإسلام .

ولا شك فى أن التربية الدينية المتعمقة الواعية تجعل الإنسان قادرًا على استخدام عقله استخدامًا مستقلاً وقادرًا بالتالى على العمل المسئول مسئولية ذاتية أمام الله . ويشمل معنى العقل كل مقومات الفهم الإنسانى ، أى أنه لا يقف عند حد قدرات التحليل والحساب ، بل يعنى أيضًا وعلى نحو خاص القدرات الحدسية . وهذه القدرات الحدسية التى تسمو من خلال الارتباط بالله وبإرادته يمكن أن تسمى بصفة

---

(١) راجع : جامع بيان العلم وفضله لأبى عمر يوسف بن عبد البر ج٢ ص ٦٩ (المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م) .

عامة " عقل القلب " الذى يتميز بالشفافية التامة، حيث يدرك ما لا يدركه الكثيرون ممن قست قلوبهم فأصبحت ـ كما يخبرنا القرآن الكريم ـ كالحجارة أو أشد قسوة .

وإذا تأملنا من هذا المنظور الإسلامي للتربية أهداف مجتمع الأمة ، استطعنا أن نفهم الطريقة التى تسعى الأمة من خلالها إلى تحقيق الحرية وضمان الحقوق لكل أفراد مجتمعها ، وفي الوقت نفسه تحقيق مساواة مبدئية في الفرص من أجل تنمية عقلية رشيدة للجميع .

وتُعد الحضارة ـ فى نظر الأمة ـ من الأمور الفطرية لدى الإنسان . ومن هنا فإنه يستطيع تنميتها بتأصيلها فى عقيدته الدينية . فالقرآن الكريم حين يقول : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود : ٦١] فإنه يطلب من الإنسان أن يبذل قصارى جهده فى عمارة الأرض ماديًا ومعنويًا ، وهذا يعنى صنع الحضارة فيها ، ويعنى أيضًا تأكيدًا لحرية الإنسان ، إذ بدون هذه الحرية لن يكون فى وسع الإنسان بناء أى حضارة .

ولن يستطيع المجتمع الإسلامى بدون الحرية أن يتقدم خطوة واحدة حقيقية إلى الأمام لا فى مجال البناء الحضارى ولا فى مجال البناء الإنسانى . وتشمل الحرية بطبيعة الحال مبدأ حرية العقيدة ، وهو المبدأ الذى يؤكد عليه القرآن الكريم بصفة خاصة بقوله : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . والإكراه يعد شكلاً من أشكال العنف والعدوان على حريات الآخرين .

والإسلام يحرّم كل صورة من صور العنف؛ لأن العنف نقيض هدف الإسلام المتمثل فى صنع السلام عن طريق العدل الذي لا يعرف التحيز . ولهذا يحرم الإسلام كل أشكال العدوان ولا يجيز إلا الدفاع المشروع؛ لأن السلام ـ كما أشرنا ـ هو هدف الإسلام وطريقه فى الوقت نفسه، ويتفق مع هذا المفهوم أنه لا يجوز بأى حال من الأحوال نشر الإسلام عن طريق الإكراه والعنف، فالدعوة إلى الإسلام تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن وبالقدوة الطيبة .

والقرآن الكريم قد سبق إلى الإشارة إلى مشكلة هامة تفرض نفسها اليوم بإلحاح، ألا وهى مشكلة الفرق بين المثل الأعلى الذي يجب على الأمة الإسلامية أن تتمسك

به وتحقـقـه، وبين واقع الأمـة الإسلامـيـة . أمـا المثل الأعلى للأمة الإسـلامـيـة في صورتها المأمولة فيقول القرآن الكريم عنه :

﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران : ١١٠].

وفى السورة ذاتها قبل ذلك (الآية ١٠٤) ، يدعو القرآن إلى تكوين هذه الأمة التي تحقق المثل الأعلى المذكور :

﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ .

وتحـقـيق هذا المثل الأعلى أمـر مـتـروك لحرية الإنسـان . فـإذا كـان على وعى بمسئوليته فإنه سيبذل من غير شك قصارى جهده فى سبيل ذلك، أما إذا تخلى عن مسئوليتـه ، عن قصـد أو عن غـفله ، فلن يكون جـديراً بالانتـساب إلى هذا المثل الأعلى .

ومن المبادئ الأساسية للمجتمع الإسلامى مبدأ " الشورى " . ونشير فى هذا الصدد إلى أن أبا بكر عندما تم انتخابه خليفة للمسلمين بعد وفاة النبي طالب الأمة بتقديم المشورة إليه في عمله، ونبه الناس إلى أنهم ليسوا ملزمين بالاعتراف بسلطته إلا إذا أطاع الله واتبع توجيهات نبيه [1] .

أما تدبير الشئون العامة للمجتمع الإسلامى فإنه يجب الالتزام فيها بالمبدأ المتمثل فى الاعتماد على المصادر الأساسية للشريعة الإسلامية ، مع الاستعانة بالاجتهاد الذى هو إعمال الفكر فى كل ما لم يرد فيه نص قاطع . والمصادر الرئيسية المعتمدة هى :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ السنة النبوية وهى ما صحت روايته من كلام النبي وأفعاله وتقريراته .

---

(١) انظر : صفوة الصفوة لابن الجوزى ، تحقيق إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٩م (١/ ١٣٦) .

٣ ـ الإجماع .

٤ ـ القياس وهو استنباط حكم قياسًا على حكم مشابه .

أما فيما يتعلق بشكل حياة كل فرد من أفراد الأمة وجهوده ، فقد جاء ذلك فى حديث نبوى يشبه فيه كل مؤمن بالراعى الذى يجب عليه أن يتصرف فى مجال الواجب المنوط به من منطلق مسئوليته الذاتية الكاملة «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»(١) .

ومن الأمور الهامة بالنسبة إلى علاقة الأمة الإسلامية بالمجتمعات الأخرى نذكر إلى جانب مبدأ التسامح مبدأ مطالبة القرآن بالتنافس فى الخيرات ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ . والقرآن يعتبر تعددية المجتمعات المختلفة عنصر ثراء ونماء :

﴿ ... **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وثراء حياة الإنسان فى التصور الإسلامى ينطلق من داخله عن طريق بذل الجهد من أجل صنع السلام فى داخله أولاً ، ثم فى السعى الدءوب للسلام مع الآخرين بعيدًا عن التنافس المادى السلبى المؤدى إلى العنف والعدوان .

الإسلام ومشكلة النظام العالمى

إن المشكلة التى تواجه عصرنا الحالى هى مشكلة بناء نظام جديد فى عالم أصابته الفوضى وساد فيه الاضطراب . وقد نبه إلى ذلك النبي ـ منذ أربعة عشر قرنًا فى حديث له ضرب فيه مثلاً يوضح النتائج الوخيمة التى تحدث عندما تقرر فئة من الناس أن تقوم وحدها بفرض تصوراتها على الآخرين دون مراعاة لما يترتب على ذلك من عواقب .

ويشبّه النبي الإنسانية بركاب سفينة ، عليهم أن يحرصوا على تحاشي كل ما من شأنه جنوح هذه السفينة أو حدوث خلل فيها . ويصور فئة من الركاب في أسفل السفينة قرروا أن يخرقوا خرقًا في قاع السفينة يتزودون منه بالماء . وهذا الأمر الذى

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

خطط له هؤلاء يعد خطرًا يهدد السفينة كلها ويعرضهم هم أنفسهم للهلاك مع بقية الركاب كافة . ولهذا يقول النبي إن على الذين في أعلى السفينة أن يمنعوا مَنْ فى أسفلها من تنفيذ مخططهم وإلا غرق الجميع ، " فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا " (١) .

فإذا أردنا أن ننقل هذا المعنى إلى ما يحدث فى عصرنا نستطيع أن نتبين بوضوح أن هناك أخطارًا كثيرة تهدد عالمنا ، وأن من بين هذه الأخطار ظاهرة الاحتباس الحرارى وثقب الأوزون الذى اكتشفه العلماء فى العصر الحديث . فإذا لم تتخذ البشرية الإجراءات الكفيلة لحماية الكوكب الأرضى ، فسيكون فى ذلك هلاك الجميع . ومن المعروف أن كوكب الأرض يشبه سفينة تحملنا ـ معشر البشر ـ فى الفضاء الكونى .

والشريعة الإسلامية ترعى الفرد وترعى الجماعة أيضًا ، وذلك بصيانة الحقوق الإنسانية الأساسية : حق الحياة ، وحق الممارسة الدينية ، وحق استخدام العقل ، والحق فى حماية الأسرة والمال . ولا شك أن القتل الجماعى الذى يستهدف الشعوب لأسباب دينية كما حدث ـ على سبيل المثال ـ فى العقد الأخير من القرن العشرين أمام أعين الجميع فى البوسنة وكوسوڤا وغيرهما ، لا يمكن بحال من الأحوال تبريره ، بل يعد وصمة عار فى جبين الإنسانية كلها .

ولا يمكن طبقًا للتصور الإسلامى أن يكون هناك انفصام فى المجتمع بين الدولة والدين . فكلاهما ـ الدين والدولة ـ من شأنهما الحرص على مصلحة الإنسان وحماية حقوقه الإنسانية العامة .

ومن مصلحة الإنسان الحفاظ على النظام الطبيعى ، أى النظام الذي وضعه الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وإلا فسد كل شىء وانهار . ولقد اجتهد علماء المسلمين فى كل العصور فى شرح تعاليم الإسلام فى عالم يموج بالمتغيرات من أجل الحفاظ على رؤية الإسلام لعالم يسعى إلى السلام والعدل ، ونقل هذه الرؤية من جيل إلى جيل .

---

(١) راجع : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٥ ص ١٣٢ .

والإنسان طبقًا للتصور الإسلامى هو خليفة الله فى الأرض ، ولا يجوز له أن يتملص من هذه المهمة التى تتمثل فى مسئوليته عن هذا العالم وعن إقرار مبادئ العدل والسلام فى المجتمع . ومن الطبيعى أن ترتبط هذه المسئولية بما يتمتع به الإنسان من حرية . ومن هنا حريته أيضًا فى مواءمة نظام المجتمع مع ظروف العصر الذى يعيش فيه على نحو رشيد .

إن الأرض التى نعيش عليها تتحرك مسخرة في مسارها المحدد لها من قبل ، وتدور حول نفسها وحول الشمس . أما البشر فهم أحرار في أن يسيروا فى الطريق الصحيح أو فى الطريق الخاطئ، وعلى من اختار السلام له هدفًا أن يسلك طريق السلام ، طريق العدل الذى لا ينحاز ولا يميل ، ويبقيه مفتوحًا لكل الناس أفرادًا وجماعات من أجل خير الجميع .



الفصل الحادى عشر

حرية العقيـدة
وحقوق الإنسان فى الإسلام

- تمهيـد
- أولاً : الحرية الدينية
- ثانيًا : الدفاع عن حقوق الإنسان مهمة دينية
- ثالثًا : التعددية الثقافية فى الإسلام
- رابعًا : الحرية الدينية فى الإسلام التزام دينى
- خامسًا : الحرية الدينية فى تاريخ الإسلام :

١ ـ الحوار الدينى

٢ ـ التعددية الدينية وحقوق الأقليات

٣ ـ الوضع الراهن للحرية الدينية فى البلاد الإسلامية

٤ ـ قضية الردة

٥ ـ تسامح صلاح الدين الأيوبى

حرية العقيدة
وحقوق الإنسان فى الإسلام (*)

تمهيد

ليس هناك من شك فى أن قضية حقوق الإنسان، وبخاصة حرية العقيدة، تمثل مشكلة من أهم المشكلات في عالمنا المعاصر . وتعد قضية الحرية الدينية قضية فلسفية حضارية بالإضافة إلى كونها تدخل فى إطار حقوق الإنسان الأساسية . فالدين ـ كما يتضح من علم فلسفة الحضارة ـ يعد أساس كل حضارة . ومن هنا يمكن أن يطرح سؤال له ما يبرره عما إذا كان الدين فى العصر الحاضر لا يزال حيّا وفعالاً فى حياة الناس ومؤثرًا فى البناء الحضارى المعاصر أم لا ؟

ودون الدخول فى تفاصيل هذا الموضوع المتشعب الجوانب نود أن نركز فى هذا البحث على عرض وشرح المبادئ الإسلامية الأساسية التى تتعلق بحرية العقيدة فى إطار التصور الإسلامى لحقوق الإنسان . ومن خلال ذلك سيتضح مدى خصوصية الفكر الإسلامى فى معالجة هذا الموضوع .

لقد أعلن الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان ضرورة الإقرار بحقوق الإنسان التى تشمل البشر جميعًا بلا استثناء ، على أساس المساواة المبدئية بين الناس جميعًا ، وبناءً على الكرامة والحرية الفطريتين . ومن هنا ينظر الإسلام إلى هذه الحقوق على أنها ضرورات إنسانية .

(*) بحث تم تقديمه للمؤتمر الذى أقامته الأكاديمية الكاثوليكية فى برلين فى الفترة من ١٧ـ١٨ سبتمبر ١٩٩٩م تحت عنوان : حقوق الإنسان . . هل يمكن أن تكون بدون أديان التوحيد العالمية؟ Menschenrechte ohne die monotheistischen Weltreligionen? Katholische Akademie in Berlin .

ويشهد التاريخ أن الإسلام لم يكتف بإقرار حقوق الإنسان وإعلانها، بل إنه أدخلها بنجاح باهر في كل البلاد التى كان المسلمون في عصر الازدهار الحضارى الإسلامي يحكمونها. ولقد تحقق ذلك؛ لأن الإسلام أقر صراحةً حق كل إنسان في الحرية كما أقر التعايش السلمي الإيجابى بين الثقافات والأديان، بمعنى أنه: أقر التعددية الثقافية والدينية.

والحرية الدينية تندرج في إطار حقوق الإنسان العامة التي يعتبرها الإسلام مبادئ وقواعد قاطعة يقوم عليها كل نظام اجتماعي عادل.

ومن هنا تعد الحرية الدينية فى نظر الإسلام مبدأ طبيعيّا. وهذا يعني أن من طبيعة الإنسان أن تتاح له الحرية في أن يؤمن وفي ألا يؤمن بما يشاء. وعندما تتاح له ممارسة حريته فإن ذلك يعنى إتاحة الفرصة أمامه لتربية نفسه تربية ذاتية، وبالتالي يكون مهيأ لممارسة التدين الصادق.

ولكن الإنسان في التصور الإسلامي وفى الواقع الفعلى ليس مستقلاً استقلالاً تامّا، كما أن الحرية التى يتمتع بها ليست حرية مطلقة. فالحرية المطلقة لا وجود لها فى عالم الإنسان. والقرآن يبين لنا أن الإنسان لو تُرك دون توجيه روحى وأخلاقى فإنه يميل عادة إلى تبديد حريته وإلى الاستسلام لكل تيار جارف، وهو ما يؤدي به إلى الخضوع لتأثير البيئة المحيطة به خضوعًا مفرطًا. وكل هذا من شأنه أن يعرقل بدرجة خطيرة تربيته الذاتية الضرورية لنمو شخصيته.

وكثيراً ما يؤدي إهمال التربية الدينية (ونعني بطبيعة الحال التربية الدينية في أفضل مفهوم لها) إلى الصلف والكبر والطغيان. وفي هذا يقول القرآن الكريم: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ**﴾ [العلق: ٦-٨].

ويتصل بهذه الآيات مباشرة التنبيه إلى ضرورة الحرية الدينية، ويضرب القرآن مثلاً لعبد مُنع من تأدية الصلاة، وذلك المنع بلا شك ظلم بيِّن؛ لأن لكل إنسان الحق في حرية ممارسة دينه الذي اختاره لنفسه بنفسه: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ**﴾ [العلق: ٩-١٢].

وليس لأحد أن يمنع إنسانًا أو أن يُكرهه على اعتناق دين آخر . ويؤكد القرآن المبدأ الإسلامي فى الحرية الدينية بقوله : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . والمعنى واضح وصريح ، وهو أنه لا يجوز بأى شكل من الأشكال أن يُكرَه إنسانٌ على اعتناق دين من الأديان ؛ لأن الحرية جزء لا يتجزأ من الدين .

ولكن الإنسان إذا كان من ناحية حرّا في أن يؤمن أو لا يؤمن ، وفي أن يؤمن بما يريد ، فإنه من ناحية أخرى مفطور بطبيعته على اتخاذ دين من الأديان ، حتى إذا منعه من ذلك الجهل بالغاية من خلقه ، أو الطغيان أو المادية أو الصلف وما إلى ذلك من أسباب الجهل بمهمته . يقول القرآن الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦-٨] .

فالإنسان عندما يعرف كيف تم خَلقُه ، أي عندما يعرف الحقيقة المتمثلة في أنه لم يخلق عبثًا أو بالصدفة من عدمٍ ما ، يستطيع أن يكون قادرًا على تولي مهمته الدينية التي فُطر عليها . وهذه المعرفة تمكنه من تربية نفسه ذاتيّا ومن تنمية شخصيته على نحو يتسم بالإبداع .

أولاً : الحرية الدينية

يتضح لنا من خلال تعاليم الإسلام أن الإنسان إذا اتبع فطرته الصافية التى فطره الله عليها منذ خلقه فإنه يكون لديه من سعة الأفق ورحابة الصدر وبعد النظر ما يجعله يعترف للآخرين بالحقوق والحريات ذاتها التى يطلبها لنفسه .

وقد تحدث القرآن في سياق حديثه عن نظام المجتمع العادل عن ثلاث نعم أنعم الله بها على الإنسانية ، وهي : [١]

١ ـ الكتاب (أي آيات التنزيل المدونة) .

٢ ـ الميزان وهو رمز العدل .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

٣ ـ الحديد وهو رمز قوة التشريع وقوة السلاح الذى يستخدم في الكفاح ضد العدوان .

وتمثل هذه النعم الثلاث الركائز الضرورية لتحقيق حقوق الإنسان والحريات التي يقوم عليها نظام المجتمع العادل ، وهو النظام الذي يمكِّن أفراد المجتمع من تنمية إنسانية طبيعية . وفيما يلى نتناول أهم هذه العناصر التى تتمثل فى الكتاب أو " الدين الخالص " .

تُعَد الحرية الدينية ـ كما سبق أن ألمحنا ـ شرطًا لا محيص عنه لنظام أى مجتمع إنسانى عادل . وتتمثل الحرية الدينية فى أنه ، على الرغم من أن الناس مفطورون على الدين ، يجب أن تترك لهم الحرية لاتباع هذه الفطرة أو رفضها أيضًا . وقد حَرّم الإسلام الإكراه في الدين، فاعتناق الدين عمل قوامه الحرية، والله ـ سبحانه وتعالى ـ نفسه يدع للإنسان ـ كما يقول القرآن ـ الحرية فى أن يؤمن به أو لا يؤمن، على الرغم من أنه ـ سبحانه، وهو القادر بلا حدود ـ كان يستطيع أن يجعل الناس جميعًا مؤمنين : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** ﴾ [يونس : ٩٩].

فإذا كان الله ـ جلّ وعلا ـ يدع للبشر حرية العقيدة، فكيف يخطر ببال إنسان أن يحاول إكراه البشر على أن يؤمنوا؟ هذا سؤال يطرحه القرآن بحق فى تكملة للآية السابقة : ﴿ **أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس : ٩٩].

فالإنسان حر في أن يعتقد ما يشاء . والحرية ضرورية للإيمان، وهذه الحرية تلقائية لا يمكن ضبطها من خارجها؛ لأنها تنبع من داخل الإنسان، والقرآن يقول : ﴿ **فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً** ﴾ [الإنسان : ٢٩].

وعندما يتخذ الإنسان قراراً بالإيمان ، فإنه لا يتصرف فى اللحظة ذاتها انطلاقًا من إرادة غير منضبطة . لقد اختار طريقًا معينًا يرقي بطبيعته الروحية؛ لأنه يهبه حريةً مبدعة . فالإنسان إذن حر في أن يؤمن أو لا يؤمن، ولكنه في الوقت نفسه بفطرته مكلف بالتوجه إلى الدين أو الإيمان الذى يسميه القرآن " الدين القيّم " أو " الدين الخالص " : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠].

والإسلام يبين لنا أن الإنسان إذا لم تحل بينه وبين تطوره الطبيعي عقبات ما، فإنه يتجه تلقائيّا بفطرته إلى الدين الخالص. هذا الدين الذى دعا إليه - كما جاء في القرآن الكريم - كل الأنبياء والمرسلين في مختلف العصور (يونس : ١٣-١٥ وغيرهما). وهذا الدين الخالص هو الدين الذي تقوم عليه كل الأديان من لدن آدم حتى محمد - عليه الصلاة والسلام.

لقد كان هناك منذ البداية تطابق تام من الناحية العملية بين الدعوة الإسلامية والدعوة إلى العدل، أي أن الدعوة الإسلامية وقفت مبدئيّا وبقوة مع حقوق وحريات الآخرين كما وقفت بقوة مع حقوق الفرد وحرياته. ولقد كانت مهمة النبي محمد ﷺ، كما يقول القرآن الكريم، تتمثل فى إقامة العدل: ﴿**وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ**﴾ [الشورى: ١٥]، وذلك فى إطار الرحمة التى هى هدف الرسالة الإسلامية كلها: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومفهوم العدل مفهوم شامل إلى أبعد الحدود. فالعدل قيمة لا تتجزأ وترتبط ارتباطا وثيقًا بحرية الإنسان. ويعبر حديث رسول الله ﷺ فى بساطة شديدة عما يجعل الإنسان خيراً بقوله: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه**»(١).

وهذا يعنى تحمل الإنسان المسئولية كاملة لعواقب اختياره الحر للعقيدة وللتعامل مع الآخرين. وهذا ما يؤكده القرآن في مواضع عديدة من أن الإنسان هو الصانع الحر لمصيره، وأنه نتيجة لذلك مسئول عن أفعاله أمام الله. وهذه الحقيقة هي لب رسالة الإسلام، وقد حَسمت الجدل فى هذه القضية، وجعلت المشاحنات والمحاجات الدينية فيها لا جدوى منها ولا معنى لها. ولهذا يقول القرآن الكريم: ﴿**لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١٥].

أما أن الإنسان يتحمل مسئولية أعماله (وهذا أمر يتولى الكشف عنه بوضوح ضمير الإنسان إذا كان حيّا ومتيقظًا) فهو ما يدل على أنه كائن حر. ولكن هذه الحقيقة كثيراً ما يغفل الناس عنها. ويتصل بذلك مسألة أخرى هامة من مسائل

(١)رواه مسلم، وأحمد فى مسنده.

العقيدة الإسلامية ، وهى مسألة يُسَاء فهمها فى كثير من الأحيان ، وتتمثل فى كيفية التوفيق بين ما يقول به الإسلام من الهيمنة الكاملة لله وبين حرية الإنسان .

إن علينا هنا أن نفرق بين نوعين من الحرية ، أولهما هو الحرية غير المنضبطة ، وثانيهما يتمثل فى شكل آخر من الحرية أعلى من ذلك وأسمى ، وخير اسم نطلقه عليه هو الحرية المبدعة (1) ؛ لأنها تجعل الإنسان في وضع يكون فيه قادرًا على إبداع شيء جديد ، يثرى حياته كفرد ، ويثرى بالتالى حياة المجتمع الذى يعيش فيه .

ويمكن القول بأن القرآن الكريم يقصد هذه الحرية المبدعة عندما يذكر أن هناك عاملين مؤثرين في القرار الذى يتخذه المرء بالإيمان بالله وهما :

١ ـ القرار الذى يتخذه الإنسان من جانبه بالإيمان .

٢ ـ القرار الإلهى فى هذا الشأن بإيمان هذا الإنسان .

فقرار الإنسان بسلوك السبيل إلى ربه هو فى الوقت نفسه مشيئة إلهية بالهداية إلى هذا السبيل . ويعبر القرآن عن هذه الحقيقة بقوله : ﴿ **فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الإنسان : ٢٩-٣٠] .

والإنسان الذى يطيع الله عن إيمان خالص يرتبط ـ عن طريق الروح الذى نفخه الله فيه عند خلقه (الحجر : ٢٩) ـ ارتباطًا روحيًا بخالقه الذي يلهمه . وما يأتى به الإنسان فى هذه اللحظة من فعل يكون فعل حرية مبدعة .

ومن خلال هذه المناقشات التي تناولت تكوين الإيمان والحرية المبدعة يتضح لنا بجلاء لماذا تعتبر الصفات الروحية في الإسلام ـ مثل العدل والرحمة والسلام وما

(١) عندما يرتبط الإنسان بالله فى علاقة إيمانية فإن ذلك يجعله يستخدم حريته على نحو معقول له مغزى ومن ورائه حكمة ؛ لأن له هدفًا ساميًا يسعى لتحقيقه بإرادة واثقة وعزم أكيد . ومن هنا يمكن أن يطلق على هذه الحرية أنها حرية مبدعة ، وذلك فى مقابل الحرية غير المنضبطة التى تنطلق فى جميع الاتجاهات على غير هدى وعلى نحو لا يتقيد بالمعقولية ، بل يخضع للأهواء والرغبات . ومن أجل ذلك تكون هذه الحرية عرضة للضياع ، وتنتهى بصاحبها إلى التمزق والتشتت مثل حال هذا الذى يصفه القرآن بقوله : ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [الحج : ٣١] .

إليها - من صفات الله ، فالإنسان لا يمكنه أن يتصف بها إلا إذا استطاع أن يسمو على ذاته .

والإسلام يوجه الإنسان إلى السعي إلى الحق وإلى التوكل على الله ؛ لأن رحمة الله من وجهة النظر الإسلامية تلعب دوراً حاسماً بالنسبة إلى مصير الإنسان . وقد جاء في حديث نبوي شريف : «**لن يُنجي أحداً منكم عملُه**» قال رجل : ولا إياك يا رسول الله؟ **فقال:** «**ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمة، ولكن سددوا** »[1] .

وفى حديث آخر عن الرحمة يقول النبى عليه الصلاة والسلام : «**من لا يَرحم لا يُرحم**»[2] .

ويتضح من هذا الحديث الأخير أن الإنسان يعد صانع مصيره ، وهذه حقيقة لا سبيل إلى التزحزح عنها من منظور الإسلام .

وإذا نظرنا إلى التصور الإسلامي لقدرة الله وعرشه الذي يشمل السموات والأرض (البقرة : ٢٥٥) من منظور مسئولية الإنسان عن عمله في هذه الدنيا ، بدت لنا قدرة الله في ضوء آخر . وكثيراً ما يسيء البعض فهم قدرة الله ويصوّرونها فى صورة حكم إلهي مستبد مما يؤدي إلى فكر قَدَري عقيم . وهذه التفسيرات الخاطئة لا يمكن القول بها إلا إذا استند قائلوها إلى آيات قرآنية متفرقة نزعت من سياقها . والقرآن الكريم يرشدنا إلى مكمن أسباب إساءة تفسير رسالته عندما يقول : ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ [آل عمران : ٧] .

ومن الواجبات الدينية أن يدرس المرء تعاليم الإسلام دراسة واعية وأن يفهمها الفهم الصحيح . وطلب العلم بمعناه الشامل للعلوم الدينية والدنيوية يعد فريضة على كل مسلم، ولهذا يحظى العلم فى الإسلام بتقدير كبير . ومن هنا جاء قول النبى ﷺ : «**من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة**»[3] .

---

(١) رواه مسلم، القاهرة ١٩٨٧ ، دار الريان، ج١٧ ص ١٥٩ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب، ومسلم فى كتاب الفضائل .

(٣) رواه الإمام مسلم فى صحيحه .

وخير مثال يصور لنا ائتلاف إرادة الله المهيمنة وإرادة المؤمن هو ما تتضمنه تعاليم الإسلام من اختيار الإنسان خليفة لله ـ وكيلاً ونائبًا عنه ـ فى الأرض .

ويشير القرآن الكريم إلى أن الله قد سخر للإنسان كل شىء في العالم ، وأنعم عليه بنعم لا تحصى . ولكنه اشترط عليه أن يشكر ربه بالغيب ، وأن يقوم كل فرد ـ كلٌّ في دائرة حياته ـ برعاية إخوانه من البشر ورعاية بيئته على نحو مسئول . وكما أن نائب الملك يتصرف فى غيبته طبقًا لرغبات الملك وتعليماته فإن عليه مع ذلك أن يتصرف على نحو مبدع ومسئول مسئولية ذاتية ، كذلك الإنسان يحمل في نطاق دائرة حياته مسئولية أعماله وعليه عاجلاً أو آجلاً أن يقدم لربه كشف الحساب .

ولا يكفي أن يتم إعلان مبادئ العدل والرحمة أو حقوق الإنسان العامة ، بل يجب أن يواكب القول العمل ، ويتطابق الإعلان مع الممارسة . ومن أقوال الخليفة عمر بن الخطاب فى رسالته فى القضاء التى كتبها إلى أبى موسى الأشعرى : «**إن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ..**» (١) . وهذا الموقف المثالى من جانب عمر يلقى الضوء على الحقيقة ويوضحها ويقربها إلى الأفهام . والخليفة عمر بن الخطاب نفسه هو صاحب العبارة الشهيرة : «**متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟**» .

والدين يدعو إلى تحرير الإنسان من العبودية . وحرية العقيدة والحرية الدينية من منظور الإسلام شرط لا محيص عنه للدين ، فبدونهما تتقلص رسالته .

ثانيًا : الدفاع عن حقوق الإنسان مهمة دينية

تقوم المطالبة بحقوق الإنسان في الإسلام على أساس مفاهيم تختلف فى نهجها عن النهج الغربي . ولكن حقوق الإنسان التى أعلنت في الغرب فى العصر الحديث تتفق من حيث المبدأ مع حقوق الإنسان التى حرص الإسلام على صونها منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان . ومن المعروف أن مقاصد الشريعة الإسلامية تتمثل فى حفظ النفس والعقل والدين والمال والنسل .

---

(١) حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور / على عبد الواحد وافى ص ٨ ـ طبعة وزارة الأوقاف (دون تاريخ) .

فأسباب المطالبة بحقوق الإنسان وسياقاتها متباينة في الثقافتين. فعلى العكس مما حدث في العالم الغربي الذي أعلن في العصر الحديث مبدأ العَلمانية (بمعنى فصل أمور الدين عن أمور الدنيا) واستقلال الإنسان الذاتي لم يشهد العالم الإسلامي مثل هذا الانفصال. ولم تكن هناك ضرورة لإعلان مثل هذا الفصل بين الدين والدنيا. فقد شجَّع الإسلام منذ البداية توجه الإنسان المؤمن إلى الدنيا بوصفها مجالا لنشاطه الخاضع لمسئوليته. والمؤمن مسئول مسئولية مباشرة أمام الله عن أعماله، ولقد أوجب الإسلام عليه أن يدافع بقوة عن حقوقه وحقوق الآخرين من إخوانه من البشر المشاركين له في الإنسانية.

فالبشر جميعًا طبقًا لتعاليم الإسلام متساوون، ينحدرون من أصل واحد، ولهذا فإن لهم جميعًا الحق نفسه في الحرية والكرامة. ثم إنهم جميعًا مكلفون بمهمة واحدة وهي عمارة الأرض، تلك الأرض التي تلقوا من الله الأمر بالحفاظ عليها.

والناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة، وهم أجزاء من هذه النفس الواحدة، وكلهم نالوا بمولدهم نفس الكرامة ونفس الحرية، فكلهم بنو آدم كما يسميهم القرآن (الإسراء : ٧٠). ولهذا فإن النتيجة الطبيعية هي أن تقوم بينهم علاقة الأخوّة، وأن يكون موقف الأخوة هو الموقف الطبيعي لكل منهم حيال الآخر.

ولكنْ هناك أمورٌ عديدة قد غطت على هذه المساواة المبدئية تتمثل فى الفكر التنافسى السلبى، والتربية الخاطئة، والتباين فى ظروف الحياة والاختلاف فى الجنس والثقافة والدين.

أما روح التنافس الإيجابى والتسابق الطبيعي التي تعد محرك التطور فإن الإسلام يشجعها ويوصي بها، حيث يقول القرآن الكريم: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ [المائدة : ٤٨]، ولكن هذه الروح كثيراً ما تنقلب بسهولة إلى روح عدوانية ومادية.

فإذا نحن أخذنا بتربية دينية أساسية من شأنها أن تمكِّن الإنسان من تنمية ذاته على نحو سليم (تلك التربية التي تصنع في نظر الإسلام الفرق الهام الوحيد بين الناس)[1]، أمكننا أن ننمى الصفات اللازمة لقيام مجتمع إنسانى حقيقى - أعنى

(١) كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات : ١٣].

مجتمعًا يقوم أيضًا على التعددية الثقافية ـ وأمكننا أن ننمي التفكير الحر المستقل ، والاستعداد للتفهم والتفاهم مع الآخرين ، والتسامح الإيجابى معهم ، وأمكننا قبل هذا وذاك أن ننمي ضميرًا حيّا وفعالاً . وتلك هي أهداف التربية الإسلامية إذا فهمناها الفهم الصحيح .

ثالثًا : التعددية الثقافية في الإسلام :

إذا أراد المرء أن يفهم أصحاب ثقافة أخرى فهمًا حقيقيّا (وهذا أمر أصبح ضروريّا في عالمنا الذي يسمونه القرية الكونية) فلابد أن يكون ـ بالإضافة إلى دراسته لثقافة الآخرين ـ على وعى بأصوله الثقافية وجذوره الحضارية . وبدون هذين الأمرين معًا لا يمكن أن يتحقق تبادل حقيقى للأفكار ، وحوار مثمر وتعايش ناجح مع الآخرين . ولا شك فى أن ذلك الفهم المتبادل من شأنه أن يحقق مصلحة عامة لخير كل الأطراف .

وقد أعلن الإسلام منذ البداية أنه على الرغم من أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق الناس مختلفين فإنه يريد لهم أن يتعارفوا ويتعايشوا معًا ويتسابقوا فى الخيرات : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

والتسامح الإيجابي الذي يأمر به الإسلام لا يعنى مجرد قبول التعايش مع الأديان والحضارات الأخرى فحسب ، بل يعنى أيضًا احترامها والتعاون معها ، ويترتب على ذلك الحفاظ الناجح على حقوق الإنسان العامة ، وبخاصة الحرية الدينية ، وهذا التسامح الإيجابى ـ الذى يعد شرطًا أوليّا لأى ازدهار حضارى كما هو معروف ـ قد مكّن الإسلام من الازدهار والتقدم الذي استمر على مدي قرون عديدة ، وكان له تأثير واضح ومثمر على تطور أوروبا ذاتها فى القرون الوسطى وما بعدها .

وقد نعم المسيحيون واليهود في ظل حكم الإسلام في الأندلس – على سبيل المثال – بهذا التسامح الإيجابي الذي قام على أساسه تعاون مثمر مع المسلمين نهضت من خلاله الثقافة في الأندلس نهضة عظيمة .

ومن المعلوم أن صحيفة المدينة ـ التى أعلنها النبى ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ـ قد أقرت التعددية الدينية على نحو صريح لا يقبل التأويل . وقد مارس المسلمون فى علاقتهم بالآخرين التعددية فى شتى صورها ، انطلاقا من تعاليم الإسلام الذى علّم المسلمين السلوك الذى رسخ جذور هذه التعددية ، وهو السلوك المتسامح القائم على العدل والبر كما جاء فى القرآن الكريم :

﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة : ٨] .

رابعًا: الحرية الدينية في الإسلام التزام ديني :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن تسامح الإسلام مع الأديان الأخرى تسامح إيجابي فعال ، فهو ليس مجرد القبول بالتعايش الحيادى مع هذه الأديان الأخرى ، بل يعنى في الوقت نفسه احترامها . وقد اعتمد هذا التسامح الإيجابي على أصلين أساسيين هما :

أولاً: يطالب الإسلام مبدئيّا بأن يتخذ الإنسان حيال البشر جميعًا موقفًا متسامحاً عادلاً ، لا يستثنى منهم بطبيعة الحال إلا الجماعات المعادية .

ثانيًا: يؤكد الإسلام أن كل الأديان السماوية من عند الله ، ولهذا يفرض على المسلمين الإيمان بهذه الأديان واحترامها واحترام أنبيائها ـ مثل موسى وعيسى وغيرهما ـ بوصفهم رسلاً من عند الله . ويستتبع هذا بداهة الالتزام بالحرية الدينية تلك الحرية التى سبق أن بينّا أنها منبثقه بالضرورة من جوهر الدين نفسه .

وإذا كانت كل الأديان تعد سبلاً منزلة من السماء تؤدي إلى الله ، كما يبين لنا القرآن ، فمن البديهي أن يعترف بها كلُّ المؤمنين ، اعترافًا قوامه التسامح الإيجابي لا مجرد التسامح السلبي . فالإسلام لم يُقر فقط التعددية الثقافية ، بل أقر أيضًا التعايش السلمي الإيجابى بين الأديان .

وليس هناك من شك في أن هذا التسامح الإيجابى بين الأديان يمثل تحديًا للعقل

البشرى ، حيث يوحى بالجمع بين أمرين يبدوان متناقضين . فكل دين من شأنه أن يطلب لنفسه الحق فى امتلاك الحقيقة المطلقة ، وهذا يعنى أنه يستأثر بالحقيقة دون غيره . فكيف يتفق ذلك مع الاعتراف بالأديان الأخرى ؟ .

إن الجمع بين هذين الأمرين يعد ممكنًا من وجهة النظر الإسلامية ، فالإسلام حين يقرر الاعتراف بالأديان الأخرى ، وبأنها مبدئيّا تعد سبلاً منزلة من السماء تؤدي إلى الله ، فإن ذلك لا يعنى بأى حال من الأحوال الانتقاص من قدْر ديننا ، بل إلى تحققه بكامل إمكاناته . وبهذا نقضى على كل أشكال التعصب وضيق الأفق ورفض الآخر .

إن الدراسة الدقيقة للأديان جديرة بأن تبين لكل من يسعى سعيًا جادًا إلى الفهم الحقيقى لرسالة الأديان أنها جميعًا فى أساسها - كما يبين لنا القرآن الكريم - تتضمن الرسالة الإلهية ، رسالة العدل والرحمة ، ورسالة السلام الذي ينتج عنهما .

ولا يتمثل دور الأديان في أن تقيم أو تساند تنافساً أجوف من أجل السلطة الدنيوية - وإن كان هذا كثيراً ما يحدث للأسف - بل يتمثل في الحض على التنافس والتسابق من أجل «الخيرات» كما يقول القرآن الكريم فى صراحة ووضوح : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وإذا لم يوفق المؤمنون في اجتياز الابتلاء المشار إليه في الآية الكريمة ، ولم يستبقوا الخيرات ، فعليهم أن يتوقعوا أن يعرض الله عنهم وأن يختار غيرهم بدلا منهم لتنفيذ مشيئته . ولهذا جاء في القرآن الكريم : ﴿ **فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾ [النساء : ١٣٥] .

﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا** ﴾ [النساء : ١٣٣] .

خامساً: الحرية الدينية فى تاريخ الإسلام :

بعد هذا العرض الموجز للمبادئ الإسلامية المتعلقة بحقوق الإنسان العامة والحرية الدينية على وجه الخصوص أود أن أشير فيما يلى إلى بعض قضايا تاريخ الحرية الدينية في الإسلام . وسأتناول هنا على وجه الخصوص النقاط التالية التي تهم المراقبين والدارسين الغربيين بصفة خاصة . وهذه الموضوعات هى :

- الحوار الديني .
- التعددية الدينية وحقوق الأقليات .
- الوضع الحالي للحرية الدينية في البلاد الإسلامية .
- قضية الردة فى الإسلام .
- صلاح الدين بوصفه نموذجًا للتسامح الديني الإيجابي كما يفهمه الإسلام .

ومن المهم أن نشير هنا فى البداية إلى أن المسلمين قد ظلوا مبدئيّا على مدى تاريخهم كله وإلى اليوم يتبعون تعاليم الإسلام فى هذا الصدد بضمير واع، فلم يُكرهوا أحداً قط من المسيحيين أو اليهود أو أى جماعات أخرى على اعتناق الإسلام .

فالإسلام، كما أوضحنا من قبل ، يرى أن الإكراه على اعتناق دين من الأديان دون اقتناع من شأنه أن يولد منافقين لا مؤمنين، والإيمان المترتب على ذلك إيمان زائف لا قيمة له . ومن هنا حرّم الإسلام أن يُكرَه أي إنسان على الدخول في الدين. وفي توافق مع هذا الموقف دعا الإسلام بدلاً من الإكراه، كما بينّا، دعوة مبدئية إلى تسامحٍ إيجابي حيال الأديان الأخرى وحيال البشر جميعًا، واتبع المسلمون هذه الدعوة.

١ ـ الحوار الدينى

ويعد الإسلام أول دين أكد ضرورة الحوار الصريح بين الأديان، ولقد تمكن الإسلام من اتخاذ هذا الموقف؛ لأنه أول دين يعترف بوضوح بالأديان السماوية

جميعها بوصفها طرقًا إلى الله . وليس هناك في نظر الإسلام فرق من الناحية المبدئية بين هذه السبل، والأمر المهم فى هذا الصدد هو أن يحرص أتباع هذه الأديان على الصدق والإخلاص فى العمل من أجل إقرار موازين العدل . يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ويتطلب الحوار بين الأديان ـ فى التصور الإسلامي ـ سعة الأفق والتسامح، والوعي بأن الإنسان من شأنه أن يخطئ ، وإدراك المعنى الذي عبر عنه القرآن الكريم في قوله : ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وحتى لو لم يكن الهدف الصريح للحوار القائم هو اجتذاب الجانب الآخر للدخول في معسكر الداعي للحوار، فلا يصح أن تتخذ الحوارات الدينية ذريعة لسب دين الآخرين، أو الاستهزاء به (١) . كذلك لا يصح أن يشتغل الإنسان المشارك في الحوار بين الأديان بموضوعات هدفها المماراة والمخاصمة ، بل عليه أن يجتهد في استخلاص النقاط المشتركة بين الأديان، ويتخذ منها موقفًا إيجابيّا . وفي هذا المعنى يقول القرآن الكريم : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

ومثل هذه الحوارات الدينية الصريحة بين الأديان أو بين المذاهب المختلفة كانت تقام ـ على سبيل المثال ـ في العصر العباسي وكان الخلفاء يدعمونها بل كثيراً ما كانوا يترأسونها . وكانت تجري فى جو من الصراحة الكاملة وتتضمن مناقشات علمية بين

---

(١) وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

علماء يمثلون مختلف الطوائف والمذاهب بل والأديان[1] . وقد كان أول حوار فى الإسلام بين المسيحية والإسلام هو ذلك الحوار الشهير الذى أجراه النبى - عليه الصلاة والسلام - مع وفد نصارى نجران فى مسجده بالمدينة المنورة .

٢ ـ التعددية الدينية وحقوق الأقليات

لقد أعلن القرآن الكريم في صراحة ووضوح رفضه لكل أشكال التمييز الظالمة بين البشر ، وأمر بدلاً منها بالتسامح الإيجابي . يقول القرآن الكريم فى الآية التى سبقت الإشارة إليها أكثر من مرة : ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة : ٨] .

وإذا تأملنا هذه الآية وأنعمنا فيها النظر فسيتضح لنا أن القرآن في كثير من الأحوال لا يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر ، بل يستخدم بدلاً منه أسلوب التوجيهات التى تتسم بالرفق واللطف ؛ لأنه يدعو الإنسان إلى التأمل الحر واتخاذ القرار ، فلا يفرض بالإكراه شيئًا من شأنه ألا يفرض بالإكراه . فمنهج القرآن يقوم على تقديم حل المشكلة المطروحة على نحو متدرج ، وعلى تقديم شرح التعاليم على نحو متدرج أيضًا ، بحيث يناسب الحل والشرح مستوى ثقافة الفرد . فليس الهدف الذي يرمي إليه القرآن هو الطاعة الآلية أو العمياء ، وإنما الطاعة التى تكون ناتجة عن اقتناع .

وطبقًا لمبدأ الحرية الدينية وضع النبي - عليه الصلاة والسلام - بعد هجرته إلى المدينة المنورة دستوراً للمدينة يضمن التعايش السلمي بين الأديان ، وبالتالي يضمن حقوق الإنسان المتساوية لجميع قبائل المدينة . وفي هذا الدستور المدني الديموقراطي الذي تقرر قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان ، وُصف اليهود الذين يعيشون في المدينة بأنهم أمة تشكِّل مع أمة المسلمين في المدينة جَماعة واحدة . وبهذا كان لليهود ولغيرهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات سواء بسواء ، مع تأكيد صريح على الاختلاف بين الأديان .

(١) راجع : حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى ص ١٣٧ (مرجع سابق) .

ومن ذلك يتضح أن النبي - عليه الصلاة والسلام - قد تبنى منذ البداية ، وبتصميم لا يلين ، قضية الحرية الدينية والتعددية الدينية ، وقَبِل اختلاف العادات والتقاليد [١] .

وقد أعلن النبي كذلك أمام جميع أسرى الحرب وسكان المناطق المفتوحة إعلانًا واضحًا صريحًا أن لهم أن يقرروا بأنفسهم وفي حرية أمر دينهم ، وأنهم لن يُكرهوا بحال من الأحوال على الدخول في الإسلام . فقد كان يعطي حرية اتخاذ القرار في شأن العقيدة أهمية كبرى . وكان لهذا السبب لا يفتأ يحذر من أي محاولة لإجبار أحد على الدخول فى الإسلام، وقد كتب في إحدى رسائله إلى أهل اليمن : «**إنه من كان على يهودية أو نصرانية فإنه لا يُفتن عنها**»[٢] .

وكان النبي ﷺ شديد الاهتمام أيضًا بالحفاظ على الحقوق الإنسانية لغير المسلمين . ولهذا - كتب على سبيل المثال - في رسالة من رسائله إلى أهل نجران : «**ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على مالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دنية**»[٣] .

وعلى هذا الأساس ضمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للسكان المسيحيين في القدس [أهل ايلياء] أمنهم : «**أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ... إنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبانهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يُضار أحدٌ منهم ...** »[٤] .

---

(١) راجع : محمد حسين هيكل . حياة محمد ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٢٥ وما بعدها . مكتبة النهضة المصرية .

(٢) كتاب الأموال ، لأبى عبيد القاسم بن سلام ، بيروت ١٩٨٦م ، تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، ص ٣٢ . انظر : Batzli, Menschenbilder..Menschenrechte,Zürich 1994,S.159 .

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٥٩ وما بعدها ، وفيه الإحالة إلى كتاب الخراج، لأبي يوسف يعقوب ابن ابراهيم، طبعة القاهرة ١٩٩٩ ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد وسعد حسن محمد، ص ٨٥ .

(٤) انظر : عبقرية عمر لعباس العقاد ، ص ١١٩ . طبعة التربية والتعليم ١٩٦٨م .

فلغير المسلمين في كل البلاد تحت الحكم الإسلامي نفس وضع المسلمين، أي عليهم نفس الواجبات ولهم نفس الحقوق [١].

وليس هناك من شك في أن هذه المبادئ الإسلامية المتمثلة في الحرية الدينية والتسامح الإيجابي تتعرض من جانب بعض المسلمين على نحو فردى لسوء الفهم والتفسير. ولكننا في هذا المقام لا نريد أن ندخل في تفصيلات هذه المسألة التي تخرج بنا عن إطار هذا البحث وهو عرض الرأي الإسلامى الصحيح، وليس التفسير المغلوط وتطبيقه على يد بعض المسلمين أو المجموعات المتعصبة.

٣ ـ الوضع الراهن للحرية الدينية فى البلاد الإسلامية

أما ما يتعلق بالوضع الحالي للحرية الدينية في البلاد الإسلامية فإننا نتبين بصفة مبدئية أن المسيحيين مندمجون كل الاندماج في المجتمعات الإسلامية: فهم يمارسون دينهم بحرية، وينخرطون في القوات المسلحة ويشاركون في الدفاع عن الوطن، ويدفعون للدولة الضرائب مع المسلمين سواء بسواء [٢]. إنهم مواطنون لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الالتزامات كغيرهم من أبناء وطنهم. وشعار الجميع: الدين لله والوطن للجميع.

٤ ـ قضية الرِّدَّة

من خلال العناوين الطنانة التي تنشرها بعض الصحف فى الغرب عن الإسلام والمسلمين، يكون همها الأول هو الأخبار المثيرة، ويحلو لها، إما عمداً أو عن جهل، إغفال توضيح التعاليم الدينية، ويتجلى ذلك بصفة خاصة فى قضية «الرِّدة»، حيث يقرأ المرء أخباراً مثيرة ملفقة، يظل أصحابها ينفخون فيها، ويبثون فيها الحياة طويلاً، وهى أخبارٌ من شأنها أن تثير رعبًا لا مبرر له لدى الرأي العام العالمي. ويحدث ذلك في الوقت الذي تتمثل فيه الأخطار الحقيقية التي تهدد عالمنا اليوم ـ الذى انكمش وأصبح بمثابة قرية كونية ـ في التعصب حيال الثقافات الأخرى.

---

(١) انظر: Batzli, Menschenbilder..Menschenrechte, P. 166

(٢) انظر: Batzli, Menschenbilder..Menschenrechte, S. 169

وإذا كان هناك متعصبون فرادى أو جماعات يفسرون تعاليم الإسلام تفسيراً مغلوطًا بالفعل ويقلبونها رأسًا على عقب، فلا ينبغي لنا أن ننسى أن التعصب يظهر بين الفينة والفينة في كل مكان من عالمنا بين أتباع الأديان المختلفة، وليس فقط بين أبناء المسلمين . ولكن الشيء المؤسف والذى ليس له ما يبرره أن يتم التركيز على الإسلام فى الإعلام الدولى بإذاعة أخبار مغلوطة عنه والترويج لها فى أرجاء العالم لخلق حالة من الرعب وإثارة الخوف من الإسلام .

ورأى الإسلام بشأن الردة يقوم على أساسين هامين :

أولهما: أن كل عقيدة ترتكز على اقتناع شخصى ويقين ذاتي، فهي ليست ناتجة عن مجرد تقليد أو إكراه بأى شكل من الأشكال . ومعنى هذا أن كل إنسان حر في عقيدته، ولكل إنسان الحق في أن تكون له آراؤه الخاصة حتى لو كان ما يعتقده فى نفسه أفكاراً إلحادية . ولهذا فإنه لا يجوز العدوان على إنسان أو إيذائه بسبب آرائه . ولسنا مأمورين بأن نفتش فى صدور الناس عن معتقداتهم الدينية .

ثانيهما: أن هذه الحماية العامة لحرية الرأي والعقيدة تقوم طالما احتفظ الفرد برأيه لنفسه . أما إذا أراد أن ينشر على الملأ بأى وسيلة من وسائل النشر آراءه الخاطئة التي تناقض معتقدات وأخلاقيات مواطنيه، فإنه في هذه اللحظة يخرج على النظام العام للدولة التي يعيش فيها؛ لأن آراءه الخاطئة يمكن أن تنشر الشك بين مواطنيه مما قد يؤدي إلى إحداث بلبلة وإثارة فتنة . وكل من يسلك هذا المسلك فى أى مكان فى العالم يعاقب، بل قد توجه إليه تهمة الخيانة العظمى، لا لأنه ارتد عن عقيدته، وإنما لأنه يثير فتنة فى المجتمع نتيجة نشر أفكاره، ولأنه يخرج بذلك على النظام العام فى الدولة . والفتنة - كما جاء فى القرآن الكريم - أشد من القتل (البقرة : ١٩١، ٢١٧)[٦] .

---

(١) انظر كتابنا : حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك . ط٣ سلسلة قضايا إسلامية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . وراجع : الحرية الدينية فى الإسلام للشيخ عبد المتعال الصعيدى - دار المعارف .

٥ ـ تسامح صلاح الدين الأيوبى

وقبل أن أختم هذا البحث أود أن أسوق مثلاً رائعًا من التاريخ الإسلامي يدل دلالة واضحة على المفهوم الإسلامي للحرية الدينية والتسامح ، وهو مثل ـ كما سنرى ـ يبين على نحو نموذجي السمة الفريدة للعقيدة الإسلامية وقدرة المسلمين الحقيقيين على ترجمة المبادئ الإسلامية إلى واقع ملموس .

إن التاريخ يذكر لنا أن السلطان صلاح الدين الأيوبى قد عامل الصليبيين بعد أن انتصر عليهم معاملة تعبر تعبيراً واضحًا عن المفهوم الإسلامي للعدل والتسامح ، وكان سلوكه فى هذا الصدد مستلهمًا من مبدأ الرحمة التي تعد ـ فى نظر الإسلام ـ الوجه الآخر للعدل ، ولم يكن متبعًا لمبدأ الشرعية وحده .

ويعبر عن ذلك أحد المؤرخين المعاصرين بقوله : " لعل أهم ما يسترعي الانتباه في ذلك الدور من أدوار الحروب الصلاحية [١] (التي انتصر فيها على الصليبيين) هو اعتدال صلاح الدين وبعده عن التطرف ، وتمسكه بمبادئ الأخلاق والرحمة والتسامح ، وهو الأمر الذي شهد له به كافة المؤرخين ، الغربيين والشرقيين على السواء . . ولم يلبث أن وجد الصليبيون داخل عكا قلبًا رحيمًا كبيراً ، فوهب لهم عصمة الأنفس والأموال . وهنا نلاحظ أنه إذا كان صلاح الدين قد استولى على معظم المدن والقلاع والمراكز الساحلية في جنوب بلاد الشام ، إلا أنه ترك من فيها من الصليبيين أحراراً كما ترك لهم حرية البقاء والخروج . . وعند استيلاء صلاح الدين على عسقلان في أوائل سبتمبر ١١٨٧ اقتيد أهلها من الصليبيين إلى الدلتا ، حيث قضوا فصل الشتاء في الإسكندرية متمتعين بحماية صلاح الدين ورعايته ، حتى رحلوا إلى غرب أوروبا في مارس من العام التالى . . وفي الوقت نفسه وافق صلاح الدين على إرسال رسالة للأميرة سيبل زوجة جاى في بيت المقدس لدعوتها للحضور إلى نابلس لتقيم إلى جانب زوجها الأسير جاى لوزنجان . . وتصرف صلاح الدين مع من بداخل المدينة (بيت المقدس) تصرفًا كريمًا ، فسمح بخروج الملكة ماريا كومنين أرملة عموري الأول وزوجة باليان ، وسمح بحراستها من بيت

---

(١) نسبة إلى صلاح الدين الأيوبى .

المقدس حتى طرابلس، كما سمح لغيرها من النساء والأطفال بالخروج من المدينة آمنين . . وفي يوم الجمعة ١٢ أكتوبر ١١٨٧ دخل صلاح الدين بيت المقدس المقدس . . وكان الملك العادل في صحبة أخيه صلاح الدين عند دخول بيت المقدس فأظهر تسامحًا كبيراً تجاه فقراء الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية . . . وقد نادى بعض المسلمين بمعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ . . . ولكن صلاح الدين نهرهم عن ذلك، وأمر باحترام الأماكن المقدسة المسيحية في بيت المقدس، والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين . . . أما اليتامى والشيوخ من الصليبيين، فإن صلاح الدين لم يكتف بإطلاق سراحهم دون فداء، بل منحهم أيضًا مساعدات مالية من ماله الخاص . وهكذا بدا الفرق عظيمًا بين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، وبين ما فعله الصليبيون بالمدينة وأهلها عندما سقطت في أيديهم سنة ١٠٩٩ »[١] .

ويمكن القول بأن صلاح الدين ، من وجهة النظر الإسلامية ، قد استرد «القدس الخالدة» التي لا تمثل «القدس الدنيوية» إلا مجرد قبس منها . وهذه الصفحة من تاريخ الإسلام لا ينبغي أن ننساها ، إذا صحت إرادتنا على ألا ننسى الإسلام .

***

(١) انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية، الجزء الثاني ، ص ٧٨٠ - ٧٩٣. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦م .

الفصل الثانى عشر

مشكلة الانحرافات الدينية
فى التاريخ الإسلامى

تمهيـد

أولاً: مفاهيم الانحراف فى التاريخ الإسلامى :

أ ـ البدعة

ب ـ الزندقة

ج ـ الغلو

د ـ الردّة

ثانيًا : تاريخ المذاهب المنحرفة

ثالثًا : الموقف الإسلامى من الزندقة

رابعًا : تطورات حديثة

خاتمة

مشكلة الانحرافات الدينية
فى التاريخ الإسلامى (*)

تمهيد

لكى نفهم مشكلة الانحرافات الدينية أو الهرطقة[1] فى التاريخ الإسلامى علينا أن نعرف أن القرآن الكريم والسنة النبوية - التى هى صحيح ما أُثر عن النبى ﷺ من أقوال وأفعال وتقريرات - يمثلان مصدرى العقيدة الإسلامية ، ويرشدان المسلمين إلى سواء السبيل ، ويمدانهم بالتوجيهات العامة فى دينهم ودنياهم .

وإذا أردنا أن نكوِّن حكمًا صائبًا على الزندقة والزنادقة أو الانحرافات الدينية بصفة عامة وجدنا أنفسنا بادئ ذى بدء أمام أسئلة ملحة تفرض نفسها وذلك على النحو التالى : ما السبيل إلى التفسير الصحيح لمصدرى العقيدة الإسلامية ؟ وما الموقف الإسلامى من الزندقة ؟ وإلى أى مدى يصح أن تلعب العوامل السياسية دوراً فى ملاحقة الزندقة والزنادقة ؟

تلك هى بعض الأسئلة التى تطرح نفسها عندما نتناول هذه المشكلة بالدرس . ونحن إذا دققنا النظر وجدنا أن الفرَق المنحرفة فى التاريخ الإسلامى تختلف من

(*) محاضرة ألقيت فى مؤتمر " المعيار والخروج عليه : الهرطقة فى السياقات الدينية " . قسم الدراسات العليا ، جامعة هايدلبرج : " Religion und Normativitaet, Heidelberg, 1995 " .

(1) كلمة هرطقة يونانية الأصل hairesis ومنها انتقلت إلى اللاتينية haeresis ثم إلى اللغات الأوروبية ولغات غير أوروبية ، وأصبحت مصطلحًا تستخدمه الكنيسة الكاثوليكية بصفة خاصة لوصف المذاهب التى تدينها الكنيسة وتعتبرها انشقاقًا على مذهب الكنيسة .
وقد استخدمنا فى هذه المحاضرة التى ألقيت فى الأصل بالألمانية المصطلح الموازى للهرطقة لأنه هو المعروف لدى الأوروبيين ، وسيتضح من تناولنا لهذا الموضوع مدى الفرق بين المصطلح الأوروپى الخاص والتصورات الإسلامية فى هذا الصدد . ومن هنا عدلنا عنوان البحث بالعربية إلى : " مشكلة الانحرافات الدينية " بدلاً من " مشكلة الهرطقة " .

وجوه كثيرة عما يعتبر فى المسيحية مذاهب هرطقة . ولهذا فإن مفهوم الهرطقة المعروف فى التاريخ المسيحى لا يمكن أن ينطبق انطباقًا كاملاً على وصف الفرق المنحرفة التى شهدها التاريخ الإسلامى . فهو مفهوم مرتبط بارتباطات مسيحية خاصة . ولهذا فالصواب منطقيًا أن نقرر أن العربية ليس فيها مفهوم يطابق تمامًا مفهوم الهرطقة التى تعنى الانشقاق عن المذهب السائد لدى الكنيسة .

ومن هنا فإن هذا المفهوم بمعناه الخاص الدقيق بعيد إلى حد كبير عما يعرفه تاريخ الفرق الإسلامية ، فليس فى الإسلام كنيسة ، وليس فيه بالتالى انشقاق عن مذهب الكنيسة .

كما أننا إذا أخذنا بتعريف الهرطقة بأنها " التكذيب بحكم من الأحكام الدجماطيقية الاعتقادية الكنسية " فإننا لا نجد فى الإسلام أحكامًا يمكن وصفها بأنها دجماطيقية اعتقادية بالمعنى المسيحى ، ويضاف إلى ذلك أن الإسلام لا يعرف طبقة كهنوتية تضع أحكامًا دجماطيقية اعتقادية لا يجوز المساس بها [(١)] كتلك التى تعرفها المسيحية .

إن هناك ما يغرى البعض من الباحثين الأوروپيين بقياس الدينين التوحيديين بنفس المقاييس ، أو قياس الدين الآخر بمقاييس دينهم ، لما بينهما من أوجه الشبه . ولكن الأفضل والأقرب إلى المنطق أن ننظر للظواهر الدينية فى كل دين بوصفها ظواهر متفردة قائمةً بذاتها ، حتى لا نصيبها بالتزييف ، حتى ولو كان ذلك على نحو جزئى .

صحيح أن الدينين فى تاريخهما يشتركان على سبيل المثال فى موقفهما من مناهضة التيارات المختلفة المنبثقة من النزعة المانوية المعروفة بإيمانها المتطرف بإلهين اثنين هما النور والظلمة ، وبعدائها للجسد وبدعوتها إلى زهد صارم [(٢)]. ولكن أوجه الشبه لا يجوز أن تجعل الباحث عن الحقيقة يغفل عن أوجه الاختلاف .

---

(١) انظر مقدمة : تاريخ الإسلام ، كمبريدج ١٩٧٠ :
Cambridge History of Islam,2, Cambridge 1970.

(٢) Goldzieher, Vorlesungen ueber den Islam, Darmstadt 1963, S. 160. 280. ؛
راجع : الملل والنحل للشهرستانى فى الباب الذى عقده بعنوان " الثنوية " . تحقيق د . محمد بن فتح الله بدران . مكتبة الأنجلو المصرية .

والإسلام - كما جاء فى كلمة حق بكتاب Cambridge History of Islam - لم يكن ضيق الأفق نتيجة أحكام دجماطيقية اعتقادية ، فقد كان " أكثر تسامحًا فى صياغة العقيدة من المسيحية " [(١)] . ولكن هذا التسامح الإسلامى يجد نفسه بين الحين والآخر مضطرّا إلى التصدى لمناقضات يوجهها إليه اتجاهان متطرفان يمتد نشاطهما على طول التاريخ الإسلامى كله .

أما الاتجاه الأول فتمثله المحاولات المستمرة التى يقوم بها المتعصبون المتشددون ابتغاء تضييق المجال الواسع التى تفسحه تعاليم القرآن الكريم والسنّة المشرَّفة للفكر الإسلامى الخالص .

وأما الاتجاه الثانى فتمثله المحاولات المستمرة أيضًا التى يقوم بها أصحاب الفكر المتحرر على نحو متطرف يتجاوز الحدود التى ترسم للفكر الإسلامى حدودَه وصورتَه . فالإسلام لا يدعو إلى الحرية وحدها ولا إلىَ الالتزام وحده ، وإنما يدعو إليهما معًا . والإنسان فى التصور الإسلامى ينال الحرية من خلال التزامه الإيمانى الذى يربطه بالله ، سبحانه وتعالى .

وحتى تتضح الصورة أمامنا بالنسبة للانحرافات الدينية فى التاريخ الإسلامى علينا أولاً أن نحدد مفاهيم الانحراف ؛ لنرى المدى الذى تذهب إليه هذه الانحرافات المختلفة قربًا أو بعدًا من الأصول الإسلامية .

أولاً : مفاهيم الانحراف فى التاريخ الإسلامى

ولدينا فى هذا الصدد أربعة مفاهيم أساسية تستخدمها العلوم الإسلامية وصفًا للانحرافات الدينية المختلفة . وهذه المفاهيم هى :

١ - البدعة ٢ - الزندقة أو الفكر التحررى المتطرف

٣ - الغلو المفرط ٤ - الردة .

وفيما يلى نشرح باختصار ما تعنيه هذه المفاهيم الأربعة الرئيسية . ونبدأ بمفهوم البدعة .

---

(١) المجلد الثانى : Bd, 2, S. XX1.

(أ) مفهوم البدعـة

البدعة - كما جاء فى القاموس المحيط - هى " الحدث فى الـدين بعد الإكمال أو ما استحدث بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - من الأهواء والأعمال " . وتستخدم كلمة بدعة استخدامات مختلفة أشد الاختلاف . ولهذا فليس من الممكن اعتبارها ببساطة مساوية للهرطقة (١) .

فالبدع يمكن تقسيمها إلى بدع مستحسنة وبدع مستهجنة ، والبدع المستهجنة هى محدثات أو مستجدات قبيحة . وطبقًا لهذا التقسيم فإن البدع المستحسنة هى التى تطابق السنة أو على الأقل لا تناقضها . أما البدعة المستهجنة فهى تلك التى تناقض السنة (٢) .

ولكن هناك أيضًا اتجاهات رافضة متشددة تنكر كل شكل من أشكال البدع ، وتعتبر من قبيل البدع كل ما لا يمكن إقامة الدليل على أنه من الآراء والممارسات التى كانت موجودة فى عصر النبى - صلى الله عليه وسلم (٣) . وأيّا ما كان الأمر ، فإن هذا التوجه فى فهم البدعة يفرق بين البدعة والكفر ، فالبدعة ليست إنكارًا متعمدًا معاديًا لتعاليم الإسلام أو لأصل من أصوله (٤) .

والاتجاهات المتشددة الرافضة للبدع أشد الرفض تنكر أيضًا كل الآراء الجديدة فى مجال العقيدة التى لم تكن معروفة فى صدر الإسلام ، حتى تلك التى قال بها الأشاعرة المعترف بهم بصفة عامة ، بوصفهم أصحاب اتجاه معتدل .

والحنابلة - أتباع الإمام أحمد بن حنبل (ت ٨٥٥م) - يتصدرون أصحاب الاتجاهات المتشددة حيال البدع ، ويهاجمون على نحو خاص كل مظاهر تمجيد أو تقديس الأنبياء والأولياء على اعتبار أنها منافية للإسلام . ولكن الأمة الإسلامية قبلت فى نهاية المطاف مثل هذه المفاهيم الدينية مع بعض التحفظات .

---

(١) انظر مثلاً : W . M . Watt, Der Islam, 11, Stuttgart 1985, S. 128 f., 367

(٢) انظر Lexikon der islamischen Welt, Bd . 1, Stuttgart 1974, S. 104

(٣) جولدتسيهر ، مرجع سابق ص ٢٥٦ وما بعدها .

(٤) انظر . Lexikon der islamischen Welt, Bd. I, 105

وفى القرن الرابع عشر الميلادى نجد الإمام ابن تيمية (ت / ١٣٢٨م) يهاجم بشدة ما تغلغل فى الإسلام من مؤثرات فلسفية ، ويهاجم الصوفية وتقديس الأنبياء والأولياء . وقد انبثقت عن مذهبه فى القرن الثامن عشر الحركة الوهابية التى لا تزال إلى اليوم تمثِّل سلطة قوية النفوذ فى شبه الجزيرة العربية [١] .

(ب) الزندقة

المفهوم الرئيسى الثانى هو الزندقة . وهو مفهوم يقترب من مفهوم الهرطقة المسيحى ، حيث إنه - خلافًا لمفهوم البدعة - لا يمثل شكلاً دينيًا يحظى بالاعتراف . وعلى الرغم من ذلك فليس من الصواب تمامًا أن نعتبر كلمة الزندقة ترجمة مطابقة لمفهوم الهرطقة[٢] . فوصف الزندقة أحيانًا ما يطلق على أصحاب الفكر المتحرر ، كما سيتضح ذلك فيما بعد .

ولقد كان وصف الزنادقة يطلق أيضًا على الخارجين على الدين الذين تمثل تفسيراتهم خطرًا على الدولة [٣] . وهكذا نجد أن مفهوم الزندقة ، مثله مثل مفهوم البدعة ، قد اختلفت معانيه أشد الاختلاف على مر التاريخ . فالتراث الأدبى يذكر لنا ثلاثة - هم : ابن الرَّاوندى (ت : ٨٦٠م) وأبو حيان التوحيدى (ت : ١٠١٠م) والشاعر أبو العلاء المعرِّى (ت : ١٠٥٨م) - يسميهم زنادقة الإسلام الثلاثة . ويرجع هذا التصنيف وما اعتمده من تعريف إلى مؤرخ العصور الإسلامية الأولى ابن الجَوزى (ت : ١٢٠٠) الذى أضاف إلى تعريفه قوله : إن أسوأهم هو التوحيدى ؛ لأنه لا يعبر عن مقصده بوضوح [٤] . ولكن تعريف ابن الجوزى للزنادقة هوجم مرارًا وبخاصة فى العصر الحديث .

---

(١) جولد تسيهر : مرجع سابق ص ٢٦١-٢٦٦ . انظر أيضًا : الموسوعة الإسلامية الميسرة ج١ ص ١٤٦ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٥م .

(2) Anke von Kuegelgen , Averroes u . d . arabische Moderne, Leiden, 1994, S . 463 u. a .

(٣) انظر الموسوعة الإسلامية الميسرة ج١ ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٤) انظر عبد الأمير الأعصم ، ابن الراوندى ، المجلد ١ ، ص ٦٤ ، بيروت ١٩٧٨م .

ويرى بعض الفقهاء أن الزندقة هى التطاول على النبى - عليه الصلاة والسلام - بسبه وتوجيه الإهانات إليه (١) .

وقد اعتُبر المتصوفة المسلمون خاصةً منذ وقت مبكر من الزنادقة لأسباب من بينها على سبيل المثال شطحاتهم التى فهمت على أنها تعبير عن الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود ، ومن بينها أيضًا نزعات الإباحية لدى بعضهم والمناقضة للتعاليم الإسلامية .

وقد جعل حجة الإسلام الغزالى الدهرية والزندقة ، والدهرى والزنديق مترادفين . وفى ذلك يقول فى " المنقذ من الضلال " : " الدهريون هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه بلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون أبدًا . وهؤلاء هم الزنادقة " (٢) .

وربما جاز لنا أن نضيف فى هذا الصدد أن الأمر يبدو كما لو كان النقد الذى وجه إلى الزنادقة يرجع سببه بالأحرى وقبل كل شىء آخر إلى طريقتهم غير الواضحة فى التفكير والتعبير ، أكثر مما كان يرجع إلى مقاصدهم الأصلية ، فلم يوجد بينهم إلا فيما ندر من أنكر الألوهية صراحة .

ولهذا فقد وُصف مفهوم الزندقة - وصفًا ربما لم يكن خاطئًا - بأنه " عباءة فضفاضة " ألبسوها " كل أشكال الفكر المتحرر من جانب هؤلاء الذين لم يسلكوا درب المدرسة السائدة " . ولهذا السبب قال الجنيد - وهو صوفى معتدل - إنه ليس هناك إنسان وصل إلى درجة الحقيقة إلا ورماه ألف صديق بالزندقة (٣) .

(ج) الغُلُوّ

المفهوم الأساسى الثالث فى مجال الاتجاهات المنحرفة هو الغلو ، وأصحابه هم

---

(١) راجع : الموسوعة الإسلامية الميسرة ج١ ص ٤٣٦ وما بعدها .

(٢) المنقذ من الضلال للغزالى ص ٧٦ - دار الأندلس بيروت ١٩٦٧م . وللغزالى كتاب بعنوان : " فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة " - طبع عيسى البابى الحلبى ١٩٦١م .

(٣) جولدتسيهر ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ .

الغلاة . والغلاة أناسٌ يبالغون ، ويتجاوزون كل الحدود وكل المقاييس ، وبخاصة فى تمجيد أو تقديس أشخاص معينين . ويعتبر من الغلاة كل من اعتنق أفكاراً من قبيل الحلول والتناسخ وما إليها ، وهى أفكار تمثل تصورات غريبة أصلاً عن الإسلام (١) .

ويدخل فى عداد الغلاة بصفة خاصة بعض الفرق الشيعية المتشرذمة التى يؤلّه أصحابها أئمتهم ـ سواء قلت درجة هذا التأليه أو كَثُرت ـ ويفسرون القرآن تفسيراً باطنيّا سريّا مفرطًا(٢) .

ويعد أصحاب هذه الدعوات المتطرفة ـ فى نظر الجماعة الرئيسية من الشيعة ـ من الزنادقة .

(د) الـرِّدة

وثمة مصطلح إسلامى آخر يستخدم فى مجال التطرف وهو الرِّدة . ومعناها كما جاء فى المعجم الوسيط " كفر بعد إسلام " . وهى تطلق كذلك على خروج بعض القبائل العربية من حوبة الإسلام بعد وفاة النبى ﷺ(٣) .

وتكون الردة بالكلام ، عندما ينكر الشخص مثلاً أصلاً من أصول العقيدة ، أو بالفعل عندما يقوم الشخص ـ على سبيل المثال ـ بتحقير نسخة من القرآن الكريم .

ثانيًا : تاريخ المذاهب المنحرفة

بعد أن شرحنا بإيجاز شديد مفاهيم الانحراف نريد فيما يلى أن نلقى نظرة سريعة على تاريخها . وسنستخدم فى هذا الصدد ـ على سبيل التبسيط ـ مفهوم " المذاهب المنحرفة " ومفهوم " زندقة " .

يرى المتكلمون أن أى انحراف عن تعاليم القرآن والسنة يعد من قبيل الزندقة التى يجب رفضها . وهم يعتمدون فى هذا الصدد على قول الرسول ـ عليه الصلاة

---

(١) انظر : الموسوعة الإسلامية الميسرة ج٢ ص ٧٢١ ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٥م .

(2) Ende/ Steinbach, Der Islam in der Gegenwart . Muenchen 1984, S. 70

(٣) راجع : الموسوعة الإسلامية الميسرة ج١ ص ٤١٤ ، ج٢ ص ١٠١٢ وما بعدها .

والسلام - فى حجة الوداع : «**لقد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتى**»[1] .

وقد كانت بداية الاشتغال بتفسير هذين المصدرين ، الكتاب والسنة ، تمثل بداية لتاريخ المناقشات الطويلة التى دارت حولهما على مدى تاريخ الفكر الإسلامى ، بل إن اهتمام المسلمين البالغ بهذين المصدرين كان وراء نشأة العديد من العلوم الإسلامية .

ويبين لنا القرآن الكريم أن الإيمان الصادق المصاحب للعلم الراسخ يُعد شرطًا ضروريّا للفهم السليم والتفسير الصحيح لما فى القرآن الكريم والسنة النبوية المرتبطة به بوصفها بيانًا لما فى القرآن ، كما يُعد الإيمان الصادق أيضًا عصمة لصاحبه من الوقوع فى دروب السير وراء الشبهات . يقول القرآن الكريم فى هذا المعنى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] .

ويؤخذ من هذه الآية أن هناك عاملين أساسيين يؤديان إلى التفسير الخاطئ وهما :

العامل الأول : هو تحميل النصوص ما لا تحتمله انطلاقًا من أهواء أو نزعات خاصة أو استجابة لرغبات أصحاب النفوذ والسلطان .

العامل الثانى : ينشأ عن التنظير المتحزب لجانب واحد دعمًا لمذهبية معينة بطريقة تغفل الممارسة الدينية وتؤدى إلى التفسيرات الباطنية السرية المغرقة فى المغالاة والتطرف .

وعلى أى حال فإن التفسير الذى يسمى تفسيرًا حرفيّا لا يكفى ولا يفى

(١) [صحيح] الحاكم (١/ ٩٣) .

بالغرض ؛ لأن الآيات المتشابهات التى تحتمل أكثر من معنى ، والتى يتحدث عنها القرآن الكريم لا يمكن بداهةً نتيجة لهذا أن تفهم فهمًا حرفيًّا .

ومن الملاحظ أن الزنادقة الحقيقيين لم يكونوا يعاقبون دائمًا . وكثيرًا ما كانت هناك وراء ملاحقة مَن يُسمون بأصحاب الفكر المتحرر والمصلحين والفلاسفة والمتصوفة على مسار التاريخ الإسلامى أسباب سياسية خالصة أو وشايات لا أساس لها .

والتحقيق فى كل حالة على حدة من حالات الاتهام بالزندقة ليس أمرًا سهلاً ، فكثيرًا ما تعوزنا المعطيات الأولية . فنحن لا نجد - على سبيل المثال - فى كثير من الأحيان مؤلفات المعنيين أنفسهم أو الموصومين بالزندقة إلا فى حالات نادرة . ولا يبقى أمامنا من سبيل إلا أن نستنتج مضمون هذه الكتب من خلال بعض الاستشهادات الواردة فى كتب مؤلفين آخرين . يضاف إلى ذلك أن بعض الناس قد اعتادوا أن يصفوا كل من لا يرون رأيهم بأنهم من الزنادقة .

ولهذه الأسباب لا ندهش إذا حدث أحيانًا أن اتهم شخص فى حياته بالزندقة ، ثم امتُدح بعد عشرات أو مئات السنين من وفاته بوصفه عالمًا جليلاً جديرًا بالإعجاب مثلما حدث ذلك - على سبيل المثال - بالنسبة للشيخ محمد عبده .

ثالثًا : الموقف الإسلامى من الزنادقة

أما الموقف الإسلامى بصفة عامة حيال من يُرْمون بالزندقة وبالتالى يُلاحقون على أساس هذه التهمة ، فيمكن القول - كما يذهب إلى ذلك أيضًا كثير من الباحثين - بأن المذاهب المنحرفة فى الغالب لم تُلاحق ولم تُقهر بالقوة إلا عندما كانت السلطة الحاكمة تجد أن هذه المذاهب قد أصبحت تشكل تهديدًا للنظام السياسى القائم(١) .

فقد كان من يُرْمَون بالزندقة يتعرضون للملاحقة عندما يحاولون إحداث انقلاب سياسى أو على الأقل يقومون بدعمه . ومثال ذلك حالة الحلاج المتصوف الشهير الذى وقف بجانب المتآمرين على الخليفة المقتدر ، ولهذا أدين عام ٩١٣م بتهمة

---

(١) انظر مثلاً : Cambridge History of Islam, Bd. 2, S . XXI

الزندقة ، وتم سجنه ، ثم أعدم عام ٩٢٢م أى : بعد حوالى عقد من الزمان من إدانته[١] .

وبصفة عامة فقد كان كل نقد يوجه قولاً أو كتابةً إلى الشريعة المنَزَّلة يدان بطبيعة الحال باعتباره زندقة . وفى العصر العباسى ، بين القرنين الثامن والثالث عشر الميلاديين - اعتبرت الزندقة جريمة يعاقب مرتكبها بالقتل . وبُررت تلك العقوبة بأن مثل هذا النقد يعرض الدولة لخطر ينال من قواعدها[٢] .

ويذهب بعض الباحثين مثل وات Watt إلى القول بأن اتهام شخص ما بالكفر لم يكن يؤدى إلى إجراءات تتخذها السلطة المدنية حياله . أما إذا ثبتت تهمة الزندقة على شخص ما باقترافه أمراً يمس العقيدة ويهدد أمن الدولة فقد كانت السلطة المدنية تتخذ إجراءاتها فى هذا الصدد[٣] .

وقد عرف التاريخ الإسلامى عصوراً كانت تعتبر فيها كل من الفلسفة والتصوف من قبيل الزندقة . ولذلك هوجمت - على سبيل المثال - الآراء الفلسفية القائلة بقدم العالم ، وبأن الله - سبحانه وتعالى - لا يعلم إلا الكليات ، وبأن البعث لا يكون بالجسد بل بالروح فقط . وقد رمى بالزندقة أيضًا من اشتغل بالمنطق ، وفى هذا الصدد راجت مقولة : " من تمنطق فقد تزندق " .

وهكذا اتهم المتكلمون الفيلسوف الشهير ابن رشد (ت : ١١٩٨م) بأنه تزندق فيما قال به من آراء فى كتبه . وأدين عام ١١٩٥م لهذا السبب ، ونفى من وطنه ، وبعد ثلاث سنوات عفا عنه الخليفة ورد إليه اعتباره[٤] . أما اليوم فإن هذا الفيلسوف نفسه يُعد فى الشرق وفى الغرب ، واحداً من عظماء رواد التنوير . وعلى الرغم من ذلك لا تزال الفلسفة تُعتبر فى بعض الدول الإسلامية زندقة .

---

(١) المرجع السابق ج١ ص ١٣٦ .

(٢) انظر : Watt مرجع سابق ص ١٧٤ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٥ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، ط٢ ، القاهرة ١٩٦٩م ، المجلد الأول ، ص ٢٨٦ .

ونحن نجد فى مؤلفات ابن رشد عبارات تدين الزندقة إدانة قاطعة . فالرأى عنده أنه يجب قتل الزنادقة ـ الذين يعتبرون المتع الحسية الهدف الوحيد للإنسان ـ إذا كانت لديهم القدرة على هدم الشرائع الدينية والفضائل . أما إذا لم تكن لهم هذه القدرة على هدم الشرائع فيجب دحض آرائهم بالاستعانة بالبراهين الشرعية والحجج العقلية الفلسفية أيضاً(١) .

وكان ابن رشد ـ كما تبين أحدث دراسة علمية عنه فى ألمانيا عام ١٩٩٤م ـ يرى أن مبادئ الدين تربى الناس على الفضائل وأن عليهم جميعًا بصفة عامة وعلى الفلاسفة بصفة خاصة الاعتراف بها وعدم الجدال فيها ، وإلا حق عليهم إثم الزندقة(٢) .

ومن الضرورى إجراء دراسات تاريخية نقدية تتناول كل حالة على حدة ، لمعرفة إلى أى مدى كانت ملاحقة من وصفوا بالزنادقة صادرة عن أسباب سياسية خالصة أو غيرها ، ومتى كانت الأسباب الدينية هى الحاسمة . ولم يكن الحكام المسلمون جميعًا يتسمون بطبيعة الحال بما اتسم به الخلفاء الراشدون من عظمة أخلاقية . ولهذا واجه المجتمع الإسلامى على مدى تاريخه المرة تلو المرة أزمات خانقة كان عليه أن يتغلب عليها .

وأيّاما كان الأمر فقد مثّل الإجماع بالنسبة إلى المسلمين باستمرار المبدأ المتبع مما أدى على المدى الطويل إلى أن الآراء المتطرفة لم تستطع أن تفرض نفسها على نطاق عام .

ولما كان الإسلام منذ البداية قد أكد المعنى الحاسم لنظام اجتماعى عادل يستطيع أن يوفر لكل فرد فى المجتمع إلى أبعد حد ممكن الفرصة لنمو رشيد ، فقد اتخذت المشكلات السياسية منذ البداية مكان الصدارة . فبعد وفاة النبى ﷺ دعت ضرورة الحفاظ على وحدة الجماعة الإسلامية إلى اتخاذ إجراءات صارمة ضد قبائل عربية

---

(١) مرجع سابق : Anke von Kuegelgen , S . 49

(٢) مرجع سابق : Anke von Kuegelgen, S . 335

متمردة خرجت على حوبة الإسلام . وكان من بينها مجموعة رفضت دفع الزكاة، وأخرى سارت وراء أدعياء النبوة . وقد عرفت هذه الظواهر باسم الرِّدة .

وهناك ظاهرة أخرى تعود إلى الاختلاف فى الرأى السياسى فى المقام الأول ، وهى ظاهرة تكَوُّن الفرق منذ ظهور الإسلام . ومن الملاحظ أن الفرق الرئيسية التى نشأت على مر التاريخ الإسلامى لم تُتّهم أى منها بالزندقة ، اللهم إلا المجموعات الصغيرة التى تشرذمت عنها وانشقت على إجماع الأمة الذى يرفض التطرف . وترجع نشأة واحدة من أكبر الفرق الإسلامية ـ وهى الشيعة ـ إلى صراعات سياسية على السلطة وخلافات سياسية فى الرأى حول من هو الأحق بتولى الخلافة بعد وفاة النبى –عليه الصلاة والسلام .

كذلك نلاحظ أن أقدم فرقة إسلامية ، وهى الخوارج ، التى نشأت فى القرن السابع الميلادى ، وفى عام ٦٥٧م على وجه التحديد ، كان السبب وراء خروجها فى الأصل قضية سياسية وهى مسألة الخلافة أيضًا ، ومن الأحق بها . وقد تشرذمت فرقة الخوارج ، مثل فرقة الشيعة ، إلى مجموعات منشقة مختلفة ، تدخُل بعض أفكارها المتطرفة فى عداد الزندقة .

وأشد خصوم الخوارج تطرفًا هم أتباع فرقة المُرجئة الذين ذهبوا إلى أن المسلم لا يمكن أن يفقد إيمانه نتيجة ارتكاب ذنب من الذنوب الكبائر على عكس ما ذهبت إليه بعض الآراء المتطرفة للخوارج من أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار . وقد ذهبت المرجئة إلى القول بأنه لا يضر مع الإيمان معصية ، وهم يؤمنون بمذهب الإرجاء أو الأمل ، وقد انشقت هذه الفرقة إلى مجموعات مستقلة . وقد قيل إن أبا حنيفة ـ وهو فقيه ومتكلم واسع الشهرة ـ أخذ بآراء المرجئة ، وإن صح هذا فإنه يؤكد ما قيل من أن المرجئة لم يكونوا متطرفين تطرفًا شديدًا فى آرائهم[1] .

والحق أن الأمة الإسلامية إذا اتبعت تعاليم الإسلام والتزمت بصراط الله المستقيم فإنها تنأى بنفسها عن كل الاتجاهات المتطرفة . وفى هذا المعنى يقول القرآن

---

(١) الموسوعة الإسلامية الميسرة ج١ ص ١٠١٥ وما بعدها .

الكريم : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وإنما لُعن الزنادقة بالدرجة الأولى ؛ لأنهم اعتُبروا من المتطرفين ومنكرى الألوهية أو اتهموا بالميل إلى إنكار الألوهية . أما أصحاب الفكر العقلانى المتطرف فى تحرره والذين يستبعدون صلاحية الآيات الدينية المنزلة كلها أو بعضها فنادراً ما نجدهم فى التاريخ الإسلامى .

ويقال : إن الطبيب والفيلسوف المشهور أبا بكر الرازى الذى لقب بجالينوس العرب (ت : ٩٢٥ أو ٩٣٢م) يدخل فى عداد الزنادقة . ويقال : إنه ذهب إلى أن الإنسان يستطيع بعقله أن يعرف العالم وأن يشكله ، بل إنه يستطيع أن يعرف به الخالق، فيكون ذلك أصل سعادته . ويقولون : إنه ربط بهذه الأفكار نقداً للنبوة ، وهى أساس من أسس الإسلام . كذلك يقال : إنه تشدد فى الاعتماد على العقل بشكل مفرط ، وربط بتشدده هذا نقد القرآن ونفى النبوة ، وإنه كان من أتباع مذهب تناسخ الأرواح، وإنه تأثر تأثراً كبيراً بتعاليم المانوية .

كذلك قيل عن ابن الراوندى : إنه نقد القرآن الكريم وقيل عنه : إنه متناقض وإنه يحتوى على أخطاء لغوية ، كما قيل عنه أيضًا إنه شكك فى النبوة . ويذكر بعض العلماء أنه ساق هذا الشك وغيره من الشكوك فى كتبه على لسان البراهمة . ويقال : إنه كتب ما معناه " إن ما يأتى به نبى من الأنبياء إما أن يكون معقولاً وإما ألا يكون كذلك، فإن كان معقولاً فلا حاجة بنا إليه ؛ لأن العقل يمكننا من إدراك الكمال . وإن لم يكن معقولاً فلابد من رفضه ؛ لأنه غير معقول، ولأننا نضيع به إنسانيتنا ونهبط إلى درجة البهائم " .

ولقد ضاعت كتبه ، ولكن المؤرخين متفقون فيما يعرضونه من آرائه . كذلك تؤكد الاستشهادات المأخوذة من كتبه ـ والتى أوردها بعض العلماء لدحض آرائه ـ مثل هذه المفاهيم . والمهم فى هذا الصدد على أي حال أن الرازى وابن الراوندى لم يعاقبا بتهمة الزندقة على هذه الآراء على الرغم من أنها تعرضت لنقد شديد ، ورفضت رفضًا قاطعًا .

ولعل هذا التسامح معهما يرجع إلى سببين : أولهما أن الثقافة الإسلامية كانت فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين فى أوج ازدهارها ، وثانيهما أن هذين العالِمَيْن لم يكن لهما شأن بالسياسة، ولهذا لم يكونا يمثلان خطرًا سياسيًا .

أما الأديبان المشهوران الآخران اللذان رميا بالزندقة أيضًا وهما : التوحيدى وأبو العلاء المعرى ، فإنهما لم يصطدما مثل زميليهما بنفس القدر من المعارضة من جانب العلماء المسلمين . ويلاحظ محقق أحد كتب التوحيدى أن كل كتب التوحيدى التى بين أيدينا ليس فيها تعبير يوحى بالزندقة، وأنها لا تضعف الإيمان بحال من الأحوال . أما رأى ابن الجوزى القائل بأن التوحيدى أسوأ زنادقة الإسلام فادعاء لا سبيل إلى تبريره، فهل شق عن قلبه ليحكم عليه؟ إن المطلع على ما فى القلوب هو الله وحده .

وقد اختلفت الآراء بشأن المعرى ، فقال بعض العلماء إنه كان متدينًا ، وإن آثاره الأدبية مليئة بالشواهد على ذلك ، وإن المواضع المتزندقة مدسوسة عليه ، دسها أعداؤه ؛ لأنه كان قذى فى أعين المتظاهرين بالتقوى والمرائين والمنافقين وأصحاب المدارس وزعماء الفرق الذين كان شديد النقد لهم وشديد الهجوم عليهم .

ويذكر المدافعون عنه أن خصومه فى أثناء حياته سعوا بالوشاية به عند والى حلب، فاستدعاه الوالى وفحص الوشاية وتبين أن أعداءه دسوا فى آثاره الأدبية كلاماً لم يقله . ومن خصومه من اتهمه بأنه من الشكاك على مذهب اللاأدرية ، ومنهم من رماه بالزندقة . ولكن الأسباب التى ساقوها غامضة .

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن آخر التطورات الحديثة فى مسألة ملاحقة الزنادقة نود أن نتناول بشىء من التفصيل ما لحق أيضًا بالمتصوفة المسلمين من اضطهاد واتهام بالزندقة، فقد تلقى المجتمع الإسلامى التصوف الإسلامى منذ البداية بشىء من الحرج أو التحفظ .

وقد رفضه المتكلمون واعتبروه بدعة لا مبرر لها . وقالوا : إن بعض الممارسات والثياب التى جاء بها المتصوفة لم تدع إليها السنة . يضاف إلى ذلك أن المتصوفة المتأخرين ذهبوا مذاهب فلسفية يرفضها الإسلام، مثل مذهب وحدة الوجود عند

ابن عــربى (ت : ١٢٤٠م) ، ومــذهب الحلول عند الحــلاج ومــذهب الفناء عند البسطامى .

ولكن حجة الإسلام الغزالى ، علامة القرن الخامس الهجرى ومطلع القرن السادس (الحادى عشر الميلادى ومطلع القرن الثانى عشر) ، الذى كان هو نفسه متصوفًا ، دافع عن التصوف الإسلامى ، ونجح بفضل جهوده الجديرة بالإعجاب فى هذا الدفاع من تثبيت أقدام التصوف فى المجتمع الإسلامى فى نهاية الأمر . وبرر أقوال بعض رجال التصوف المشهورين التى اعتبرت من قبيل الزندقة بأن حالات الانجذاب أو السكر الصوفى كانت تغريهم بأقوال ذاتية قاصرة . ولكنهم عندما كانوا يعودون مرة أخرى إلى سلطان العقل يعرفون حينئذ خطأهم ، وفى ذلك يقول :

" **فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذى هو ميزان الله فى أرضه عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد ، بل شبه الاتحاد** " [١] .

وهكذا فإن الغزالى فى الوقت الذى يرفض فيه رفضًا قاطعًا نظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود فإنه يلتمس للصوفية عذراً فى ترديدهم بعض العبارات التى قد توحى بالقول بهذه النظريات .

وما تزال طوائف الصوفية منتشرة حتى اليوم فى البلاد الإسلامية ، ولا يعترض عليها المجتمع الإسلامى بصفة عامة . وعلى الرغم من ذلك لا تزال بعض البلاد الإسلامية تتشبث برفض التصوف باعتباره شكلاً من أشكال الزندقة .

رابعًا : تطورات حديثة

لقد شهد العصر الحديث تطورات مختلفة فى العالم الإسلامى فيما يتصل بقضية الزندقة . فقد أدت المشكلات العديدة فى البلاد الإسلامية وبخاصة الاقتصادية والسياسية منها إلى ظهور محاولات إصلاحية ، وقد تعرضت هذه المحاولات فى كثير من الأحيان لنقد شديد ، بل ورميت بالزندقة ، وكان للاستعمار دور كبير فى

(١) مشكاة الأنوار للغزالى ص ٥٧ ـ القاهرة ١٩٦٤م .

هذا الصدد . وعندما دعا كل من خير الدين التونسى (١٨١٠ـ١٨٨٩) ورفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ـ١٨٧٣) إلى الإصلاح وبينا أن الإسلام دين يدعو إلى الإصلاح والتجديد اصطدما بألوان من المقاومة الشديدة[١] .

أما المصلح الدينى الكبير الإمام محمد عبده (١٨٤٩ـ١٩٠٥) فقد انطلقت جهوده من الرغبة فى تحقيق صحوة دينية عامة ، وكان الرأى عنده أن هذه الصحوة ستقوى العالم الإسلامى، وتمكنه بالتالى من أن يحل مشكلاته بنفسه . وكان يرفض الأخذ بالآراء الغربية دون تحفظ ، ويرفض فى الوقت نفسه التشبث الأعمى بالتقاليد البالية الموروثة ، ويسعى إلى تحرير الدين من كل ما علق به من خرافات وأوهام على مدى القرون الماضية .

كما دعا الشيخ محمد عبده أيضًا إلى إصلاح التعليم الدينى ونبذ التقليد ، وأثبت أن الدين لا يتعارض مع العلم بأى حال من الأحوال . وكان هجومه موجهًا إلى الفقهاء فى المقام الأول ، ولكنه هاجم أيضًا انفلات العصريين . وكان عليه نتيجة لجهوده تلك أن يتصدى للكثير من الصعاب وأن يتغلب على الكثير من العقبات، وقد هاجمه معاصروه هجومًا شديدًا ورموه بالزندقة فيما ذهب إليه من آراء .

وفى مناطق أخرى من العالم الإسلامى ظهرت بعض الفرق المتزندقة مثل البابية فى إيران والقاديانية فى باكستان ، ولا تزال هذه الفرقة الأخيرة تمارس نشاطها حتى الآن .

وقد ادعى مؤسس البابية محمد على الشيرازى ـ الذى ولد فى إيران عام ١٨٢٠ ـ أن رسالة النبى ﷺ انتهت فى عام ١٨٤٤ وأن عصر نبوته هو قد بدأ فى العام نفسه ، وألغى بعض أحكام القرآن الكريم المتصلة بالصلاة والصوم والزواج والطلاق والمواريث . ولعب الرقم ١٩ فى مذهبه دوراً كبيراً . وفى عام ١٨٥٠ حوكم وأدين وتم إعدامه . وقد انبثقت عن حركته فرقة البهائية التى اعتبرت الشيرازى أو الباب

---

(١) Ende/Steinbach, Der Islam in der Gegenwart. 1984, S . 106 إنده ـ شتاينباخ : الإسلام فى العصر الحاضر) .

ـ كما كان يسمى نفسه ـ مجرد سلف لبهاء الدين مؤسس فرقة البهائية التى لها أتباع ومعابد فى عدد من البلاد الأوروبية .

أما مؤسس القاديانية ميرزا غلام أحمد ـ الذى ولد فى الهند عام ١٨٣٩ ـ فقد ادعى أن المسيح عيسى بن مريم هاجر إلى كشمير ومات ودفن فيها ، وأن قبره لا يزال هناك . وزعم ميرزا غلام أحمد أنه هو المهدى المنتظر أو المسيح ، وأن المسيح ومحمد يتجسدان فيه . ومن هذه الفرقة انبثقت فرقة الأحمدية التى تعتبر ميرزا غلام أحمد نبيّا ، وتمارس هذه الفرقة نشاطًا ملحوظًا فى عدد من البلاد الغربية .

والاتجاهات المتزندقة فى هذه الفرق واضحة تمام الوضوح ولا تحتاج إلى إثبات . فمؤسسوها لم يخفوا ميولهم وأهدافهم التى تتمثل فى أنهم " أنبياء جدد " قاموا بالتغيير والتبديل فى تعاليم الدين ، الأمر الذى جعلهم خارجين تمامًا عن إطار الإسلام . وهذا ما جعل پاكستان ـ على سبيل المثال ـ تتعامل مع القاديانية على أنها أقلية غير إسلامية .

عقوبة المرتد

على الرغم من مرور أربعة عشر قرنًا من الزمان على ظهور الإسلام ، وعلى الرغم من أن ظاهرة الارتداد بدأت فى عهد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ فلا يزال علماء الدين يتناقشون حتى اليوم حول عقوبة المرتد : هل هى عقوبة دنيوية أم أخروية ؟ وهل استتابة المرتد تقتصر على بضعة أيام أم تمتد طوال حياة المرتد ؟ وهل عقوبة القتل للمرتد بسبب ارتداده أم بسبب ما يثيره من فتنة وبلبلة فى المجتمع ؟ إلى آخر هذه المناقشات التى تظهر مدى الخلاف بين العلماء حول هذا الموضوع [١] .

وفى إطار عرضنا الموجز لما يدور على الساحة الإسلامية من ظواهر دينية نود أن نشير ـ بإيجاز أيضًا ـ إلى بعض ما يعتمد عليه العلماء فى تأييد هذا الرأى أو ذاك استنادًا إلى مصادر الإسلام الأساسية .

---

(١) لا يزال عدد من الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الدينية تنشر حتى اليوم هذه المناقشات (أغسطس / سبتمبر ٢٠٠٢م)، كما تفرض هذه القضية نفسها بين حين وآخر على مجمع البحوث الإسلامية .

فمن الواضح أن القرآن الكريم لا ينص على أى عقوبات توقع فى الحياة الدنيا على المرتد، وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...** ﴾ [المائدة : ٥٤] . وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لم يقرر عقوبة فى الدنيا توقع على المرتد - كما يفهم من الآية السابقة - فإن الرأى السائد لدى الفقهاء هو الأخذ برأى يوجب عقاب المرتد بالقتل ، وهذه العقوبة موجودة فى أيامنا هذه على المستوى النظرى فقط ، فلم يعد مثل هذا الحكم ينفذ فى الواقع . ويستند العلماء القائلون بالقتل للمرتد إلى بعض الأحاديث النبوية التى تقضى بعقوبة القتل فى الدنيا للمرتد وذلك مثل : "**من بدَّل دينه فاقتلوه** "[(١)] .

وهناك دراسة حديثة فى هذا الصدد قام بها أحد علماء الأزهر منذ أكثر من نصف قرن عنوانها : " الحرية الدينية فى الإسلام " للشيخ / عبد المتعال الصعيدى[(٢)] . وقد درس فى هذا الكتاب الأحاديث النبوية المتصلة بهذا الموضوع دراسة دقيقة ، وبين أن كل هذه الأحاديث بلا استثناء تتناول أولئك المرتدين الذين حاربوا المسلمين . ومن هنا - كما يرى - فإن عقوبة القتل التى عوقبوا بها كان السبب فيها أنهم حاربوا المسلمين وانضموا لأعدائهم، ولم يكن السبب فيها أنهم ارتدوا عن الإسلام . وأوضح الشيخ / عبد المتعال الصعيدى أن عقوبة الردة طبقًا للقرآن الكريم تقع فى الآخرة ، لا فى الدنيا . وأكد بهذا ما نص عليه القرآن الكريم من حرية العقيدة - الحرية الدينية - للبشر كافة دون تقييد أو تحديد .

والأمر الجدير بالذكر هنا أن كتاب الشيخ / الصعيدى لم يحظر تداوله حين نشر، ولم يرم مؤلفه بالزندقة ، على الرغم من أنه هاجم الرأى السائد حول هذا

---

(١) رواه الإمام البخارى - كتاب الجهاد ، حديث ٣٠١٧ .
(٢) أعادت دار المعارف فى السنوات الأخيرة نشر هذا الكتاب .

الموضوع . ولكن فقيهًا آخر هو الشيخ / عيسى منون قام بمناقشة آراء الشيخ الصعيدى وتفنيدها فى عدة مقالات نشرت بإحدى المجلات الإسلامية . وفى الطبعة الثانية من كتابه[1] نشر الشيخ عبد المتعال الصعيدى ضمن كتابه مقالات الشيخ منون، ورد عليها بحجج مضادة .

خاتمة

لا شك فى أن هذه المناقشات العلمية التى دارت بين العلماء فى جو من الحرية الفكرية دون إرهاب لفكر أو مصادرة لرأى ترينا مدى السماحة التى يمتاز بها الإسلام . فالإسلام دين قوى بمبادئه وتعاليمه ، ولا يخشى عليه من أى تيارات أو آراء مخالفة مهما كانت قوتها الدعائية وحجم الداعمين لها .

ويخطئ المسلمون حين يعيرون مثل هذه الآراء المخالفة اهتمامًا كبيرًا ، وبخاصة فى العصر الحاضر ؛ إذ إن ذلك من شأنه أن يأتى بنتائج عكسية ، وذلك بالترويج لهذه الآراء ونشرها على نطاق واسع . ولنا فى قضية سلمان رشدى خير عبرة . فلو كان المسلمون قد تجاهلوا الرجل وتجاهلوا كتابه الذى تضمن طعنًا فى مقدسات المسلمين لما كان هناك أحد فى بقية أنحاء العالم قد عرف شيئًا عنه وعن كتابه .

ولكن ثورة المسلمين العارمة والمظاهرات الصاخبة فى عدد من البلاد الإسلامية وإهدار دم هذا الكاتب الذى كان مغمورًا صنع له دعاية كبرى فى جميع أنحاء العالم على نحو غير مسبوق ، دعاية لم يحظ بها أى من الذين حصلوا على جائزة نوبل ، كما أن روايته قد ترجمت إلى معظم لغات الأرض ، واستقبله رؤساء الدول فى الغرب واحتفوا به احتفاءً فائقًا، ولم يكسب المسلمون شيئًا .

وإذا كنا ندعو إلى تجاهل الغثاء الذى نسمعه ونقرؤه من جانب خصوم الإسلام فإن ذلك لا يعنى ألا نقوم بالرد العلمى الموضوعى فى دراسات جادة تخاطب العقل وتنأى بنفسها عن ثورة العواطف الملتهبة التى لا تجدى فتيلاً فى مثل هذه الأحوال . فالنوايا الحسنة وحدها لا تكفى ، بل قد تودى بصاحبها أو من تريد إنقاذه إلى

(١) الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، الحرية الدينية فى الإسلام ، دار الفكر العربى، ط٢ ، ب ت .

الهلاك مثل الدبة التى قتلت صاحبها بحجر كبير ألقته على وجهه؛ لتطرد ذبابة كانت تزعجه فى نومه .

إن التسامح الإسلامى لا يعنى التهاون بأى حال من الأحوال ، ولكنه يحتاج إلى عقل رشيد وفكر حصيف يزن الأمور بميزان دقيق، ويأخذ فى الاعتبار العواقب التى قد تترتب على أى تصرف من التصرفات عند الإقدام على أى خطوة يكون لها تأثيرها المباشر أو غير المباشر على الإسلام سلبًا أو إيجابًا .

ولنا فى تراثنا الإسلامى فى التسامح ما يعد نموذجًا يحتذى .

وفى هذا الصدد نشير هنا إلى ما ذكره الشيخ محمد عبده فى كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) حيث أشار إلى " **ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم ، وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد ، حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر** " ويضيف قائلاً : فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا[١] .

وقد نسب مثل ذلك إلى الإمام مالك - مؤسس المذهب المالكى ، وهو أحد المذاهب الفقهية الإسلامية الأربعة الكبرى - فى قوله : "**من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهًا ، ويحتمل الإيمان من وجه حمل أمره على الإيمان**"[٢]

ويدل هذا الرأى - الذى قال به إمام كبير يُعد من أشد المحافظين - على مدى التسامح الذى كان الناس فى عصور الإسلام المبكرة يأخذون به أنفسهم حيال من يفكرون على نحو مختلف . ولم يكونوا بهذا التسامح يخرجون على تعاليم القرآن الكريم ، بل كانوا يلتزمون بها كل الالتزام .

***

(١) الشيخ محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية . ص٥٣ - دار المنار بمصر ١٣٧٣هـ .

(٢) فقه السنة للشيخ سيد سابق ، ج٢ ، ص ٤٥٣ - دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٧م .

الفصل الثالث عشر

مفهوم العدل فى التصور الإسلامى

١ ـ تمهيد

٢ ـ الأمل والعدل

٣ ـ العدل والرحمة

٤ ـ للعدل جانبان

٥ ـ العدل لا يتجزأ

٦ ـ العدل ومسئولية الإنسان

٧ ـ العدل والحرية

٨ ـ العدل والحق

٩ ـ العدل بداية جديدة

١٠ـ مفهوم العدل لدى المتكلمين

مفهوم العدل فى التصور الإسلامى [1]

١ ـ تمهيد

مفهوم العدل فى التصور الإسلامى يمكن أن يبحث من جوانب مختلفة ، أو منطلقات متعددة . فهناك مثلاً منطلق علم الكلام الإسلامى وما قاله علماء الكلام فى قضية العدل ، وبصفة خاصة لدى المعتزلة الذين اشتهروا بأنهم أصحاب التوحيد والعدل ، ويمكن أن يبحث أيضًا من منطلق الفكر الفلسفى الإسلامى الذى جعل العدل أحد أمهات الفضائل ، بل جعله على رأس الفضائل ، ويمكن أن يبحث كذلك من منطلق التاريخ الإسلامى لبيان مدى تطبيق قيمة العدل فى تاريخ المسلمين . ولكن قبل كل ذلك وبعده يأتى بحث مفهوم العدل فى التصور الإسلامى من منطلق المصادر الأساسية للدين الإسلامى ، ونعنى بذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

وقد آثرنا أن يكون هذا هو منطلقنا بالدرجة الأولى للبحث فى موضوع العدل لاعتبارات أهمها أن الفكر الإسلامى فى جوانبه المتعددة قد اغترف من هذين المنبعين بصورة أو بأخرى ، ومن هنا فإنه لا يمكن فهم الجوانب الأخرى إلا بفهم الأساس الذى بنيت عليه . فقد احتفظت هذه الجوانب المتعددة للفكر الإسلامى بوصف " الإسلامى " تعبيراً عن أنها لم تخرج عن الإطار العام للإسلام . ولكن منطلقنا هذا لن يحول بيننا وبين رؤية بعض زوايا الجوانب الأخرى .

---

(١) قدم هذا البحث فى الأصل باللغة الألمانية إلى الندوة العلمية التى عقدت بجامعة مونستر بألمانيا عام ١٩٩٢م، وكان موضوعها : العدل والسلام فى التصور الإسلامى المسيحى . وقد أعدنا النظر فيه، وقدمناه إلى المؤتمر المسيحى الإسلامى الأول الذى نظمه مركز الأبحاث فى الحوار المسيحى الإسلامى (حريصا ـ لبنان) . حول موضوع (العدل فى المسيحية والإسلام) ١٧ـ١٩ نوفمبر ١٩٩٥م .

وفى البداية نشير بصفة عامة إلى أنه من المعروف أن العدل يعد لدى كل الشعوب والحضارات قيمة من القيم الكبرى التى ينبغى على الإنسان أن يسعى إلى تحقيقها فى هذا العالم من أجل خير الإنسان وسعادته . والإنسان فى أصل فطرته الصافية يميل إلى العدل وينفر من الظلم، ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن العدل يُعد ضرورة حياتية لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة حقيقية بدونه .

والإسلام عندما يدعو إلى العدل فإنه بذلك يدعو فى الوقت نفسه إلى حرية الإنسان وكرامته وتأكيد حقوقه الإنسانية العامة . فالكفاح من أجل رفع الظلم عن المظلومين وإقرار العدل ـ وبالتالى إقرار الكرامة الإنسانية ـ يُعد واجبًا إنسانيًا وواجبًا دينيًا فى الوقت نفسه، كما يؤخذ ذلك من الآية القرآنية :

﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** ﴾ [النساء : ٧٥] . ولذلك جاء الأمر بالعدل ومقاومة الظلم فى القرآن الكريم صريحًا لا يحتمل التأويل :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ** ﴾ [النحل : ٩٠] . كما جاء أيضًا فى الحديث القدسى المشهور : «**إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**»[١] .

٢ ـ الأمل والعدل

وهذا الأمر الدينى يعزز الجانب الإنسانى الذى يرتكز على الطبيعة الإنسانية النقية التى تميل إلى العدل وتنفر من الظلم . وتضافر الجانب الدينى مع الجانب العقلى يقوى عزم الإنسان وتصميمه على سلوك سبيل العدل ومقاومة الظلم فى شتى صوره وأشكاله ، وتمسكه بالأمل فى تحقيق العدل وعدم الركون إلى اليأس . فالأمل يعد المحرك الحاسم للتطور البشرى، ويرتبط ذلك ارتباطًا وثيقًا بتطلع الإنسان إلى حياة حرة كريمة تليق بالإنسان من حيث هو إنسان .

إن الإنسان إذن مسئول مسئولية دينية وأخلاقية عن إقامة العدل الذى هو أساس العمران فى هذه الدنيا . وهذا يعنى ضرورة التغلب على نوازع الأنانية، وتغليب

---

(١) رواه مسلم .

جانب العقل . وهذا بدوره يعنى بقاء الأمل فى تحقيق العدل حيّا فى النفوس . وهذا الأمل يشكل دافعًا قويًا على التصميم على السعى نحو تحقيق العدل ، الأمر الذى يمكن أن يؤدى فى نهاية الأمر إلى أن يصبح العدل فى حياتنا حقيقة واقعة ، وأن يوجه سلوكنا ويحدد تصرفاتنا . ومن هنا يُعد الكفاح من أجل إقامة العدل كفاحًا ضد كل شكل من أشكال الأنانية ، وفى الوقت نفسه يُعد كفاحًا من أجل سيادة العقل، وبالتالى يُعد عملية أخلاقية وليس كفاحًا من أجل القوة.

إن الحياة بدون العدل وبدون الأمل فى تحقيقه تعد جحيمًا لا يطاق . ومن هنا يمكن أن يطلق على المكان الذى لم يعد فيه وجود للأمل اسم الجحيم الدنيوى ، أى : ذلك الكهف المظلم الذى لم يعد يشرق فيه نور العقل الإنسانى . وفى المقابل يمكن أن يطلق اسم الفردوس الدنيوى على المكان الذى يتحقق فيه الأمل، ويسود فيه العدل والإنصاف .

٣ـ العدل والرحمة

وطبقّا لتعاليم القرآن الكريم يتجلى العدل فى الرحمة الإلهية التى تعم العالم كله بما فيه ومن فيه، كما جاء فى القرآن :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦]، تلك الرحمة التى لا تفرق بين الناس الذين هم جميعًا خلق الله يحكم بينهم بالعدل ويشملهم برحمته . وكل إنسان مطالب بالسعى إلى إقامة العدل، والأمل فى تحققه من منطلق الرحمة الإلهية :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ... ﴾ [الزمر : ٥٣ ـ ٥٤].

والإيمان بالعدل والتصميم عليه والأمل فى تحققه يحرر الإنسان من كل القيود التى تقف عقبة فى سبيل توجهه نحو السلوك العادل . وفى هذا التحرر تكمن الكرامة الفريدة للإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض، والذى ينبغى عليه أن يحرم الظلم على نفسه كما حرمه الله على نفسه ، وإذا لم يفعل ذلك فإنه يكون قد

خان مسئولية خلافته فى الأرض ، تلك الخلافة التى أكدها القرآن فى مناسبة خلق الإنسان فى قوله تعالى :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

٤ـ للعدل جانبان

وعند التأمل فى مفهوم العدل يتضح لنا أن للعدل جانبين لا يجوز أن ينفصل أحدهما عن الآخر . فالإنسان من حيث طبيعته ، أى من حيث هو كائن عاقل فى حاجة إلى العدل يطلبه ويسعى إليه ، ولكنْ هناك وجه آخر للعدل يسير جنبًا إلى جنب مع حاجة الإنسان له وطلبه إياه ، ونعنى بذلك أن العدل نفسه يحتاج إلى الإنسان بوصفه كائنًا عاقلاً حرّاً من أجل تحقيقه والعمل على إقراره .

إن الإنسان بدون العدل لا يستطيع أن يحيا حياة حقيقية على هذه الأرض . والعدل كقيمة مثالية ليست شيئًا دون أن يكون هناك إنسان يعمل على تحقيقها فى عالم الواقع . فالعدل ضرورى للإنسان مثلما أن الإنسان ضرورى لتحقيق العدل . ولكن هذه الحقيقة البسيطة غالبًا ما تغيب عن الأذهان ، أو بمعنى آخر غالبًا ما يتجاهلها الإنسان . وحينئذ يستخدم العدل كستار أو كشعار لبلوغ أهداف ذاتية للشخص نفسه أو للفئة التى ينتسب إليها .

وبذلك الفكر الأنانى المتحيز يبتعد المرء عن طريق العدل ويخطئ الطريق إليه ، ويجد نفسه سائرًا فى طريق الظلم . فكل فكر متحيز يؤدى لا محالة إلى الظلم .

ومن هنا يطلب القرآن منا أن ننظر إلى العدل على أنه أمر يعلو فوق كل أشكال التحيز . فالله هو إله كل الناس ، وليس إلهًا لجماعة معينة أو شعب معين ، والعدل مطلوب لكل الناس من حيث المبدأ دون استثناء . وإنه لمن التحيز البغيض أن يطلب المرء العدل لنفسه فقط فى أية صورة من الصور متجاهلاً أن العدل قيمة ينبغى أن تكون .

ولكن مجرد العلم بقيمة العدل لا يجدى فتيلاً إذا ما نسيه المرء أو تناساه ، وإذا لم يؤد بنا إلى إدانة الظلم الذى يتعرض له الآخرون ، وإذا لم يؤد بنا أيضًا إلى

مقاومة هذا الظلم وطلب العدل لكل من تنتهك حقوقه ظلمًا وعدوانًا . فمجرد العلم بقيمة العدل بالمعنى السقراطى لا أهمية له فى الحياة العملية .

والإسلام يذكرنا بأن العدل قيمة مطلقة ، ويحثنا على الوقوف بجانبه فى كل مكان ، وليس فقط من أجل تحقيق أهداف خاصة . فالعدوان فى المفهوم القرآنى ليس فقط هو العدوان على حقوق الآخرين ، بل يشمل أيضًا العدوان الذى يرتكبه المرء فى حق نفسه . والأنانية فى طلب العدل ليست فقط عدوانًا على الآخرين ، بل هى أيضًا عدوان على الذات . فالآخرون فى حاجة إلى العدل كما أن المرء نفسه فى حاجة إلى العدل، ومن لا يكون عادلاً مع الآخرين لا يجوز له أن ينتظر منهم أن يكونوا عادلين معه .

٥ـ العدل لا يتجزأ

وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك بالفعل ـ فإن العدل لا يتجزأ ؛ فالمرء لا يمكنه أن يطلب العدل لنفسه وفى الوقت ذاته يريد إبعاده من نفسه ثانية بارتكابه الظلم فى حق الآخرين ، فالناس جميعًا قد خلقوا من نفس واحدة ـ كما يقول القرآن الكريم (النساء : ١)، وعلى هذا الأساس ينبنى التضامن بين الناس، والذى يقتضى العدل للجميع .

إن الذى يمس الآخرين من الناس يمسنى أيضًا على نحو معين . فنحن مشتركون جميعًا فى الإنسانية ذاتها ، ونحن جميعًا ننحدر من نفس واحدة . ومن هنا يشير القرآن الكريم إلى أن من قتل نفسًا بغير حق فكأنه قد اقترف جريمة القتل فى حق الإنسانية كلها ، وفى المقابل فإن من يقدم الخير لفرد من أفراد الإنسانية فكأنه قدم الخير للإنسانية كلها ، كما يقرر ذلك القرآن الكريم : ﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة : ٣٢] .

فكل منا ـ على نحو ما ـ مسئول عن مصير الإنسانية . وما يراد منا هو أن نقرر بإرادتنا الحرة سلوك سبيل العدل فى حياتنا وتصرفاتنا .

وإن اختلاف الجماعات الإنسانية ، سواء كان هذا الاختلاف يتعلق بالجنس أو

اللون أو الدين أو ما شاكل ذلك يهدف فى نهاية الأمر - كما يشير القرآن الكريم - إلى أن يتعرف الناس على بعضهم بعضًا ، وأن يكتشفوا عن طريق هذه الاختلافات معنى الإنسانية فى الآخرين من الناس ، والذين هم متساوون معهم ، كما يقول القرآن : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ونحن فى عالمنا المعاصر ندرك بشكل ملحوظ - ليس له نظير فى السابق - مدى أهمية وَحْدة العدل ، كما ندرك أيضًا مدى صعوبة تحقيق ذلك على أرض الواقع . فقد أصبحت المعايير المزدوجة هى الحاكمة ، وتحكمت المصالح الذاتية ، وذلك على الرغم من أن عالمنا قد أصبح بمثابة قرية كونية يعتمد كل من فيها على الآخر بشكل من الأشكال .

ويشير القرآن الكريم إلى أن سبب عدم تحقق العدل فى حياتنا يرجع إلى الوقوف موقفًا سلبيًا إزاء الظلم الذى يتعرض له الآخرون . وفى ذلك يقول :

﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ؟** ﴾ [النساء : ٧٥] .

٦ - العدل ومسئولية الإنسان

يبين لنا القرآن الكريم المكانة الرفيعة التى يحتلها صاحب السلوك العادل فى مقابل هذا الذى لا يرجى منه خير فيقول :

﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [النحل : ٧٦] .

ويؤكد القرآن الكريم أن الله يحب المقسطين الملتزمين بالعدل فى كل أحوالهم . (المائدة : ٤٢) كما أن رسالة الأنبياء جميعًا ترمى إلى حث الناس على الالتزام بالعدل وتربيتهم على ذلك ، كما يقول القرآن أيضًا :

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾

[الحديد : ٢٥]، والذين يؤمنون بالله إيمانًا حقًا يجعل الله لهم نوراً يمشون به، ويغفر لهم ذنوبهم (الحديد : ٢٨) ، ويغمرهم بفضله ، ولكنه ـ سبحانه ـ لا يظلم أحداً (الكهف : ٤٩) ، فهذا الظلم من الأمور التى يجلبها الإنسان ذاته على نفسه : فالإنسان حر مختار يبين له الدين طريق الخير والشر ، والعدل والظلم ، وعليه أن يختار لنفسه ويقرر بمحض إرادته أيَّ طريق يختار ، وعليه أيضًا أن يتحمل نتائج اختياره إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر .

وقد وردت الإشارة إلى ذلك فى العديد من الآيات القرآنية . ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٧ـ٨] .

وقوله : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [فصلت : ٤٦] .

٧ـ العدل والحرية

وهذا يوضح لنا أن العدل مرتبط ارتباطًا وثيقًا بحرية الإنسان . ومن أجل ذلك فإن فهم التصور الإسلامى للعدل يتوقف على فهم الدور الحاسم للحرية فى الإسلام .

ويجد المرء إشارة لذلك ـ على سبيل المثال ـ فى التأصيل الفقهى للحكم فى قضية يدور الأمر فيها حول الحرية . فلو حدث نزاع بين مسلم وغير مسلم حول طفل، وقال المسلم : هذا الطفل عبدى . وقال غير المسلم : إن هذا الطفل ابنى ، فعلى القاضى أن يحكم فى هذه الحالة بإثبات بنوة الطفل للأب غير المسلم، نظراً لأن الطفل بموجب هذا الحكم سيكون حرّاً وليس عبداً [١] .

ويمكن القول بأن هذا التأكيد على حرية الإنسان كان يتردد فى التاريخ الإسلامى دومًا عندما تنطلق الشكوى من العدوان على الحرية ، والذى كان يحدث بين الحين والآخر . وفى هذا الصدد نورد هنا مثالاً على ما تقول تلك العبارة المشهورة التى أطلقها الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فى مواجهة العدوان على حرية بعض الأفراد من جانب بعض أصحاب النفوذ حين قال : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟** " .

---

(١) حاشية ابن عابدين ، ج٤ ص ٤٦٥ ، القاهرة ١٣٢٥هـ .

وقد قال هذه العبارة بمناسبة حادثة مشهورة تتصل بوالى مصر عمرو بن العاص فى ذلك الوقت[١] . فقد شكا أحد المصريين والى مصر وابنه لدى الخليفة من الظلم الذى تعرض له، حيث اعتدى ابن الوالى بالضرب على هذا المصرى دون مبرر، وبدلاً من أن ينصف الوالى هذا الرجل أودعه السجن حتى يمنعه من إيصال شكواه إلى الخليفة .

وقد استطاع المصرى أن يهرب من السجن ويذهب إلى الخليفة ويعرض عليه شكواه . فاستدعى الخليفة الوالى وابنه ، وبعد أن تحقق من صحة ما قاله المصرى أعطاه عصاه وطلب منه أن يضرب بها ابن الوالى قصاصًا منه لضربه إياه، ففعل المصرى ذلك وضرب ابن الوالى . وطلب الخليفة من المصرى بعد ذلك أن يضرب الوالى أيضًا ويقتص منه نظرًا لأن ابن الوالى ما كان يستطيع أن يضربه إلا بنفوذ والده، ولكن المصرى اكتفى بضرب من ضربه . وعقب ذلك قال الخليفة هذه العبارة التى أشرنا إليها : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟! " مما يؤكد ارتباط العدل بالحرية [٢] .

ويرى أحد العلماء المسلمين من رواد التنوير فى مصر فى العصر الحديث وهو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٢) أن العدل والحرية متماثلان فقد قال الطهطاوى : " وما يسمونه الحرية (فى فرنسا) ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف . وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين، بحيث لا يجور الحاكم على إنسان " [٣] .

ويرى الطهطاوى أن العدل مفهوم جامع لكل الفضائل، وأن جميع ما عداه من الفضائل متفرع عنه . وأن الإسلام يطلب الحرية والحقوق الإنسانية العامة لكل الناس بلا تمييز ، وأن الإسلام لا يعد مسئولاً عما ارتكبه بعض الحكام المسلمين من مظالم خالفوا بها أحكامه وتعاليمه [٤] .

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذه الحادثة فى الفصل التاسع من هذا الكتاب .

(٢) راجع : على الطنطاوى وآخرون : أخبار عمر ص ١٨٢ وما بعدها ، دمشق ١٩٥٩م .

(٣) راجع : عزت قرنى : العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة ص ٧، سلسلة عالم المعرفة الكويت ١٩٨٠م .

(٤) المرجع السابق ٩٢/ ٩٣ .

والقرآن يعطى للناس الفرصة لتصحيح أخطائهم من منطلق الحرية التى يتمتع بها كل فرد . فاغتنام تلك الفرصة للتصحيح ورفع الظلم يرجع إلى قرار شخصى ، وليس هناك أى وجه لإجبار أحد على اغتنامها .

ولكن لا يجوز أن يفهم أحد أنه عندما يتمادى فى ظلمه فإنه سيفلت من عقاب الله ، فالله يمهل ولا يهمل ، وساعة الحساب آتية لا ريب فيها ، والتاريخ شاهد على ذلك . والقرآن يشير إلى هذا المعنى فى قوله : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [النحل : ٦١] .

وعلى الجانب الآخر يشير القرآن الكريم إلى أن الذين يبذلون جهدهم فى سبيل استقامة السلوك والعدل والإنصاف معرضون لامتحانات مختلفة ، وعليهم أن يواجهوها بالصبر الجميل والعزم والتصميم على مواصلة طريقهم مهما كثرت العقبات . ويشير القرآن إلى ذلك فى مواضع عدة منها :

﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

فالسلوك العادل لا يجوز للمرء أن يتوقع عليه مكافأة فورية ، بل الأحرى أن يرى أن السلوك العادل نفسه يُعد فى حد ذاته مكافأة . وعلى الرغم من أن المرء ليس مسئولاً عن المظالم التى يرتكبها الآخرون فإنه مطالب ـ إسلاميّا ـ بألا يقف من هذه المظالم موقفًا سلبيّا ، بل يجب عليه أن يحاول منعها أو إزالتها ، كما ورد فى الحديث الشريف :

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (١) .

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده فى مواضع متعددة . ومما ينبغى أن نلفت النظر إليه فى هذا الصدد التأكيد على أن تغيير المنكر باليد لا يجوز أن يكون متروكًا لتصور كل فرد دون ضوابط ، وإلا اضطرب نظام المجتمع وسادت الفوضى . ومن أجل ذلك فإن الفرد فى هذه الحالة مطالب بإخطار الجهات المسئولة بالمنكر الذى رآه أو اطلع عليه ؛ لتتولى هذه الجهات اتخاذ ما يلزم من إجراءات لمنع هذا المنكر أو معاقبة فاعله . وبذلك يكون الفرد قد أدى ما ينبغى عليه إزاء تغيير المنكر بشكل عملى .

٨ـ العدل والحق

ولا يجوز فى نظر الإسلام أن يحمل الظلم البادى فى العالم الإنسان على اليأس من تحقيق العدل ، فهذا اليأس قد يؤدى به إلى سلوك مغاير للعدل . وينبغى على الإنسان بدلاً من ذلك أن يدرك أن كمية الشر مهما كثرت فإنها لن تستطيع أن تمحو الخير من الوجود مهما قلت كميته ، وسيظل دائمًا هناك من يسير فى طريق العدل والرشاد مهما كثرت ظلمات الشر والفساد .

وينبه القرآن إلى ذلك بقوله : ﴿ **وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٨١] . وهنا ربط وثيق بين اتباع الحق والالتزام بالعدل . فالذى يعدل لأنه يتبع الحق يكون فى وسعه فهم الآيات الإلهية التى يمتلئ بها الوجود وتمتلئ بها النفس الإنسانية (فصلت ٥٣) . ومن هنا يشير القرآن إلى أن الله قد بين الآيات لهؤلاء الذين تمتلئ قلوبهم باليقين (آل عمران : ١١٨) .

وكما سبق أن أشرنا فإن العدل لا يتجزأ ، ولا يجوز أن يكون متحيزًا أو منحازًا لطائفة معينة أو فريق معين من الناس ، فالحق أحق أن يتبع . وهذا ما يطالب به القرآن فى صراحة ووضوح . ويتضح لنا ذلك بجلاء من خلال التوجيهات القرآنية الأربع التالية :

١ ـ ينبغى على الإنسان أن يلتزم بالعدل حتى فى حالة ما إذا كان الأمر يتعلق بشخصه أو والديه أو أقاربه ومحبيه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا** ﴾ [النساء : ١٣٥] .

٢ ـ ينبغى الالتزام بالعدل بين الناس بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعى من حيث الغنى أو الفقر أو الجاه والنفوذ . ولا يجوز أن يكون لذلك أى تأثير على قراراتنا : ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء : ٥٨] . ومن المأثورات الإسلامية فى هذا الصدد ما يروى من أن أسامة بن زيد قد تشفع لدى النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر العفو عن المرأة المخزومية التى سرقت ، وكانت

من أسرة لها مكانتها فى المجتمع . وقد رفض النبى ذلك رفضًا قاطعًا مؤكدًا على ضرورة أن يطبق على الجميع معيار واحد بصرف النظر عن أى اعتبار آخر .

وقال فى ذلك : «**إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(١) .

٣ـ ينبغى الالتزام بالعدل وعدم السير وراء الأهواء والميول أو الأنانية ، أو الخوف من أصحاب النفوذ ، أو مشاعر الكراهية إزاء بعض الناس أو بعض الجماعات : ﴿ **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [المائدة : ٨] .

٤ ـ يتحتم معاملة كل الناس من حيث المبدأ بالعدل والمودة إلا فى حالة ما إذا حاربونا بسبب الدين أو أخرجونا من ديارنا أو ناصروا أعداءنا ضدنا ، وتلك حالة استثنائية تزول بزوال أسبابها . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الممتحنة : ٨ـ٩] .

فالمطلوب إذن ليس فقط مجرد عدالة قانونية ظاهرية ، بل عدالة مؤثرة تعمل بطريقة فعالة على بقاء معنى الإنسانية حيّا فى النفوس ، وأن تمنح الناس الفرصة ليمارسوا حياتهم فى كرامة . فعلى أساس من الشعور بالكرامة واحترام الذات تنبنى أخلاق الإنسان . وهنا أيضًا نجد أمثلة عديدة من المأثورات الإسلامية ترينا مواقف رائعة من التسامح الفعال بوصفها نماذج تحتذى . ومن ذلك على سبيل المثال ما يأتى :

" **يروى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ مر بباب قوم وعليه سائل يسأل وهو شيخ ضرير البصر، فقال له عمر : من أى أهل الكتاب أنت ؟ قال : يهودى . فقال: ما الذى ألجأك إلى ما أرى؟ فقال الرجل : دَفْعُ الجزية والحاجة والسن، فأخذ**

---

(١) رواه الإمام مسلم ٣/ ١٣١٥ .

عمر بيده، وذهب إلى منزله فرضخ له بشىء من المال (أى أعطاه ما يسد حاجته) ثم أرسل إلى خازن بيت المال وطلب إليه أن يجرى عليه رزقًا مستمرًا من بيت مال المسلمين وقال له : انظر إلى هذا وضربائه، فوالله ما أنصفنا أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه" [1] .

وحرص الإسلام على تأكيد الكرامة الإنسانية يمتد حتى إلى ما بعد موت الإنسان. وفى هذا الصدد ورد أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرت به جنازة فقام احترامًا للميت ، فقيل له : إنها جنازة يهودى . فرد قائلاً : أليست نفسًا ؟ وطلب من أصحابه أن يقفوا إذا مرت بهم جنازة [2] .

ويوصى القرآن أيضًا بعدم النزول إلى مستوى هؤلاء الذين يمارسون الظلم ويتبعون طريق الشر ، وذلك بالرد على السيئة بالحسنة ، فالهدف الأسمى للمسلم هو محاربة العداوة فى قلوب الأعداء . ومن هنا لا يجوز للمسلمين ـ كما يشير القرآن ـ أن يفقدوا الأمل فى تحقيق ذلك ؛ لأن الأمل هو ملاذ السلام ، يقول القرآن الكريم :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ [الممتحنة : ٧] .

فإذا قمنا بالرد على السيئة بالحسنة ، فإن ذلك قد يعطى للظالم الفرصة لإعادة النظر فى موقفه . وهذا ما يشير إليه القرآن فى قوله :

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

ولكن هذا التسامح إزاء الأعداء على هذا النحو ليس أمرًا سهلاً ، والقرآن يعترف بهذا الواقع الإنسانى . ومن هنا يشير إلى أن هذا التسامح إزاء من ظلمنا واعتدى علينا أمر لا يطيقه إلا نوعية معينة من الناس . وقد أشار إلى ذلك القرآن

---

(١) العلاقات الدولية فى الإسلام للإمام محمد أبو زهرة ص ٧٠ ، ٧١ ط . دار الفكر العربى .
(٢) فتح البارى ج ٣، ص١٧٩ – وما بعدها .

الكريم عقب الآية السابقة بقوله : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٥] .

٩ـ العدل بداية جديدة

والعدل بهذا المعنى أمر يعلو على مجرد الشرعية ، إنه عدل ذلك الإنسان الذى يتصرف بحق بوصفه خليفة الله فى الأرض ، إنه عدل الإنسان الذى يتقى الله ، ويعدل لأنه يحب العدل لذاته ، وهذا يعنى أنه يحب الله ؛ لأن الله هو نفسه العدل المطلق . والإنسان عندما يتجه فى سلوكه إلى تقديم الخير لإخوانه فى الإنسانية وللعالم الذى يعيش فيه بصفة عامة عن طريق استقامة سلوكه وعدله فإن ذلك يكون بمثابة عبادة لله ـ تعالى .

وقد حاول المسلمون على مدى تاريخهم ترجمة هذه القيم الرفيعة إلى سلوك واقعى . وهناك أمثلة حية لا تزال تتردد أصداؤها ، ولا تزال شاهداً على ضرورة التصميم على اتباع طريق العدل والتسامح والتراحم .

وهنا نشير إلى صلاح الدين الأيوبى الذى ضرب مثالاً حيّا على السلوك الإسلامى العادل فى تعامله مع الصليبيين بعد أن استعاد القدس عام ١١٨٧ . فقد عامل الصليبيين العائدين إلى بلادهم بتسامح منقطع النظير ، ولم يمنحهم فقط حريتهم ، بل زود الفقراء منهم بما يكفيهم من المؤونة فى طريق عودتهم . ولم يمس أماكنهم المقدسة بسوء على الرغم من أن بعض المسلمين طالبوه بمعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عندما استولوا على القدس عام ١٠٩٩ . ولكن صلاح الدين نهرهم عن المساس بالأماكن المقدسة وأمر باحترامها والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين (١) .

وبذلك أعطى صلاح الدين مثالاً مؤثراً لتحقيق قيمة العدل فى التصور الإسلامى ، بمعنى أنه لم يبتعد فقط عن الظلم ، بل التزم بالعدل الفاعل الذى جعله يتوجه إلى مساعدة الفقراء والمحتاجين من خصومه ، ويعفو عن المعتدين والغزاة

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٧٩٠ـ٧٩٥ ، القاهرة ١٩٧٦م . (وقد سبق الحديث عن ذلك تفصيلاً فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب) .

الذين انتصر عليهم . وعلى هذا النحو يصبح فى الإمكان بدء صفحة جديدة . وفى هذا الصدد نود الإشارة إلى أنه لم يكن من قبيل المصادفة أن الهلال أصبح رمزًا للإسلام، ففى ذلك إشارة إلى البداية التى تتجدد دائمًا ، والفرصة السانحة التى تفتح أبواب العدل والرحمة والأمل . وهذا ما دعت إليه الآية الكريمة التى سبقت الإشارة إليها :

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤].

١٠ـ مفهوم العدل لدى المتكلمين

وإذا كانت هذه التصورات الإسلامية لمفهوم العدل قد وجدت طريقها فى كثير من الأحيان إلى الممارسة الفعلية على أرض الواقع ، ولم تظل فقط فى إطار التصورات النظرية، فإننا وجدنا علماء الكلام المسلمين قد نحوا نحواً آخر فى بحث قضية العدل . فقد انتقل البحث لديهم فى هذه القضية بوصفها قضية إنسانية بالدرجة الأولى إلى قضية ميتافيزيقية .

ويمكن القول بأنه إذا كان سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض فإن علماء الكلام قد نقلوا قضية العدل من الأرض إلى السماء ، وأصبحت لديهم تندرج تحت ميتافيزيقا الأخلاق أو الأسس الميتافيزيقية للأخلاق أو الأصول العقائدية التى تقوم عليها الأخلاق . فالعدل ـ الذى يعد أهم وصف للفعل الإلهى ـ يتعلق بهذا الفعل من حيث صلته بالإنسان ، تلك الصلة التى يجب أن يسودها العدل المطلق من جانب الله فى رأى المعتزلة .

والقرآن الكريم نفسه يؤكد هذه العدالة المطلقة ؛ فقد جاء فيه فى مواضع عديدة وصف الله بأنه **﴿ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾** [آل عمران : ١٨٢ ، الأنفال : ٥١ ، الحج : ١٠ ، فصلت : ٤٦ ، ق : ٢٩] ، وأنه لا يظلم أحدًا ، ولا يظلم مثقال ذرة (الكهف : ٤٩ ، النساء : ٤٠) ، وغير ذلك من آيات عديدة تنفى عن الله الظلم بإطلاق ، وهذا يعنى ثبوت العدل لله بإطلاق ، وذلك فضلاً عن الآيات الكثيرة التى يأمر الله فيها بالعدل .

ولو كان علماء الكلام قد اكتفوا بالوقوف عند المضمون الصريح للآيات القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية العديدة فى هذا الشأن لكان ذلك مغنيًا لهم عن المناقشات والمجادلات الكثيرة حول تفاصيل تعد من الأمور الغيبية أو الميتافيزيقية التى لا يصل الإنسان فيها فى غالب الأحيان إلى يقين تام ، بل إلى مجرد ظنون .

ولكن الدافع إلى التفكير الميتافيزيقى غلب على علماء الكلام . ولعلهم لم يستطيعوا مقاومة هذا الدافع على نحو ما ذهب إليه أيضًا الفيلسوف الألمانى " كانت Kant " الذى يرى أن المسائل الميتافيزيقية من الأمور التى لا يستطيع العقل الإنسانى أن يتفاداها ؛ لأنها معطاة له فى طبيعة العقل ذاته .(١)

ولكن إذا كان " كانت " قد رأى أن العقل لا يستطيع أن يجيب عن مثل هذه المسائل فإن علماء الكلام - والمعتزلة منهم على وجه الخصوص - يظنون أن فى استطاعتهم الحصول على إجابات على هذه المسائل الدقيقة .

ودون أن نخوض فى تفاصيل القضايا التى أثارها علماء الكلام فى هذا الصدد نود فقط أن نشير إلى بعض الخطوط العريضة لتصوراتهم حول قضية العدل . ويمكن القول بصفة عامة بأن الحديث عن العدل فى علم الكلام الإسلامى ينقسم إلى موضوعين هما :

أولاً: قضية خلق أفعال العباد وحرية الاختيار، أو بتعبير آخر قضية الجبر والاختيار.

وثانيًا: التحسين والتقبيح أو الخير والشر، وعما إذا كانا عقليين أم شرعيين.

والخلاف بين علماء الكلام فى هذا الصدد يدور حول حق الله باعتباره خالقًا وحق الإنسان باعتباره مسئولاً . وموقف الدفاع عن حق الله يكاد يصل لدى بعض علماء الكلام إلى إلغاء حق الإنسان، بمعنى أنه ليس خالقًا لأفعاله، وإنما خالقها الله وحده . وفى المقابل يكاد الدفاع عن حق الإنسان فى مقابل حق الله أن يصل إلى حد الجور على حق الله، بمعنى أن الإنسان وحده هو خالق أفعاله، وليس الله .

---

(١) نقد العقل الخالص ص ٥ الطبعة الألمانية - هامبورج ١٩٦٢م.

وهناك فى هذا الصدد ثلاثة مذاهب أساسية **أولها**: مذهب الجبرية الذين يذهبون إلى أن العبد مجبور فى أفعاله كالريشة فى مهب الريح تميلها حيث تميل ، **وثانيهما**: مذهب المعتزلة الذين يذهبون إلى أن العبد خالق لأفعاله بقدرة خلقها الله فيه ، **وثالثها**: مذهب الأشعرية الذين يذهبون إلى أن العبد ليس مجبوراً ، كما تقول الجبرية وليس خالقا لأفعاله كما تقول المعتزلة ولكن له فى أفعاله الاختيارية ما يسمونه بالكسب .

والفعل المكتسب هو المقدور بالقدرة الحادثة ، فإذا أراد العبد الفعل وتجرد له ـ أى لم يشغل نفسه بفعل سواه ـ خلق الله له فى هذه اللحظة قدرة على الفعل مكتسبة من العبد مخلوقة للرب . فيكون الفعل خلقًا وإبداعًا وإحداثًا من الله وكسبًا من العبد لقدرته التى خلقها الله وقت الفعل .

وقد اتهم الأشعرية بأنهم جبريون ، وأن القول بالكسب يعد جبرية مقنعة . ولكنهم يرفضون وصفهم بأنهم جبريون . فهم على وعى وإدراك بالفرق بين الحركة الإرادية والحركة الاضطرارية ، هذا الفرق الذى يستطيع كل إنسان أن يدركه برؤية باطنية (١) .

وينطلق حجة الإسلام الغزالى ـ وهو أحد أقطاب الأشاعرة ـ فى تصويره للعدل الإلهى من منطلق وجوب التفرقة بين ما يصدر عن الله وما يصدر عن الإنسان . فالله لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره . أما الله ـ سبحانه ـ فإنه لا يتصور منه الظلم ؛ لأن تصرفه فى ملكه الذى لا ينازعه فيه أحد . فهو المتفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتفضل كذلك بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم . وهو قادر على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بشتى الآلام والمحن . ولو صدر منه ذلك لكان هذا عدلاً ولم يكن قبيحًا ولا ظلمًا (٢) .

وهذا يعنى أن الغزالى يرفض تطبيق المعايير الإنسانية على الله ، سبحانه . فالله

---

(١) تهافت الفلاسفة للغزالى ص ٢٠٥ بيروت ١٩٦٢م .

(٢) فى علم الكلام لأحمد صبحى ج١ ص ٦٠٩ ـ الإسكندرية ١٩٧٨م .

حكيم فى أفعاله ، ولكن لا يجوز لنا أن نخضع أفعاله لمقاييسنا البشرية ونوجب عليه شيئًا ـ كما تفعل المعتزلة ـ فإن ذلك يعد تطاولاً على الذات الإلهية .

ولكن المعتزلة أرادوا فى بحثهم لقضية العدل استبعاد كل التصورات التى تتنافى مع عدله ـ سبحانه وتعالى . ومن هنا يتمسكون بفكرة الله المعنى بالعالم . واختيار المعتزلة لصفة العدل لجعلها الأصل الثانى من أصولهم يرجع إلى أن العدل هو رأس الفضائل التى تحكم الأفعال المتعدية إلى الغير لا سيما فى علاقة رب بمربوبين أو حاكم بمحكومين .

والعدل لدى المعتزلة هو ما يقتضيه العقل من الحكمة أو صدور الفعل على وجه الصواب والمصلحة . وهذا يعنى أن تكون جميع الأفعال الصادرة عن الله والمتعلقة بالإنسان المكلف بمقتضى الحكمة وعلى وجه المصلحة ، ومن هنا ينفى المعتزلة صدور القبح أو الشر عن الله ، ويقولون باللطف الإلهى . فالله قد بعث الأنبياء لطفًا منه ؛ لأن المؤمنين ما كانوا بغير بعثتهم يؤمنون ، غير أن بعث الرسل لا يضطر الإنسان إلى الإيمان ؛ لأن كل الدواعى والألطاف إنما تقف عند حرية الاختيار . فالله لم يدخر عن عباده من الألطاف التى بها يعدلون عن طريق البغى شيئًا من غير إلجاء ، وإلا لارتفع التكليف ولما كان هناك مبرر لحساب .

ويتضح من ذلك أن حرية إرادة الإنسان لدى المعتزلة متفرعة عن تصورهم للعدل الإلهى إذ كيف يكلف الإنسان ويسأل ويحاسب إن كان مجبرًا ؟ إن ذلك يتنافى مع عدله ـ سبحانه ـ ، كما تمسك المعتزلة بحرية إرادة الإنسان حتى لا ينسب الشر الخلقى الناتج عن علاقة الإنسان بالإنسان ـ كالظلم مثلا ـ إلى الله ـ سبحانه [١] . وانسجامًا مع مذهبهم يتحدث المعتزلة عما يسمى بقانون العوض . فكل ما يصيب الإنسان من آلام لا يستحقها فى هذه الحياة يجب أن يعوضه الله عنها فى الآخرة ، وحتى الحيوانات يجب أن تعوض فى وجود آخر عن الآلام التى تتعرض لها على يد الإنسان ، وإلا لا يكون الله عادلا [٢] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٨ وما بعدها ، ص ١٥٨ .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر ص ١٠٦ ، طبعة ثانية .

والخلاف بين المعتزلة والأشاعرة يرجع إلى أن المعتزلة ينطلقون من مفهوم تنزيه الله ، أما الأشاعرة فمنطلقهم تعظيم الله ، والاختلاف بين المفهومين هو الذى أدى إلى خلافهم فى كل المسائل المتعلقة بالفعل الإلهى مثل القضاء والقدر والأرزاق والآجال ... إلخ [١] .

وقد أشار الشيخ محمد عبده فى "رسالة التوحيد" إلى اضطراب تلك الآراء التى توجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله ، وما يترتب على ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض لدرجة تجعل الناظر فى مزاعمهم يظن أنهم عدُّوه واحداً من المكلفين يسرى عليه ما يسرى عليهم من حقوق وواجبات .

كما رفض الشيخ محمد عبده أيضًا التطرف فى الجانب الآخر المتمثل فى نفى التعليل عن أفعال الله . وذهب إلى القول بأن الجميع متفقون على أن أفعاله ـ تعالى ـ لا تخلو من حكمة . ثم فسر الحكمة بأنها كل عمل من الأعمال يترتب عليه حفظ نظام أو دفع فساد خاصّا كان أو عامّا بحيث لو كشف للعقل من أى وجه لعقله ، وحكم بأن العمل لم يكن عبثًا ولعبًا . وإذا كانت أفعال العقل تصان عن العبث ، فمن باب أولى أن تصان أفعال الخالق ـ الذى هو مصدر كل العقول ـ عن العبث [٢] .

وإذا كانت المناقشات التى دارت بين علماء الكلام فى قضية العدل وأمثالها قد ظلت داخل دائرة محدودة ، ولم يكن لها إلا تأثير قليل على الحياة العملية للأفراد والجماعات ، فإن الفهم المستقيم الذى سار عليه جمهور المسلمين والذى يدركه عامتهم هو أن الثواب والعقاب أمران يتعلقان بالإرادة الإنسانية . ولا يستطيع عاقل أن ينكر اختيار الإنسان . فالقرآن جعل له الاختيار حتى فى أمر الاعتقاد . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف : ٢٩] . وقد خلق الله للإنسان

---

(١) فى علم الكلام لأحمد صبحى ص ٥٤٥ .

(٢) رسالة التوحيد ص ٦٤ وما بعدها ـ دار المعارف .

الوسائل التى تمكنه من الفعل ، ومنحه العقل الذى به يفكر ويتدبر ويختار ، وبين له الخير والشر ، وترك له حرية الاختيار بين الطريقين دون إكراه .

وإذا كان الإسلام قد أمر بالإيمان بالقضاء والقدر ، وبين أن الله قد علم فى الأزل ما الذى سيختاره كل فرد من أفراد البشر بمحض إرادتهم ، فليس معنى ذلك الإكراه على الفعل أو الترك ، فمن سنن الله فى الكون أنه ـ سبحانه ـ خلق الإنسان حرّاً فى فعله مختاراً غير مقهور ولا مجبور (١) .

ومن هنا فإن الله حين يجازى كل امرئ على ما عمل إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر فإن ذلك هو العدل بعينه ، ,

* * *

(١) انظر كتابنا : الدين والحضارة ص ٥١ وما بعدها ـ سلسلة قضايا إسلامية ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٦م .

الفصل الرابع عشر

السلام فى التصور الإسلامى

١ ـ تمهيـد : نظرة عامة

٢ ـ السلام ضرورة حياتية

٣ ـ حول المفهوم الإسلامى للسلام

٤ ـ الطريق إلى السلام

٥ ـ الإسلام والسلام العالمى

السلام فى التصور الإسلامى (*)

١ـ تمهيد : نظرة عامة

إذا أردنا أن نتناول بالبحث موضوع السلام، فإننا نعالج موضوعًا يهم الناس جميعًا فى كل مكان من أرجاء المعمورة . وعلى الرغم من أن البشرية كلها ترغب فى السلام فإن تحقيقه لا يتم بطريقة تلقائية ، فتحقيق السلام يحتاج إلى جهود خارقة، ويتحتم إعادة صنعه من جديد باستمرار ، ولسنا نعدو قول الحق إذا قلنا : إن الحياة بمعنى الكلمة تتوقف عندما تخلو من السلام .

والمسلمون بدافع من دينهم يسعون إلى تحقيق السلام بوصفه هدفًا رئيسيّا يضعه الإسلام أمام أعينهم . ولكن الإسلام يوجب عليهم أن يسعوا إلى تحقيق هذا الهدف بوسائل سلمية وألا يلجأوا إلى فرض السلام بالقوة .

ولا يعنى ذلك عدم رد العدوان ، فقد أجاز الإسلام للمسلمين أن يردوا عدوان المعتدى ، على ألا يكون فى ذلك تجاوز للحد وألا ينقلب المسلمون إلى معتدين . وهذا ما يؤكده القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

(*) تم إلقاء أصل هذا البحث بالألمانية فى «المؤتمر الدولى الإسلامى المسيحى للسلام من أجل الإنسانية» الذى عقد فى العاصمة النمساوية ڤيينا فى الفترة من ٣١/ ٣ ـ ٢/ ٤/ ١٩٩٣م ، وقد تم نشره بالألمانية فى ڤيينا وبالإنجليزية فى نيودلهى فى مجلدين يضمان بحوث المؤتمر والمناقشات التى دارت حولها . انظر :

Bsteh, A., Friede fuer die Menschheit . Moedling b . Wien 1994 .

وراجع أيضًا : Bsteh, A., Peace for Hamanity, New Delhi 1996 .

[البقرة : ١٩٠]. ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٤].

والسلام طبقًا للتصور الإسلامى يعد عملاً من أعمال الإنسان ، وفى الوقت نفسه يعد نعمة من نعم الله على البشر . وقد وصف الله نفسه فى القرآن الكريم بأنه ﴿السَّلامُ﴾ [الحشر : ٢٣]. والمصطلح العربى للسلام مشتق من الأصل ذاته الذى اشتق منه لفظ الإسلام . فهناك تطابق تام بين الإسلام والسلام .

والتجارب العامة تبين لنا أن الإنسان الذى تنطوى نفسه على السلام يستطيع أن يسهم فى نشر السلام من حوله فى عالمه الذى يعيش فيه . والقرآن الكريم حين يبين لنا أن الناس جميعًا ينتمون إلى الأسرة الإنسانية الكبيرة وينحدرون جميعًا من أصل واحد ، فإن ذلك يعنى أن الإنسان الذى يبحث عن السلام لا يبحث عنه لنفسه فحسب ، بل للآخرين أيضًا ، فالسلام من شأنه أن يوحد نفوس البشر .

ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك وحدهم دون هداية من الله الذى يريد الخير لكل الناس . وهذه الهداية تبدأ بالدعوة إلى السلام أو إلى دار السلام ، وهى دعوة صادرة من الله إلى الإنسان : ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ﴾ [يونس : ٢٥].

وهذه الدعوة موجهة إلى الناس بوصفهم أفرادًا كما هى موجهة إليهم بوصفهم جماعات بشرية ، فالسلام يمنح الإنسان سكينة النفس وطمأنينة القلب ويهىء للجماعات البشرية الاتحاد والترابط فيما بينها .

والطريق إلى السلام فى ظل الهداية الإلهية الموعودة يعنى تحمل الإنسان لمسئوليته إزاء الخلق كله . فالله قد سخر لنا الكثير مما خلق ، ومن هنا يتحتم علينا أن نكون أهلاً لتلك المسئولية حتى يكون لحياتنا معنى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ١٣] .

والمسلم حين يستجيب للنداء الإلهى بعمارة الأرض : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١] فإنه عندما يقوم بذلك لا ينسى أنه يحقق الإرادة الإلهية التى تريد السلام والخير لبنى البشر جميعًا .

أما الإنسان الذى لا يستجيب للنداء ويسلم نفسه بدلاً من ذلك للمظاهر المادية لعالمنا كما لو كانت هدفًا فى ذاتها فإنه يحطم ذاته ويدمر إنسانيته ، ومن هنا لا يستطيع أن ينعم بالسلام فى داخل نفسه ، وبالتالى لا يكون قادرًا على المشاركة فى صنع السلام من حوله . فمن المعلوم أن فاقد الشىء لا يعطيه .

وهكذا فإن كل إنسان مدعو إلى أن يكون راعيًا مؤتمنًا على ما عهد إليه برعايته فى مجال مسئوليته . وهذه المسئولية إما أن تتعلق بالذات ، أو تتعلق بالغير ، وهذا الغير إما أن يكون إنسانًا أو نباتًا أو حيوانًا أو جمادًا . ودوائر المسئولية متداخلة ومرتبط بعضها بالبعض الآخر [١] .

والعقيدة الإسلامية من شأنها أن تهيئ للإنسان المناخ الذى يستطيع فيه أن يتواءم مع ذاته ومع العالم الذى يعيش فيه ، فالإسلام فى حقيقته يعنى إسلام المرء وجهه إلى الله . وبهذا التوجه يكون المسلم قادرًا على أن يسلك الطريق إلى تحمل مسئولياته وأداء واجبه الحقيقى . والعقيدة الدينية تجعله واثقًا من العون الإلهى ، ومن هنا يكون قادرًا على تذليل الصعاب والانتصار على العقبات ، ويكون قادرًا أيضًا على البناء والتعمير والتفكير المبدع والعمل الخلاق وصنع الحضارة ، الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى صنع السلام .

والطريق إلى السلام ـ فى نظر الإسلام ـ طريق مستقيم لا اعوجاج فيه . والإنسان لا يستطيع أن ينجح فى سعيه إلى السلام إلا إذا هيأ لذلك المناخ المناسب ، بمعنى أن يجعل للسلام مكانًا فى حياته ، وهذا يعنى أنه يتحتم عليه أن يتيح للآخرين المشاركين له فى الإنسانية أن يكون لهم نفس الهدف وأن يساعدهم على ذلك . فإذا لم يفعل فإنه يكون قد تخلى عن طريق السلام .

وهذه الفكرة توضح لنا أن السلام فى التصور الإسلامى ليس هدفًا مشتركًا لكل الناس فحسب ، وإنما هو فى الوقت نفسه أيضًا الطريق الوحيد لبلوغ السلام . فهو هدف وطريق فى الوقت نفسه .

---

(١) راجع على سبيل المثال حديث النبى صلى الله عليه وسلم : " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " وقد سبق تخريجه .

ومن أجل الوصول إلى هذا الطريق وحتى لا يضل الإنسان وتتشتت به السبل يتجه المسلم إلى ربه فى الصلاة كل يوم خمس مرات . وفى نهاية كل صلاة يتجه بتحية الإسلام وهى (السلام عليكم) يمينًا وشمالاً ، الأمر الذى يرمز إلى نصف العالم يمينًا ونصفه الآخر شمالاً ، ويعبر عن أمنية المسلمين بالسلام للعالم كله . والمسلمون يحيون بعضهم بعضًا بالتحية ذاتها تذكيراً لهم باستمرار بأن السلام هدف رئيسى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان .

والأمر الذى لا شك فيه أن الجهد المطلوب من أجل تحقيق السلام ليس شيئًا سهلاً ، بل هو أمر يتطلب جهاداً كبيراً للنفس . وتعاليم الإسلام لا تترك مجالاً للشك فى ذلك ، ولكن صعوبات الجهد المطلوب تتناسب مع قدرات الإنسان ، فالله لا يكلف الناس فوق ما يطيقون ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

ولكن الإسلام يبين لنا أيضًا أنه كلما كان الجهد المبذول كبيراً كلما كان الكسب من وراء هذا الجهد كبيراً أيضًا . وعندما يجد المرء أن السلام بالنسبة له يعد طوق النجاة ، فإنه سيكون من غير شك شديد الرغبة فى السعى إليه والحرص على التمسك به . والواقع أن السلام يعد ضرورة حياتية لكل الناس ولعالمنا الذى نعيش فيه .

٢ـ السلام ضرورة حياتية

عندما يتأمل المرء واقع العالم يجد أن قضية السلام تشغل العالم كله بدرجات متفاوتة . وهناك اتفاق تام لدى الجميع تقريبًا على أن السلام أمر جدير ببذل كل جهد لتحقيقه بل يعد أمراً ضروريّا لعالمنا الذى نعيش فيه ، ولكن الأمر المؤسف أن أفعال الناس فى الغالب تسير فى اتجاه مضاد للسلام . فالعدوان والظلم والاضطهاد والتطهير العرقى والإبادة الجماعية من الأمور التى أصبحت مألوفة وتحدث يوميّا تحت سمع وبصر العالم المتحضر وغير المتحضر ، ولا يفعل المتشدقون بشعارات السلام شيئًا لوضع حد لهذه الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان [١] .

---

(١) قارن على سبيل المثال ما حدث لمسلمى البوسنة والهرسك وكوسوفا والشيشان وفلسطين مما يعد وصمة عار للعالم المتحضر ، كما يعد ذلك فى المقابل وصمة عار أيضًا للعالم الإسلامى الذى بوسعه أن يفعل شيئًا ، ولكنه ركن إلى السلبية واكتفى بالشجب والإدانة .

وهذا يبين لنا أن هناك انفصامًا واضحًا بين القول والفعل ، بين النظرية والتطبيق، بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون . والسلام الحقيقى يقتضى بذل الجهد لإزالة هذا الانفصام ، والربط الوثيق بين القول والفعل . وهنا يتضح دور العقيدة فى التصور الإسلامى ، فغياب العقيدة يؤدى إلى هذا التناقض الواضح ، أو بمعنى آخر : إن وجود العقيدة من شأنه أن يؤدى إلى التطابق بين القول والفعل ، بين الفكر والعمل . والقرآن الكريم يمقت الانفصام والتناقض بين القول والفعل ، ويحذر المؤمنين بأن ذلك لا يجوز أن يكون من شيم المؤمنين، وأنه يؤدى إلى المقت الشديد من الله :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف : ٢ ، ٣] .

إن السلام أمر يتعلق بوحدة الوجود الإنسانى كما يتعلق أيضًا بتعدديته، فهو من ناحية بوصفه هدفًا يوحد أعمق المشاعر وأفضل الجهود الإنسانية الساعية إلى تحقيقه، وهذا أمر ينطبق على كل جماعة إنسانية ، بل ينطبق أيضًا على الأديان والشعوب والجماعات الحضارية المختلفة ، ومن ناحية أخرى فإن تعددية المجتمعات لا يجوز أن تكون عائقًا أمام توحيد الجهود . فالتعددية ينبغى أن تفتح الطريق أمام الوحدة . وهنا تكمن المهمة الإنسانية . والقرآن الكريم يشير إلى ذلك بوضوح فى قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فالإنسان يمكن أن يعرف ذاته بذاته ، وهذه المعرفة للذات لا تحتاج إلى شىء آخر أو لا تحتاج إلى واسطة كما يعبر الإمام الغزالى عن ذلك بقوله : (وما أظنك تفتقر فى ذلك (فى إدراك ذاتك) إلى وسط . فإنه لو كان ثم وسط لما أدركت ذاتك ، فإنه لا وسط بين ذاتك وشعورك بذاتك ، فبقى أن تدرك بغير وسط . . فبقى أنك تدرك ذاتك بذاتك) [١] .

ولكن هذه المعرفة للذات تتأكد بصورة أكثر وضوحًا حين يتعرف الإنسان على

---

(١) معارج القدس للغزالى ص ٢٣ ـ القاهرة ١٩٢٧م .

نفسه مرة أخرى فى الآخرين . فالإنسان لا يعيش وحده، وإنما هو عضو فى جماعة بشرية . وتعرفه على نفسه من خلال الآخرين يجعله قادراً على التعاون معهم والفهم الحقيقى لهم والتسامح معهم ، إنه يدرك فى النهاية أنه مخلوق لله مثلهم ، والذى يعرف نفسه على هذا النحو يرى الطرق المختلفة للجماعات الإنسانية بوصفها طرقًا توصل إلى نفس الهدف .

إن الطريق إلى السلام أمام الخلق مستقيم ـ كما سبق أن أشرنا ـ ولكنه فى الوقت نفسه متنوع ؛ لأن الأجيال التى تأتى مطلوب منها أن تعاود السير مرة أخرى فى نفس الطريق ، ولكن عليها أن تأتى بحلول جديدة للسلام . وفى هذا التجديد المتواصل يكمن الأمل أمام هذه الأجيال الجديدة .

والإسلام يلفت نظرنا دائمًا إلى هذا التجدد المستمر ، ومبدأ الاجتهاد فى الإسلام يعد تعبيراً عن هذا التجدد المتواصل، وذلك عن طريق البحث المستمر عن حلول جديدة لمستجدات الحياة . ولعل اختيار الهلال ـ الذى يتجدد ظهوره فى بداية كل شهر ـ رمزًا للإسلام قد لوحظ فيه أنه يرمز إلى بداية جديدة وتجدد متواصل .

ولعلنا قد استطعنا حتى الآن أن نوضح معالم السلام بوصفه هدفًا مشتركًا للإنسان فى كل زمان ومكان ، ولكن الطريق إليه شاق وطويل ، الأمر الذى يجعل البعض يميل إلى نظرة تشاؤمية ترى أن السلام حلم بعيد المنال . ولكن السلام مثله فى ذلك مثل كل المثاليات الضرورية للإنسان رغم أن الطريق إلى تحقيقها شاق وطويل ، ولم يقل أحد إن ذلك يقلل من قيمة السعى إلى تحقيقها . إن هذه النظرة التشاؤمية لم تدرك حقيقة السلام . فالسلام فى حقيقته ضرورى للحياة مثلما أن الهواء ضرورى للتنفس، وبدون السلام تنتهى الحياة .

والأوضاع الراهنة لعالمنا قد وضعت هذه الحقيقة المتمثلة فى ضرورة السلام أمام أعيننا بوضوح ، فالتدمير إذا حدث سيصيب الجميع بشكل أو بآخر .

وقد أصبح الآن أمراً واضحًا ـ على الأقل بالنسبة لكل شخص يفكر تفكيراً مسئولاً ـ أن الحروب العبثية والعدوان والرغبة فى التوسع على حساب الآخرين، وكذلك السلبية وعدم الاكتراث ، أمور تزيد من تدمير عالمنا . ومن أجل ذلك فإننا

جميعًا مطالبون بأن نتصرف طبقًا لمعرفتنا ، وأن نتدخل ـ كلٌّ بقدر استطاعته ـ لوقف هذه العملية التدميرية .

وإذا كان السلام يعد مطلبًا أساسيًّا للدين فإن هذه الرسالة المشتركة لكل الأديان قد أصبحت بالنسبة لعالمنا اليوم ضرورة ملحة . وإن الجهود السلمية المشتركة كفيلة بإنقاذ العالم وترسيخ أسس السلام ، ومفتاح ذلك بالنسبة لنا جميعًا يتمثل فى مبدأ العدالة ، وهذا يؤدى بنا إلى مفهوم الحقيقة .

إن العلم الحديث والتكنولوچيا يهدفان إلى معرفة الموضوعات المادية وتحليلها والتحكم فيها . وهما يهيمنان بهذه المناهج بدرجة متزايدة باستمرار على اللغة أيضًا ، ولكن العقل الإنسانى يريد شيئًا أكثر من ذلك . إنه يتطلع إلى ما هو أسمى ، يريد أن يرشد الإنسان إلى عالم الحقيقة ، والإنسان لا يستطيع أن يستغنى عن الانتساب إلى عالم الحقيقة ، فهو بهذا الانتساب يكون جديرًا بصنع السلام .

ومن أجل ذلك فإن الإنسان لا يحتاج إلى العلم فحسب ، بل يحتاج أيضًا إلى الدين ؛ لكى يجعله قادرًا على السعى نحو الحقيقة ، وإقرار مبدأ العدالة ، فنحن نجعل السلام أمرًا مستحيلاً بالابتعاد عن العدل وممارسة الظلم أو السكوت عليه ، وبذلك نطرد السلام من عالمنا ، كما أن الأديان يساء استغلالها فى عالمنا وتستخدم كأدوات لتحقيق أغراض دنيوية .

وإذا قلنا إننا فى حاجة إلى الدين فإن ذلك يتضمن الفهم الصحيح للدين ، فالأديان ينبغى ـ طبقًا لأهدافها ـ أن تكون سبيلاً إلى السلام ، وأن تتنافس فيما بينها من أجل السلام ، وأن تربى الناس على السلام ، فالمؤمن الحق هو الصادق فى فكره وعمله وقوله وفعله وسائر توجهاته ، وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿ **أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات : ١٥] .

والبحوث الحديثة لبعض مفكرى الغرب حول السلام تقترب من هذا التصور الذى يؤكد على ضرورة الربط بين الفكر والعمل [١] .

وعلى سبيل المثال نجد أن قضية السلام ـ فى تصور بحوث السلام الألمانية المعاصرة ـ تعد المشكلة الأساسية للإنسانية . وإذ تبرز هذه البحوث الأهمية الفلسفية للسلام فإنها من جانب آخر ترى أن السلام : " لم يتم إدراكه إدراكًا يتفق مع مكانته بوصفه مبدأ للفكر والعمل معا " [٢] ، ولكن سلام العالم ـ كما تؤكد هذه البحوث ـ " قد أصبح شرطًا حيويّا لعصر العلم والتكنولوچيا " .

وقد كان الفيلسوف الألمانى (كانت) يرى أن الإنسانية ينبغى أن تسعى بكل قوة نحو السلام مبينًا أن الأسباب العملية للقبول بمبدأى الألوهية وخلود الروح أقوى من التشكك فيهما [٣] . والشىء نفسه ينطبق على السلام .

٣ـ حول المفهوم الإسلامى للسلام

إن لغة السلام وحدها ـ بمعنى السلوك القويم الذى يتسم بالعدل والصدق وبذل أقصى الجهد من أجل ذلك ـ هى التى تستطيع أن تؤدى إلى تنمية إيجابية لحياة الإنسان ، وإلى فهم متبادل وتعاون مثمر بين الناس . وتلك فى واقع الأمر هى لغة التفاهم الوحيدة المطلوبة على مستوى العالم ، ذلك لأنها ليست مجرد كلام يقال وإنما هى تجسيد للمبادئ الإنسانية وتطبيق لمبدأى العدل والرحمة .

وفى التصور الإسلامى نجد أننا لسنا الذين نختار السلام من بادئ الأمر ، بل السلام نفسه هو الذى يختارنا ، فالله نفسه المتصف بالسلام هو الذى يدعونا إليه . ولكننا نستطيع أن نقرر لأنفسنا بإرادتنا الحرة ونختار الطريق إلى السلام ، وذلك بالعمل الصالح والسلوك العادل ، فالعدل صفة من صفات الله ، والصفات الإلهية بالنسبة لنا تعد جماع القيم والمثل العليا .

---

(١) نظرًا لأن هذا البحث فى الأصل كان يخاطب الأوروپيين فكان من المناسب الاستناد أيضًا إلى ما فى ثقافتهم من شواهد يمكن أن تتفق مع التصور الإسلامى للسلام .

(2) Ritter (Hrsg .) : Historisches Woerterbuch der Philosophie, Bd, 2.P 1114. Basel- Darmstadt 1972 .

(3) R . Eisler : Kant-Lexikon. P . 171 Hildesheim 1964 .

وقد خلق الله الإنسان ابتداء ليستقر فى الجنة التى هى دار السلام ، ولكنه أُخرج منها بعد أن عصى أمر ربه ، ولكن الجنة لم تغب عن ذهن الإنسان ، ولا نزال حتى اليوم إذا مكثنا فى مكان هادئ جميل ملئ بالورد والرياحين والأزهار نشبهه بالجنة . فالجنة إذن لا تزال ماثلة فى أذهاننا .

والوحى الإلهى يبين للإنسان طريق العودة إلى الجنة ، وهذا الطريق يسلكه المؤمن الصادق الذى هو خليفة الله فى الأرض ، والله يدعو عباده إلى (دار السلام) ويعينهم على سلوك الطريق إليها إذا أسلموا وجوههم إليه ، والمؤمن الذى يجند نفسه على طريق الله يمنحه الله السكينة . وهذه السكينة ـ التى تتمثل فى السلام فى قلب المؤمن ـ تقوى إيمانه ، وتيسر له بالتالى السبيل للسعى نحو السلام عبر قنطرة العدل .

يقول القرآن الكريم : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ** ﴾ [الفتح ٤] .

والإسلام يرشدنا إلى البحث عن منبع السلام فى داخلنا وليس فى أمور خارجية عنا ، ويعلمنا أن نستخدم عقولنا وننمى قدراتنا ، فالعقل هو المنحة الإلهية التى أعطاها الله للإنسان عند خلقه ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾ [الحجر : ٢٩] . فسلام الإنسان فى هذه الأرض مرتبط إذن بالسماء ، وليس منفصلاً عن الوحى الإلهى والتوجيه الربانى .

وكما أن الأرض فى حاجة إلى الماء ؛ لكى تنبت الزرع وتؤتى ثمارها فإن الإنسان ـ لكى يستطيع أن يعيش على هذه الأرض ـ فى حاجة أيضًا إلى السلام الذى يأتى إليه من أعلى ، أى من الله الذى نفخ فيه من روحه ـ سبحانه وتعالى ـ والذى يقول لنا : ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ** ﴾ [الذاريات : ٢١ ـ ٢٣] . ولكن هذا السلام الذى يأتى إلى الإنسان من أعلى مشروط بأن يهيئ له الإنسان مكانًا فى نفسه ، وألا يكون مثل هؤلاء الذين وصفهم القرآن الكريم فى قوله :

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

٤ ـ الطريق إلى السلام

إن الطريق إلى السلام فى التصور الإسلامى ليس طريقا مفروشًا بالورود والرياحين ، ولكنه طريق طويل وشاق ، فضلاً عن أنه يمر عبر الكثير من الامتحانات والابتلاءات ، فالإنسان يبتلى بالشر كما يبتلى بالخير أيضًا ـ كما يقول القرآن الكريم :

﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

وعلى المؤمن أن يتحلى بالصبر والقيام ببذل الجهد حتى يستطيع أن يواجه هذه الابتلاءات ، وعندئذ يزداد قوة ويصبح أكثر صلابة ، وبالتالى يكون قادرًا على تحمل تبعات السلام .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق الخلق على أفضل وجوه النظام والإبداع ، ومن بين هذا الخلق يحظى الإنسان بمكانة مرموقة ومنزلة عالية ، فالإنسان وحده من بين المخلوقات كافة هو الذى يستطيع أن يقرر لنفسه بمحض اختياره وحريته قبول هذه المكانة أو رفضها ، وذلك على العكس من بقية المخلوقات التى لا حرية لها ولا اختيار .

فإذا قبل الإنسان هذه المكانة التى أرادها الله له ، فإنه بذلك يعلن استعداده لحمل الأمانة والوفاء بكل الالتزامات المترتبة على ذلك . وعلى هذا النحو يحقق إنسانيته ، وفى الوقت نفسه يحقق خلافته لله فى الأرض ، أما الرافضون لقبول هذه المكانة فإنهم يتنازلون عن إنسانيتهم ، وينحدرون إلى درجة أدنى من مرتبة الحيوانات التى لا تعقل .

إن الحرية الإنسانية تنمو عن طريق تحمل المسئولية وممارسة العمل المسئول ، وتقل عن طريق التخلى عن المسئولية وممارسة العمل اللامسئول الخالى من الضمير . والحرية لا تعنى أن يختار الإنسان أى شىء بطريقة عشوائية ؛ لأن مثل هذه الحرية

العشوائية ليست إلا عبثًا لا معنى له ، والإنسان بفضل حريته يستطيع أن يصل إلى أعلى المنازل عن طريق قراراته التى يحتكم فيها إلى العقل والضمير الأخلاقى ومراقبة الله ، أما إذا سلك الطريق الخاطئ فإنه ينحدر إلى هوة سحيقة لا مكان فيها للسلام .

وحتى يتجه الإنسان إلى الطريق الصحيح الذى يوصله إلى السلام بالمعنى الشامل يوجه القرآن الكريم نظره إلى الإقبال بكل ذاته على الدين الذى خلقه الله من أجله انسجامًا مع طبيعته ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٣٠] .

ومن الدين الحق أن يعتبر الإنسان نفسه جزءًا من الخلق الذى خلقه الله . والعقيدة الصحيحة تتمثل فى الإيمان بإله واحد لكل الخلق ، فالخلق كله من الله واستمرار وجوده مرهون بقدرة الله ومشيئته .

وقد جعل الله الناس مختلفين ؛ ليتعرف بعضهم على بعض ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ وهذا التعرف إذا كان جادًّا ومخلصًا فإنه يؤكد المساواة ، الأمر الذى يحفز المرء على أن يكون عادلاً ومتسامحًا مع غيره ومحبًّا له مثلما يحب نفسه ، وهنا يمتلئ قلبه بالسلام ويكون قادرًا على أن ينشر هذا السلام على كل من حوله وما حوله .

ومن فضل الله على عباده أنه غمرهم بفضله فأضاف رحمته إلى عدالته لما يعلمه ـ سبحانه ـ من ضعفهم ، فهو بعباده رءوف رحيم ، كما أنه لا يظلم أحدًا ، كما جاء فى الحديث القدسى :

«**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرمًا. فلا تظالموا** »[1]

فالسلام لا يقوم إلا على أساس من العدل ، ومن هنا حرم الله الظلم على نفسه وعلى الناس .

---

(١) راجع : صحيح مسلم، ج ٤ ص ١٩٩٤م ـ القاهرة ١٩٥٥م .

والمفهوم الإسلامى للعدالة لا يمكن حصره فى دائرة الشكل القانونى ، فالعدالة فى الإسلام تدع للآخرين فى الوقت نفسه الطريق إلى السلام مفتوحًا، وذلك عن طريق الرحمة، وهذا يعنى أن الإنسان تحت ظروف معينة ينبغى عليه أن يعطى لعدوه فرصة للسلام شريطة أن يكون هذا العدو على استعداد للسلام أيضًا ، ومن هنا يقول القرآن الكريم :

﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [الأنفال : ٦١] .

أما إذا لم يبد العدو رغبة فى السلام، وأصبح الجهاد ضرورة للدفاع عن الأرض والأنفس والأموال والأعراض فإن الإسلام يعطى للمسلمين الحق فى قتال الأعداء بشرط ألا يتجاوز المسلمون الدفاع إلى العدوان ، فالطريق إلى السلام لا يسمح إلا بالفعل الأخلاقى ، يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

ومن هنا فإن الرسول ﷺ كان يذكر المجاهدين قبل كل معركة بتقوى الله، ويحرم عليهم التمثيل بالقتلى ، كما يحرم عليهم إساءة معاملة الأسرى أو قتل غير المحاربين من الشيوخ والنساء والأطفال .

فقد روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال :

«**انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخًا فانيًا ولا طفلاً، ولا صغيراً ولا امرأة، وأصلحوا وأحسنوا ﴿إن الله يحب المحسنين﴾**»(١) .

وهكذا حرم عليهم فى الحرب كل شكل من أشكال السلوك اللاإنسانى . ولكن الحرب الدفاعية ضد العدو ليست هى نهاية الحرب ، فالهدف الأسمى للمسلمين هو محاربة العداوة فى قلوب الأعداء، ومن هنا لا يجوز للمسلمين أن يفقدوا الأمل فى ذلك ؛ لأن الأمل هو ملاذ السلام . يقول القرآن الكريم : ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً** ﴾ [الممتحنة : ٧] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه ٢/ ٣٦ كتاب الجهاد، باب فى دعاء المشركين (طبع مصطفى الحلبى) .

وقد أوصى الإسلام المسلمين بالتسامح إزاء كل الناس بصرف النظر عن أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم طالما أن هؤلاء لم يعتدوا على المسلمين ، وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .

وفى هذه الآية يرتفع التسامح ليكون صنواً للعدل ، فالتسامح ثمرة الرحمة التى تعد الجانب الآخر للعدل .

والسلام لا يمكن أن يفرض من الخارج ، إنه يبدأ فى داخل الإنسان ويؤثر عن طريق النماذج المثالية للإنسان فى محيطه وداخل دائرة مسئولياته وتأثيره .

وهناك حدود لإرادة السلام ، ولكن ليس هناك حدود للعدل ، فهو قيمة مطلقة ، وإنه لمن الظلم أن نتخذ من أعدائنا الذين يريدون تدميرنا أصدقاء ؛ لأننا بذلك نظلم أنفسنا ونساعدهم على ظلمهم لنا . وإذا ساعدناهم على ذلك فإننا لا نسدى إليهم معروفًا على الإطلاق ، ومن هنا رفض القرآن الكريم أن نصادقهم أو أن نتسامح معهم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم بعد الآية السابقة :

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٩] .

فإذا توقف هؤلاء عن ظلمهم لنا فينبغى أن نكون على استعداد للتجاوب مع إرادة السلام - ومن يُرِد السلام فإنه يتحتم عليه أن يبتعد عن كل لون من ألوان التعصب ؛ لأن التعصب يدمر السلام ، ويؤدى إلى أعمال غير إنسانية .

والإسلام يبين لنا أن الأرض قد خلقت لكل الناس على السواء بصرف النظر عن جنسياتهم وعقائدهم الدينية وأعراقهم . ونعمة الخلق أنعم الله بها على كل الناس ؛ لكى يتمتعوا بها سويّا ويقدروها حق قدرها ويهتموا بالعناية بها ، وبذلك يحققون ذواتهم بوصفهم أشخاصّا بشرية ، والناس جميعًا لهم الحق فى ذلك .

أما من يريد أن يمنع فئة من الناس من ممارسة وتنمية حياتهم فإنه بذلك يمنع نفسه أيضًا من الارتقاء بذاته . إن الإسلام فى الوقت الذى يدعو فيه إلى حقوق الإنسان يدعو أيضًا إلى ضرورة الوفاء بالواجبات ، وهذا يعنى ممارسة الحرية الإنسانية على نحو سليم ، فالإنسان مطلوب منه أن ينمو كإنسان وأن يمارس إنسانيته، وبذلك يتخذ السلام طريقًا .

والدين وحده هو الذى يهيئ للإنسان السبيل إلى ذلك . أما إذا أراد المرء ألا ينظر إلى ما هو أبعد من موطئ أقدامه ، وألا يتسامى بفكره وعمله فإنه يسد بنفسه الطريق إلى السلام ، إذ يصبح سجينًا لماديات هذا العالم .

ولكن الإسلام يعلم الإنسان أن حريته وتنمية قدراته الإبداعية تجد فرصتها عندما يشعر الإنسان بالسلام الداخلى فى أعماق نفسه .

إن الإسلام دين يدعو فى صراحة ووضوح إلى السلام فى العالم وإلى تجنيد كل الطاقات والإمكانات فى سبيل هدف السلام ، وفضلاً عن ذلك فإن الإسلام نفسه يمثل الطريق المستقيم إلى السلام . والمسلمون - انطلاقًا من تعاليم دينهم - يريدون السلام ، والعالم الإسلامى يرى جذور حضارته فى الإسلام ، تلك الحضارة التى سادت فى العالم قرونًا عديدة، وكانت من أطول الحضارات عمرًا فى التاريخ ، وكانت حافزًا قويّا للغرب فى بناء حضارته الحديثة .

وقد خبر العالم الكثير من الأيديولوچيات التى وعدت بالسلام، ولم تستطع أن تفى بوعودها ، بل انهارت وانهارت معها أحلامها الوردية التى طالما داعبت بها قلوب الجماهير وعقولهم ، ولكن السلام - الذى يعطيه الإسلام للمؤمنين به - يعد قوة حيوية متدفقة، تستمد قوتها وحيويتها من الله مانح السلام . ومن أجل ذلك لا يمكن أن يتسرب اليأس أو الإحباط إلى قلوب المؤمنين بسبب ما يلاحظونه من انتشار الظلم فى العالم على نطاق واسع ﴿**إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [يوسف : ٨٧] .

فالعالم الذى نعيش فيه لا يخضع لإرادة عشوائية ، فقد خلقه الله على أفضل وجوه النظام والإبداع ، فإذا أردنا أن نسلك طريق السلام فإننا نسهم بذلك فى

استعادة النظام الأصلى للخلق ، وبهذا الاعتبار يكون نظام العالم وسلامه فى أيدينا بوصفه أمانة فى أعناقنا ومسئولية فى ضمائرنا ، فالله قد خلقنا فى هذا العالم لنعمره بالبناء والخير، حتى ينعم الناس فيه بالسلام ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود : ٦١].

أى : طلب منكم عمارتها لا تخريبها ، والتعمير يتطلب السلام، أما التخريب فإنه صنو الحرب والدمار.

والمطلوب الآن من الأسرة الإنسانية الكبيرة أن تبذل أقصى جهدها فى سبيل التغلب على كل الأخطار التى تتهددها وأن تعمل بإيجابية وفاعلية من أجل سلام العالم.

أما الأديان فإن لها دوراً كبيراً فى صنع السلام؛ لأن السلام من وجهة النظر الدينية يعنى أساساً صلة قوية وسليمة بالله ـ سبحانه . هذه الصلة الوثيقة تنبثق منها كل الصلات الأخرى .

وهكذا يتضح لنا أننا عندما نحاول أن نسهم بنصيب فى صنع السلام فى العالم فإننا بذلك نسهم فى الوقت نفسه فى إقامة نظام عالمى عادل فى هذا العالم والعكس بالعكس .

والمشكلة الرئيسية فى المجتمع العالمى الراهن تتمثل فى كيفية ممارسة القوة دون عنف، نظراً لأن أى عنف سيرتد علينا جميعاً من حيث إننا جميعاً نجلس فى زورق واحد، وبالتالى فإن كل عنف سوف ينعكس علينا بشكل أو بآخر إن عاجلاً أو آجلاً.

وقد لفت النبى ـ ﷺ ـ نظرنا إلى ضرورة البحث عن أسلوب فعال للتضامن بين البشر إذا أرادوا ألا يكونوا عرضة للهلاك ، وفى ذلك يقول : «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم**

فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[1] .

وهذا الخرق فى السفينة الذى ورد فى هذا الحديث الشريف يذكرنا بثقب الأوزون الذى يهدد الآن عالمنا الذى نعيش فيه ، فضلاً عن أن المقارنة بالسفينة فى الحديث تذكرنا أيضًا بأننا ـ بالفعل ـ محمولون على الأرض ، كما لو كنا فى سفينة عبر الفضاء .

وهكذا يتضح لنا أنه من خلال العمل التضامنى المشترك يمكن إنقاذ العالم ، فالفرقة والتنازع هما سبب الفشل :

﴿ **وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

والأمر يتعلق بالبشرية ككل وليس بفئة معينة من الناس ، وكل فرد من أفراد الإنسانية يعد عنصراً هامًا بالنسبة للإنسانية كلها ، ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وهذا يعنى أن مرتكب هذا الجرم قد محا الإنسانية من نفسه ودمرها فى داخله ، وعلى العكس من ذلك فإن من يقدم الخير لفرد واحد من أفراد الإنسانية فكأنه قدم الخير للإنسانية كلها ، ومن هنا يقول القرآن الكريم مكملاً الآية السابقة ﴿ **وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ .

فإذا أدركنا على هذا النحو القيمة الفريدة لكل حياة إنسانية فإننا نكون قد اتخذنا الموقف الذى يدعم السلام بين الناس ، ذلك لأننا ندرك عندئذ أن الآخر مهم بالنسبة لنا تمامًا مثل أنفسنا .

وقد أعطانا الله ـ حين جعلنا أحراراً ـ القدرة على تحمل المسئولية عن أنفسنا ، وبالتالى المسئولية عن الآخرين ، وعن عالمنا الذى نعيش فيه ؛ لأننا جميعًا وبنفس القدر جزء من الخلق الواحد .

---

(١) سبقت الإشارة إليه فى أكثر من موضع .

ولم يحملنا الله بذلك شيئًا فوق طاقتنا ، إنه يطلب من الإنسان أن يكون إنسانًا فحسب ، لا يريده ملكًا ، ولا يريده فى الوقت نفسه فى أسفل دركات البهيمية . وتحقيق هذه الإنسانية يعنى أن يعمل الإنسان ما يتفق مع الكرامة الإنسانية ، وهذا يعنى الكثير ، إنه يعنى من بين ما يعنى ـ على سبيل المثال ـ أن يكون هناك تطابق بين القول والفعل لدى الإنسان ، فإذا أعطى وعدًا لزمه الوفاء به دون أدنى تراخ .

وهكذا يتحتم على المسلمين الوفاء بما قطعوه على أنفسهم من عهود ومواثيق فى كل الأحوال حتى مع غير المسلمين ، فالعدالة لا تتجزأ ، فإذا طلبت فئة مسلمة منا أن نساعدها فى حربها ضد أعدائها فعلينا أن نستجيب لندائها ونهب لمساعدتها .

ولكن القرآن يستثنى هنا حالة معينة تحول بيننا وبين الاستجابة لتلبية نداء هذه الفئة المسلمة، وذلك فى حالة ما إذا كان بيننا وبين هؤلاء الأعداء عهد أو ميثاق . إننا فى هذه الحالة مطالبون بالوفاء بما قطعناه على أنفسنا .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

وبصفة عامة تتمثل الإنسانية التى يطلبها الإسلام من الناس فى احترام كل فرد بشرى للآخر : احترام حريته وكرامته وحقوقه .

وفى هذا الصدد ورد أن النبى ﷺ مرت به جنازة فقام واقفًا احترامًا للميت، فقيل له : إنها جنازة يهودى ، فقال : «**أليست نفسًا**» (١) .

والإسلام لا يقلل من قيمة أى عمل سلمى حتى ولو كان أقل القليل ، إذ فيه امتداح للخلق واستجابة له ، ومن أجل ذلك يقول النبى ﷺ : «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**»(٢) .

والوجه الطلق البشوش فى إخلاص يكون تعبيراً عن قلب متفتح للخير ، ومملوء

---

(١) راجع فتح البارى ج ٣، ص ١٧٩ وما بعدها .

(٢) راجع صحيح مسلم، ج ٤ ص ٢٠٢٦ .

بالسلام، وبعيد عن الكبر والبغى . وفى هذا المعنى يقول الرسول ﷺ: «**إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد**»[1] .

٥ـ الإسلام والسلام العالمى

يمكننا أن نلخص تأملاتنا حول السلام فى التصور الإسلامى فى صورة ثلاث دوائر متداخلة : أما الدائرة الأولى فإنها تتمثل فى السلام النفسى الذى يحظى به الإنسان فى داخله ، وهذا السلام النفسى يكون ممكنًا عن طريق الدائرة الثانية ، أى : عن طريق السلام مع الله كما يتمثل ذلك فى العقيدة الدينية ، وكلتا الدائرتين تجعلان الدائرة الثالثة ممكنة، وهى التى تتمثل فى السلام مع الآخرين ومع العالم الذى يحيط بنا ، والدوائر الثلاث جميعها يوثر كل منها فى الآخر .

وإذا كان المسلم ـ طبقًا لعقيدته ـ مطالبًا بالسلام مع الآخرين ومع عالمه المحيط به فإن هذا يعنى أن المسلمين مطالبون بالسلام مع العالم الذى يعيشون فيه . وفكرة السلام العالمى تتضمن أن كل شعوب العالم ينبغى أن تتاح لها فرصة السلام، وبالتالى المشاركة فى صنعه .

والمسلمون يرون أن السلام العالمى يعد ضرورة لإنقاذ العالم، ومن ثم يريدون أن يكون لهم نصيب فى المشاركة فى صنعه .

والخطوة الأولى الهامة على طريق السلام العالمى تتمثل فى وضع نهاية لما تتعرض له بعض الشعوب أو الجماعات أو الأديان من عدوان على أرضها وانتهاك لحقوقها وامتهان لكرامتها . وبعبارة أخرى فإن شروط تحقيق السلام فى العالم تتمثل فى ضرورة الاعتراف بحق كل إنسان على هذه الأرض فى حفظ حياته وعقله ودينه وماله وأسرته .

ويمكننا أن نتعلم من دروس التاريخ ؛ لنتبين القيمة الحقيقية للسلام فى العالم ، فدروس التاريخ تبين لنا أن الحروب لا تستطيع أن تحل المشكلات ، بل إنها فى واقع الأمر تؤدى إلى ظهور مشكلات جديدة، وفى أفضل الأحوال تؤخر حل المشكلات على نحو باهظ التكاليف ، وربما تجعل حل المشكلات أمرًا مستحيلاً .

---

(١) صحيح مسلم، ج ٤ ص ٢١٩٩ .

وإذا أردنا أن نقيم السلام فى العالم فلا يجوز لنا أن نعيد الحياة من جديد إلى عداوات الماضى السحيق أو القريب وما سببته من عقد مختلفة وعواقب وخيمة ، وبدلاً من ذلك ينبغى أن نتجه إلى بناء المستقبل بفكر إيجابى من أجل العثور على فرص جديدة وحلول بناءة .

ونحن نقف اليوم إزاء عوالم جديدة وأجيال جديدة لم يكن لها ذنب فيما تم اقترافه فى عصور سابقة من مظالم ، كما أنها لا تمتدح أيضًا على ما بذلته أجيال سابقة من جهود إيجابية وإسهامات بناءة ، وكل ما تحتاجه منا هذه الأجيال الجديدة أن نتيح لها الفرصة للمشاركة الإيجابية فى بناء حياة مثمرة ، وينبغى أن ندرك أن الظروف الحياتية الجديدة فى العالم تتطلب البحث باستمرار عن حلول جديدة للسلام .

والعالم الإسلامى الذى يشكل سكانه أكثر من خمس سكان العالم مطالب بالمشاركة بفاعلية من أجل السلام، وهذا يتطلب إتاحة الفرصة أمامه؛ لكى يستطيع أن يجند فى سبيل ذلك جهوده دون عوائق داخلية أو خارجية ، حتى ينطلق إلى آفاق رحبة للتعاون المثمر مع كل القوى المحبة للسلام فى العالم . والإسلام يمتاز عن غيره من الديانات بأنه يعترف من حيث المبدأ بكل الديانات السماوية السابقة عليه [1] ، ومن أجل ذلك يستطيع أن يعيش فى سلام مع كل الأديان الأخرى ، وأن يتعاون معها من أجل إرساء دعائم السلام فى العالم .

ولكن السلام فى العالم لا يمكن تحقيقه إلا إذا تم الاعتراف لجميع الشعوب بلا استثناء بحقها فى تقرير مصيرها وصياغة حياتها على النحو الذى يتواءم مع عقيدتها وحضارتها ، ولا شك فى أن هناك جهودًا كثيرة من جهات عديدة تسعى لحلول سلمية للمشكلات العالمية ، ولكن مصداقية مؤسسات السلام العالمية تهتز كثيرًا وتتأثر على نحو خطير إذا لم تستطع أن تبرهن على أنها تسعى إلى تحقيق العدالة بطريقة لا تعرف التحيز أو المعايير المزدوجة .

ولسنا ننكر أن هناك قانونًا دوليًا قائمًا، ولكن الأمر لا ينبغى أن يقف عند حد الإعلان عن ذلك ، بل ينبغى أن ينفذ هذا القانون على نحو عملى وعلى الجميع بلا

---

(١) ومن ذلك قوله -تعالى- : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

استثناء، وهذا أمر لا يحدث بكل أسف ، وهذه حقيقة يمكن بسهولة أن يتبينها المرء فى كل مكان فى العالم، وفى فلسطين بصفة خاصة .

إن القانون لا ينبغى أن يكون فى جانب الدول الغنية فقط ، بل ينبغى أن يشعر الجميع أغنياء وفقراء بأنهم أمام القانون سواء، فالعدالة لا تتجزأ .

صحيح أن تعقيدات مشكلات السلام العالمى قد أصبحت متشعبة على نحو يصعب على المرء الإحاطة بها ، ولكن هذه المشكلات تصبح مستعصية على الحل ، بل مستحيلة الحل إذا لم يبد من بيدهم الأمر الرغبة فى المحاولة الصادقة لحل المشكلات على نحو غير متحيز .

وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن الإشارة إلى بعض النماذج لهذه المشكلات : فالحروب العدوانية ينبغى منعها أيّا كان مصدرها ويجب معاقبة الذين يقومون بإشعالها ، والشىء نفسه ينطبق على المحاولات التوسعية لما يسمى بالمناطق المحتلة . والاعتداءات على حقوق الإنسان فى العالم ينبغى تحريمها وتجريمها ومعاقبة مقترفيها، ويجب أن تخضع الدول الغنية والفقيرة على السواء للقانون الدولى .

والإسلام يؤكد فى تعاليمه على ضمان حقوق الإنسان العامة بوصفها أساسًا للسلام . وتتمثل الحقوق الأساسية لكل إنسان ـ من وجهة النظر الإسلامية ـ فى حقوق خمسة هى : حفظ النفس والدين والعقل والمال والنسل ، ويتبين لنا مدى الاهتمام البالغ الذى أبداه الإسلام فى هذه القضية الجوهرية، وذلك بجعله هذه الحقوق الأساسية المشار إليها مقاصد للشريعة الإسلامية[(١)] . والإسلام إذ يؤكد على هذه الحقوق فإنه من ناحية أخرى يؤكد أيضًا على الممارسة المسئولة والواعية للواجبات الإنسانية العامة .

ولا شك فى أن الممارسة المسئولة للحقوق والواجبات عن طريق الأفراد والجماعات والشعوب من شأنها أن تدعم فرص السلام وتهيىء المناخ الملائم للتعاون الدولى من أجل سلام العالم الذى هو سلامنا جميعًا .

---

(١) راجع : الموافقات فى أصول الشريعة لأبى إسحاق الشاطبى ، ج٢ ص ٨-١٠ ، دار المعرفة ـ بيروت (دون تاريخ) . راجع أيضًا كتابنا : مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد ـ من نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

الفصل الخامس عشر

التسامح فى الإسلام

- تمهيد
- التسامح الإيجابى الشامل
- التسامح والتعددية
- التسامح والحوار
- التسامح الدينى
- خاتمة

التسامح فى الإسلام(*)

تمهيد

الإسلام دين عالمى يتجه برسالته إلى البشرية كلها ، تلك الرسالة التى تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم وترسى دعائم السلام فى الأرض، وتدعو إلى التعايش الإيجابى بين البشر جميعًا فى جو من الإخاء والتسامح بين كل الناس بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم . فالجميع ينحدرون من " نفس واحدة " (١) .

وعالمنا اليوم فى أشد الحاجة إلى التسامح الفعال والتعايش الإيجابى بين الناس أكثر من أى وقت مضى، نظرًا لأن التقارب بين الثقافات والتفاعل بين الحضارات يزداد يومًا بعد يوم بفضل ثورة المعلومات والاتصالات والثورة التكنولوچية التى أزالت الحواجز الزمانية والمكانية بين الأمم والشعوب، حتى أصبح الجميع يعيشون فى قرية كونية كبيرة .

والإسلام دين يسعى من خلال مبادئه وتعاليمه إلى تربية أتباعه على التسامح إزاء كل الأديان والثقافات . فقد جعل الله الناس جميعًا خلفاء فى الأرض التى نعيش فوقها ، وجعلهم شركاء فى المسئولية عنها ، ومسئولين عن عمارتها ماديًّا ومعنويًّا ـ كما يقول القرآن الكريم ـ : ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ [هود: ٦٢] . أى طلب منكم عمارتها وصنع الحضارة فيها . ومن أجل ذلك ميز

(*) محاضرة أعدت للأكاديمية الأوروپية للعلوم والفنون بمدينة سالتسبورج Salzburg بالنمسا بمناسبة منح الكاردينال الدكتور فرانتس كونيج Franz Koenig ـ رئيس أساقفة النمسا السابق جائزة التسامح فى ٢٥ سبتمبر ١٩٩٩م ، وذلك بناء على طلب الأكاديمية المذكورة بصفتى عضواً فيها .

(١) كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [النساء : ١] .

الله الإنسان بالعقل وسلحه بالعلم حتى يكون قادراً على أداء مهمته وتحمل مسئولياته فى هذه الحياة .

ولهذا يوجه القرآن الكريم خطابه إلى العقل الإنسانى الذى يعد أجل نعمة أنعم الله بها على الإنسان . ومن هنا فإن على الإنسان أن يستخدم عقله الاستخدام الأمثل ، وفى الوقت نفسه يطلب القرآن من الإنسان أن يمارس حريته التى منحها الله له والتى هى شرط ضرورى لتحمل المسئولية . فالله - سبحانه - لا يرضى لعباده الطاعة الآلية التى تجعل الإنسان عاجزاً عن العمل الحر المسئول . فعلى الإنسان إذن أن يحرص على حريته وألا يبددها فيما يعود عليه وعلى الآخرين بالضرر .

ومن شأن الممارسة المسئولة للحرية أن تجعل المرء على وعى بضرورة إتاحة الفرصة أمام الآخرين لممارسة حريتهم أيضًا ؛ لأن لهم نفس الحق الذى يطلبه الإنسان لنفسه . وهذا يعنى أن العلاقة الإنسانية بين أفراد البشر هى علاقة موجودات حرة يتنازل كل منهم عن قدر من حريته فى سبيل قيام مجتمع إنسانى يحقق الخير للجميع . وهذا يعنى بعبارة أخرى أن هذا المجتمع الإنسانى المنشود لن يتحقق على النحو الصحيح إلا إذا ساد التسامح بين أفراده ، بمعنى أن يحب كل فرد فيه للآخرين ما يحب لنفسه .

التسامح الإيجابى الشامل

ولا شك فى أن وعينا بأننا خطّاءون[١] يواكبه فى الوقت ذاته وعينا بمسئوليتنا التى ترتكز عليها كرامتنا الإنسانية ، الأمر الذى يمكّننا من السلوك القويم المتسامح حيال الآخرين الذين يشاركوننا فى الإنسانية ، والذين ينبغى أن يربطنا بهم رباط التضامن الإنسانى المشترك . والتسامح - كما ألمحنا - يقوم على الاعتراف بحرية وكرامة كل إنسان . ونحن مطالبون أخلاقيّا ودينيّا أن نكون متسامحين مع كل البشر بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والثقافية والدينية والإيديولوجية .

---

(١) فى ذلك إشارة إلى الحديث النبوى : «كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون» . رواه عن أنس كل من الإمام أحمد فى مسنده والترمذى وابن ماجه والحاكم فى المستدرك . راجع : (فيض القدير للمناوى ج٥ ص١٦ - دار المعرفة بيروت ١٩٧٢م) .

ولا يكتفى الإسلام بتعليم أتباعه هذا التسامح الشامل بوصفه شرطًا من شروط السلام الضرورى للمجتمع الإنسانى ، بل يطلب منهم أيضًا الالتزام بالسلوك العادل الذى لا يقبل بالآخر فحسب ، بل يحترم ثقافته وعقيدته وخصوصياته الحضارية . وخير وصف يمكن أن نطلقه على هذا التسامح أنه تسامح إيجابى وليس تسامحًا حياديًّا . وفى هذا يقول القرآن الكريم :

﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة : ٨] .

ومن الملاحظ فى هذه الآية - وفى آيات أخرى كثيرة - أن القرآن لم يستخدم أسلوب الأمر بطريق مباشر ، وإنما استخدم أسلوب التنبيه والتوجيه الذى يتطلب استخدام العقل الإنسانى . ومن عادة القرآن أن يعالج المشكلات بطريقة متدرجة تتفق مع ثقافة كل فرد . والإسلام لا يريد أن يقول للناس كلامًا ليحفظوه ويعملوا به بطريقة آلية ، وإنما يريد تربية النفس وتحقيق الذات والعمل المسئول الذى يؤدى عن اقتناع .

ويشتمل النص القرآنى الذى أوردناه على ثلاثة أمور **أولها:** أن الله - سبحانه وتعالى - لم ينه عن التسامح مع الآخرين ، **وثانيها:** أن التسامح مع الآخرين الذين لم يعتدوا على المسلمين والتعايش الإيجابى معهم بالبر والقسط هو العدل بعينه ، **وثالثها:** التأكيد على أن من يسلك هذا السبيل يحظى بحب الله - سبحانه وتعالى .

وبهذا الأسلوب المقنع الذى يخلو من الإكراه على فعل شىء ما أو الامتناع عنه تصل الرسالة القرآنية - رسالة التسامح - إلى النفوس فى يسر وسهولة ، وتحقق الهدف المطلوب وهو نشر التسامح بين الناس على أوسع نطاق .

التسامح والتعددية

ومن هنا لا يجوز أن ينظر إلى اختلاف الجماعات البشرية فى أعراقها وألوانها ومعتقداتها ولغاتها على أنها تمثل حائلاً يعوق التقارب والتسامح والتعايش الإيجابى بين الشعوب . فقد خلق الله الناس مختلفين : ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ** ﴾ [هود : ١١٨-١١٩] ، كما يقول القرآن الكريم .

ولكن هذا الاختلاف بين الناس فى أجناسهم ولغاتهم وعقائدهم لا ينبغى أن يكون منطلقًا أو مبررًا للنزاع والشقاق بين الأمم والشعوب ، بل الأحرى أن يكون هذا الاختلاف والتنوع دافعًا إلى التعارف والتعاون والتآلف بين الناس من أجل تحقيق ما يصبون إليه من تبادل للمنافع وتعاون على تحصيل المعايش وإثراء للحياة والنهوض بها . ومن هنا يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣]. والتعارف هو الخطوة الأولى نحو التآلف والتعاون فى جميع المجالات .

وحتى يمكن الوصول إلى هذا الهدف كان لابد من إيجاد وسيلة للتفاهم وتبادل المشاعر والأفكار بين الناس . فكانت اللغة التى يتخاطب بها الناس ويعبرون بها عن أغراضهم ومشاعرهم وأفكارهم . ويُعد التفاهم عن طريق اللغة أسلوبًا راقيًا للتواصل بين البشر وتبادل الأفكار الذى يؤدى إلى تبادل المنافع فيما بينهم .

ولا يجوز أن يؤدى الخلاف فى الرأى أو فى الفكر أو فى الاعتقاد إلى إفساد ما بين الناس من علاقات . وهذا ما يعبر عنه القول المشهور : «**الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية** ». وكما أعطى لنفسى الحق فى أن يكون لى رأيى الخاص ووجهة نظرى المستقلة ، فكذلك ينبغى أن أعطى الحق ذاته للآخر . فمن حقه أيضًا أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة ، بل ومن حقه أن يكون له معتقده المختلف . فكل فرد فى هذا الوجود له شخصيته المستقلة . وقد أعطانا الله رمزًا لهذه الاستقلالية يتمثل فى عدم اتفاق بصمة إبهام فردين فى هذا الوجود مع بعضهما . فالخلاف فى الرأى إذن شىء طبيعى وليس أمرًا شاذًا .

ومن هنا فإنه لا ينبغى أن يضيق المرء صدرًا بالآراء المخالفة لرأيه ، ليس فقط فى مجال الأمور اليومية العادية ، بل حتى فى أمور الدين والفكر والسياسة . فلا يجوز لطرف من الأطراف أن يدعى لنفسه أنه وحده الذى يملك الحق المطلق وأن غيره يقف فى الطرف المقابل الذى يتساوى مع الباطل . وقد عبر الإمام الشافعى عن هذا المعنى فى تسامح رائع قائلا : «**رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب**» .

وقد بلغت السماحة فى الفكر الإسلامى المستنير فى هذا الصدد حدًّا لا نظير له، عبر عنه الشيخ محمد عبده بما " اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام دينهم " قائلاً: " إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حُمل على الإيمان ، ولا يجوز حمله على الكفر " ويعقب الشيخ على ذلك قائلاً : فهل رأيت تسامحًا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ (١) .

التسامح والحوار

إن الحوار فى معناه الصحيح لا يقوم ولا يؤدى إلى الهدف المنشود إلا إذا كان هناك احترام متبادل بين أطراف الحوار ، واحترام كل جانب لوجهة نظر الجانب الآخر . وبهذا المعنى فإن الحوار يعنى التسامح واحترام حرية الآخرين، واحترام الرأى الآخر لا يعنى بالضرورة القبول به . وليس الهدف من الحوار مجرد فك الاشتباك بين الآراء المختلفة أو تحييد كل طرف إزاء الطرف الآخر ، وإنما هدفه الأكبر هو إثراء الفكر وترسيخ قيمة التسامح بين الناس ، وتمهيد الطريق للتعاون المثمر فيما يعود على جميع الأطراف بالخير ، وذلك بالبحث عن القواسم المشتركة التى تشكل الأساس المتين للتعاون البناء بين الأمم والشعوب . والحوار بهذا المعنى يعد قيمة حضارية ينبغى الحرص عليها والتمسك بها وإشاعتها على جميع المستويات .

والوعى بذلك كله أمر ضرورى يجب أن نعلمه للأجيال الجديدة ، وبصفة خاصة عن طريق القدوة وليس عن طريق التلقين . فالواقع المؤلم أنه كثيرًا ما تحدث مشادات عنيفة تخرج عن نطاق الموضوعية ، وربما يتطور الأمر إلى شجار وتماسك بالأيدى بين الأطراف المختلفة فى الرأى؛ لأن كل جانب يريد فرض رأيه بشتى السبل، ولا يقتصر ذلك على المستويات الدنيا فى المجتمع ، بل ينسحب على شريحة لا يستهان بها بين المشتغلين بالفكر وبالثقافة بصفة عامة ، حيث يصل الأمر فى أحيان كثيرة إلى حد الخروج عن مناقشة الفكر بالفكر إلى الشتائم والتجريح

---

(١) راجع الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده ، ص ٥٣ ، دار المنار بمصر ١٣٧٣هـ .

الشخصى الذى لا صلة له بالنقاش الموضوعى . وإن دل هذا الخروج عن الموضوعية على شىء فإنما يدل على ضحالة فى الفكر وقصور فى الحجة وفقر فى المنطق .

وهذا الخروج عن الموضوعية فى الحوار على هذا النحو أمر لا يليق بالإنسان الذى كرمه الله ، وفضله على بقية الكائنات ، وميزه بالعقل ، وجعله خليفة فى الأرض ليعمرها بالخير ، ويملأها بالعلم ، وينشر فيها الحق والعدل والأمن والسلام .

ولا جدال فى أن الحوار قد أصبح فى عصرنا الحاضر أكثر إلحاحًا من أى وقت مضى ، بل أصبح ضرورة من ضرورات العصر ، ليس فقط على مستوى الأفراد والجماعات ، وإنما على مستوى العلاقات بين الأمم والشعوب المختلفة .

وإذا كانت بعض الدول فى القرن الجديد لا تزال تفضل شريعة الغاب بدلاً من اللجوء إلى الحوار فإن على المجتمع الدولى أن يصحح الأوضاع ، ويعيد مثل هذه الدول الخارجة على القيم الإنسانية والحضارية إلى صوابها حتى تنصاع إلى الأسلوب الحضارى فى التعامل وهو الحوار . فليس هناك من سبيل إلى حل المشكلات وتجنب النزاعات إلا من خلال الحوار .

ومن منطلق الأهمية البالغة للتعارف[1] بين الأمم والشعوب والحضارات والأديان ـ على الرغم من الاختلافات فيما بينها ـ كانت دعوة الإسلام إلى الحوار بين الأديان . وذلك لما للأديان من تأثير عميق فى النفوس . ويعد الإسلام أول دين يوجه هذه الدعوة واضحة صريحة فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

ولم يكتف القرآن بمجرد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، بل رسم المنهج الذى ينبغى اتباعه فى مثل هذا الحوار . وذلك فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

---

(١) كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

أمـا الحكم على الآخرين الذين يشاركـوننا فى الإنسـانية ، فيجدر بنا أن نتركه لله ـ جل شـأنه ـ وخير لنا بدلاً من ذلك أن نجتـهـد فى أن نسلك حيـالهم مسلكًا عـادلاً متسامحًا طالما لم يسيئوا إلينا . فالدين لا يحفل إلا بالأعمال التى نتحمل نحن مسئوليتها . ولهذا يقول القرآن الكريم فى موضع آخر : ﴿ **وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [الشورى : ١٥] .

التسامح الدينى

ونظرًا لما للدين من عـمق عـميق فى النفوس فـإن الحوار بين الأديان لا يمكن أن يكتب له النجاح إلا إذا ساد التسامح بين المتحاورين ، وحل محل التعصب المعتاد بين أتباع الديانات المختلفة . وقد حرص الإسلام كل الحرص على تأكيد هذا التسامح بين الأديان بجعله عنصرًا جوهريًا من عناصر عقيدة المسلمين .

فالأديان السماوية جميعها تعد ـ فى نظر الإسلام ـ حلقات متصلة لرسالة واحدة جاء بها الأنبياء والرسل من عند الله على مدى التاريخ الإنسانى . ومن هنا فإن من أصول الإيمان فى الإسلام الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم من وحى إلهى . وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

ومن أجل ذلك يمتاز الموقف الإسلامى فى أى حوار دينى بأنه موقف منفتح على الآخرين ، ومتسامح إلى أبعد الحدود . فقد أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية والثقافية ، وصارت هذه التعددية من العلامات المميزة فى التعاليم الإسلامية . والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة . فقد تأسس مجتمع المدينة المنورة بعد هجرة الرسول إليها على التعددية الدينية والثقافية ، ومارس المسلمون ذلك من بعده عمليًا على مدى تاريخهم الطويل .

ويؤكد ذلك ما يعرفه التاريخ من أن المسلمين لم يكرهوا أحدًا على الدخول فى الإسلام . فالحرية الدينية مكفولة للجميع ، وتعد مبدأ من المبادئ الإسلامية الذى

أكده القرآن الكريم فى قوله : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . وفى قوله فى موضع آخر : ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف : ٢٩] .

ومن القواعد الأساسية المعروفة فى الشريعة الإسلامية فى شأن التعامل مع أهل الكتاب القاعدة المعروفة : **(لهم ما لنا وعليهم ما علينا)** ، أى : لهم ما لنا من حقوق، وعليهم ما علينا من واجبات .

خاتمة

ومما تقدم يتضح لنا بجلاء إلى أى مدى يعتبر التسامح الإيجابى ـ بوصفه تسامحًا شاملاً أو تسامحًا دينيّا ـ من العناصر الأساسية فى تعاليم الإسلام ، وبالتالى من الأهداف التى ترمى إليها التربية الإسلامية .

ومن هنا فإن التزام المسلمين بذلك وحمايتهم لحقوق أتباع الديانات الأخرى الذين يعيشون فى المجتمعات الإسلامية أمر يدخل فى إطار التزاماتهم الدينية التى تقضى بالحفاظ والدفاع عن الحقوق الإنسانية العامة للجميع . وأى تجاوز أو عدوان على هذه الحقوق يعد تجاوزًا وعدوانًا على تعاليم الدين ، وهو أمر يجب على المسلمين التصدى له بكل الوسائل . وفى هذا الإطار يفهم أيضًا حديث النبى ﷺ : «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان**»(١) .

ومن هنا فإنه ليس من التسامح فى شىء الوقوف موقف المتفرج حيال الظلم والقسوة اللذين يتعرض لهما أى إنسان، بصرف النظر عن جنسه أو لونه أو عقيدته .

وفى ختام حديثنا عن التسامح أود أن أشير إلى إحدى المأثورات الثابتة عن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ والتى تعد نموذجًا رائعًا على التسامح الإسلامى الإيجابى . فقد كان عمر يتجول كعادته فى شوارع المدينة المنورة يتفقد

---

(١) رواه كل من الإمام مسلم والحاكم فى المستدرك وأصحاب السنن الأربعة : أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه (راجع : فيض القدير للمناوى ج ٦ ص ١٣٠) .

أحوال الرعية ، فرأى شيخًا طاعنًا فى السن يتسول فى الطريق ، فسأل عن أمره وعلم أنه يهودى . فحزن الخليفة لما أصاب هذا الشيخ الهرم مما اضطره إلى التسول، وأمر بأن يخصص له - ولنظرائه - معاش ثابت من بيت مال المسلمين يتيح له حياة كريمة . وهذا الخليفة هو نفسه صاحب العبارة الشهيرة : "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا" (١) .

ومن هذه الأمثلة - وغيرها كثير - يتجلى بوضوح مدى حرص الإسلام على الدفاع عن حرية الإنسان وكرامته وحقوقه الإنسانية العامة بصرف النظر عن انتماءاته العرقية أو الدينية أو الثقافية . وذلك كله يعبر تعبيرًا لا يقبل التأويل عن التسامح الإسلامى الذى سيظل عنوانًا على هذا الدين إلى آخر الزمان .

***

(١) راجع على الطنطاوى : أخبار عمر ص ١٨٢ وما بعدها - دمشق ١٩٥٩م .

الفصل السادس عشر

عالم واحد للجميع

١ ـ من مشكلات العالم المعاصر

٢ ـ الوحدة من خلال التعددية

٣ ـ حوار الأديان

ـ كلمة ختامية

عالم واحد للجميع(*)

١ - من مشكلات العالم المعاصر

إذا كنا حقّا نريد أن نبنى عالماً واحدًا للجميع ، فعلى الأديان أيضًا أن تسهم فى تحقيق هذا الهدف بنصيبها على نحو فعال . وذلك عن طريق الحوار الدينى الذى أصبح اليوم أكثر إلحاحًا من أى وقت مضى ، للتصدى بقوة للمفاهيم الخاطئة والأحكام المسبقة القائمة بين الأديان ، وتلك مهمة ليست سهلة . ولعل من المفيد فى هذا الصدد إلقاء نظرة واقعية على الوضع الراهن فى عالم اليوم .

لقد أصبحت البشرية تهيمن فعلاً هيمنة متزايدة على العالم من الناحية التقنية ، وبدرجة لم يكن يتوقعها أحد من قبل ، ولكن البشرية مع ذلك تتساءل بشكل ملح ومتزايد باستمرار عن كيفية السيطرة على مستقبل هذا العالم الذى أصبح بمثابة قرية كونية كبيرة .

ولقد أصبح من الضرورى إلى جانب التصدى للفقر المتزايد فى كل جنبات المعمورة مواجهة الاتجاهات التخريبية والعدوانية المتزايدة فى كل مكان ، تلك الاتجاهات التى يجب أن يحل محلها التعاون السلمى الفعال بروح من التفاهم المتبادل والتسامح الخالص .

إن الأمر لم يعد فقط أمر مشكلة بقاء البشرية من الناحية المادية وبقاء كوكبنا الأرضى المستنزف على نحو غير مسبوق ، وهى مشكلة أصبحت اليوم موضع

(*) كلمة ألقيت فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر المسيحى الإسلامى العالمى الثانى الذى انعقد فى ڤيينا بالنمسا عام ١٩٩٧م حول موضوع " عالم واحد للجميع " أساسيات التعددية الاجتماعية والثقافية . وقد نشرت فى : . Bsteh, A., Eine Welt fuer alle . Moedling b Wien, 1999 .

تساؤل جدى ، إنما الأمر بالأحرى يدور حول كيفية العمل على إنقاذ أدوات السلام بجوهرها الحقيقى ، ونعنى بهذه الأدوات بصفة خاصة الأديان والحضارات التى انبثقت منها .

صحيح أن الإنسان جزء من الطبيعة وأن له الكثير من المتطلبات البيولوچية والمادية ، ولكن طبيعته الحقيقية وكرامته تكمنان فى موهبته الخاصة المتمثلة فى قدرته على التفكير العقلى الحر ، أى فى قدراته العقلية .

وتتركز المناقشات حاليًا بصفة خاصة على مشكلات بعينها من بين المشكلات الكثيرة القائمة ، ونعنى بذلك قضيتين هامتين هما : قضية تعايش الأديان والحضارات ، وقضية التطبيق العملى لحقوق الإنسان العامة . وهما قضيتان مرتبطتان ببعضهما فى حقيقة الأمر برباط وثيق . وهذا يعنى أن الهدف الذى ينبغى أن نرمى إليه بصفة أساسية هو كيف يمكننا فى مجتمع العولمة أن نحقق تعددية دينية وحضارية أصيلة وأن نحقق بذلك أيضًا اعترافًا فعالاً بحقوق الإنسان العامة للبشر كافة .

٢ـ الوحدة من خلال التعددية

والتعددية الدينية والثقافية ليست فقط ممكنة فى نظر الإسلام ، بل إنها من الناحية الدينية مطلب من مطالبه . وتعد الوحدة من خلال التعددية بهذا المعنى مبدأ إسلاميّا أصيلاً . ومن أجل ذلك فإن الاحترام الواجب لحقوق الإنسان بالنسبة للناس كافة يمثل مطلبًا من المطالب الإسلامية الرئيسية .

ولقد أقر النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ منذ البداية وعلى نحو نموذجى فى دستور المدينة المنورة التعددية الدينية وحقوق الإنسان المتساوية لكل المواطنين، ودستور المدينة المنورة الذى أُعلن قبل أربعة عشر قرنًا اعتبر اليهود ـ الذين كانوا يعيشون فى المدينة آنذاك ـ أمة تكوِّن مع أمة المسلمين مجتمع المدينة المنورة .

وقد نصت الوثيقة على أن لليهود نفس الحقوق التى للمسلمين وعليهم نفس الواجبات التى على المسلمين ، وتبرز الوثيقة بوضوح اختلاف هاتين الأمتين فى

الدين . وهكذا تبنى النبى - عليه الصلاة والسلام - قبل أربعة عشر قرنًا قضية حرية العقيدة والتعددية الدينية وما يرتبط بهما من اختلاف فى العادات والتقاليد [1] .

والتعددية الدينية بهذا المعنى لا يصح اعتبارها مساوية للنسبية الدينية . فكل دين له بلا شك - بالنسبة إلى المؤمنين به - مطلب امتلاك الحقيقة المطلقة . ولكن هذا المطلب لا يتعارض من وجهة النظر الإسلامية مع الاعتراف بالأديان السماوية الأخرى؛ لأنها جميعًا فى نظر الإسلام ربانية المصدر .

ويجب على المسلمين لهذا السبب أن يعترفوا بأنبياء الله جميعًا ، مثل موسى وعيسى وغيرهما ، بوصفهم رسلاً من عند الله - سبحانه وتعالى . والمسلم الذى لا يؤمن بذلك ليس مسلمًا حقيقيّا . والقرآن الكريم يقرر أن الله - سبحانه وتعالى - قد جعل لكل من هذه الأديان المختلفة شرعة ومنهاجًا وسبيلاً إلى الخالق - عز وجل .

ولا يعنى هذا مجرد القبول بتجاور الأديان بعضها إلى جانب البعض الآخر ، وإنما يعنى ما هو أبعد من ذلك ، إنه يعنى التعاون والتعايش الإيجابى الفعال والتنافس فيما بينها فى تقديم الخير للناس . ويشير القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله :

﴿ .. **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وكما أن لكل إنسان شخصيته المستقلة وتفرده الذاتى - وبصمات أصابعه ما هى إلا رمز لهذا التفرد - كذلك الشعوب والأمم لها هُوياتها المتفردة ، ولها أساليب حياتها الخاصة وأساليب تعبيرها الخاصة أيضًا .

إن الوعى الحقيقى بما تشترك فيه الأديان من قيم وأخلاقيات كفيل بجعل أتباع هذه الأديان يوجهون جهودهم نحو الإقبال والتسابق على الخير بكل صوره وأشكاله . ومن شأن ذلك أن يجعلهم يدركون أن الاختلافات بين البشر أفرادًا أو جماعات تمثل مصدر ثراء للبشرية ، وأن الرابطة الإنسانية التى تربط بين البشر جميعًا - بصرف النظر عن اختلافهم فى القومية والدين والحضارة - أقوى من أى شىء آخر .

---

(١) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ص ٢٢٥ وما بعدها ، ط٩ ، القاهرة ١٩٦٥م .

إن جوهر الإنسان واحد فى كل زمان ومكان . ومهمة الأديان إبراز هذه المعانى الإنسانية للناس، فالوعى بذلك كله من شأنه أن يؤكد التقارب والتعارف بين الناس وليس التباعد والتباغض . ويشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] .

٣ـ حوار الأديان

وأود فى هذا المقام أن ألفت النظر إلى أن الإسلام قد سبق الأديان كلها بالدعوة إلى الحوار الدينى[١] . والقرآن الكريم ينبه باستمرار إلى ما تشترك فيه الأديان السماوية من مبادئ إيمانية وأخلاقية ، فهى كلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

والإسلام يبين لنا أن الرسالة الأساسية للأديان كلها واحدة فى جوهرها . ومن أجل ذلك أقر الإسلام منذ البداية التعددية الدينية فى المجتمع ـ كما سبق أن أشرنا ـ إدراكًا منه أنه لا خلاف على الهدف بين الديانات جميعًا . فكلها يسعى إلى تحقيق الخير وإقامة العدل ونشر السلام بين البشر جميعًا .

ونود أن نؤكد أن دعوة الإسلام إلى وحدانية الله المطلقة تواكبها فكرة وحدة البشر جميعًا . فالقرآن الكريم يبين لنا أن الناس جميعًا قد خلقوا من نفس واحدة وروح واحدة منبثقة من روح الله ، وأن الكرامة التى منحها الله لهم لا تفرق بين إنسان وإنسان ، وأن التكليف الإلهى لبنى آدم بعمارة الأرض وصنع الحضارة فيها تكليف موجه للناس جميعًا وليس لفئة دون أخرى ، بالإضافة إلى أن الهدف المشترك للجميع هو تحقيق السلام، وإن اختلفت الطرق المؤدية إليه .

وإذا ركزت الأديان على مهمتها الأصلية ، وهى تربية الناس على السلام ، فإنها تكون فى وضع يمكنها من الإسهام الحقيقى فى التربية الضرورية لمجتمع عالمى متعدد الأديان والحضارات ، ويجعلها فى الوقت نفسه قادرة على التصدى الفعال

---

(١) لقد سبق تفصيل القول فى هذا الموضوع فى الفصول السابقة .

للظواهر السلبية السائدة فى زماننا مثل التطرف والإرهاب والانحلال والشذوذ والإدمان وغيرها ، حيث تخلق الأديان مناخ الثقة الضرورى لتحقيق التعاون بين الشعوب والحضارات .

والإنسان المسلم الذى يلتزم باتباع تعاليم دينه على نحو سليم تكون لديه الفرصة للتوصل إلى دوائر السلام المترابطة ، وهى السلام مع النفس ومع الله ومع الآخرين، والتى توفر السكينة للأفراد والجماعات كما سبقت الإشارة إلى ذلك[1] .

ولا شك فى أن الانسجام الذى يتحقق بين هذه الدوائر عن طريق التأثير المتبادل فيما بينها هو فى نهاية المطاف ما يطمح إليه كل إنسان عاقل لديه وعى حقيقى بإنسانيته . وعندما يعيش الإنسان فى ظل هذا الانسجام فسيكون قادراً على النهوض بمهمته الحقيقية وهى أن يكون خليفة لله فى الأرض، وأن يسهم بذلك فى إقامة عالم ينعم فيه الجميع بالسلام .

وهذا التصور المثالى لعالم واحد للجميع يشترط بطبيعة الحال غرس قيمة التسامح فى نفوس الأفراد والجماعات والشعوب عن طريق التربية السليمة التى تؤكد المعنى الإنسانى الذى يشترك فيه الجميع . والمسلم مطالب دينيّا بتحقيق مبدأ التسامح ، ليس فقط على المستوى الدينى ، بل على جميع المستويات . والتسامح الإسلامى ليس مجرد تسامح حيادى يقتصر على مجرد قبول الآخر ، وإنما هو تسامح إيجابى يدفع إلى التواصل مع الآخرين والتعامل معهم على أساس من العدل والبر (الممتحنة : ٨) . والبر مفهوم جامع لكل قيم الخير[2] .

وكل إنسان ـ فى التصور الإسلامى ـ مسئول مسئولية ذاتية عن كل ما يصدر عنه . فكل امرئ مسئول عن عمله فقط مسئولية فردية، وليس مسئولاً عن عمل غيره . وكل فرد ـ كما جاء فى الحديث النبوى ـ عليه أن يتحمل مسئوليته بوعى وإخلاص كالراعى الحريص كل الحرص على الوفاء بمسئوليات رعايته فى دائرة محيطه واختصاصه :

---

(١) راجع على سبيل المثال الفصل السادس من هذا الكتاب .

(٢) راجع الفصل السابق الخاص بالتسامح فى الإسلام .

«**كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته**»[1] . وإذا أحسن كل راع القيام بمسئولياته أدى ذلك إلى تكامل المسئوليات ، وذلك فى مصلحة كل مجتمع على حدة ، وفى مصلحة المجتمعات الإنسانية بصفة عامة ، ويصب فى النهاية فى مصلحة عالم واحد للجميع ينعم أفراده بالسلام .

والحق أن العالم يتغير على الدوام ، وأن ردود الفعل لدينا على تحدياته لابد أن تتغير ما فى ذلك شك . وعلينا من أجل ذلك أن نحاول أن نجد الطرق الجديدة والأساليب الملائمة لمواجهة ذلك كله ، ولكن هذا لا يعنى بحال من الأحوال أن علينا أن ننحى كنوز تاريخنا ـ أعنى الدين والثقافة ـ جانبًا . فنحن بحاجة مستمرة إلى منارات تنير لنا سبيلنا .

كلمة ختامية

وأود فى ختام هذه الكلمة أن أؤكد أن الإسلام إذ يقر التعددية الدينية والحضارية فإنه لم يحاول قط أن يُكره مسيحيًا أو يهوديًا على اعتناق الإسلام . وتعتمد الشريعة الإسلامية على قاعدة أساسية للتعامل مع أتباع الأديان الأخرى تنص على أن لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات . والإسلام يعتبر التعددية فى المجتمع مصدر ثراء للتجربة البشرية ، فتفاعل الثقافات والأديان يمكن أن يؤدى إلى الإسهام فى خلق ثقافات مثمرة ونظم اجتماعية عادلة .

ومن هنا فإننا إذا كنا نتحدث عن عالم واحد للجميع فإنه لا يجوز أن يفهم من ذلك أنه يعنى تذويب الحضارات فى حضارة واحدة وإلغاء الخصوصيات الحضارية ، فهذا أمر غير وارد إطلاقًا . فالتمايز الحضارى والدينى من السمات الإيجابية التى ستظل قائمة على الرغم من الاتفاق فى الأهداف .

وإذا كانت العولمة التى بدأت تتغلغل فى كل أنحاء العالم بأبعادها الاقتصادية والسياسية والثقافية تعتقد أنها تستطيع أن تفرض حضارتها وقيمها وثقافتها وأسلوب حياتها فى كل مكان فى العالم دون اعتبار لخصوصيات الحضارات

---

(١) رواه الإمام البخارى فى كتاب الجمعة .

الأخرى، فإنها بذلك تخطئ الطريق، وتتجاهل الحقائق، وتسير فى اتجاه مضاد لطبيعة الأشياء ، ولا تسهم بالتالى فى بناء عالم واحد للجميع يشعر كل فرد فيه بذاتيته وإنسانيته .

إن واجب الأديان أن تتجه فى الحوار فيما بينها إلى تجنب الجدل العقيم حول العقائد وتأكيد نقاط الخلاف . وعليها بدلاً من ذلك أن تحرص على إبراز القواسم المشتركة بينها ، وما أكثرها ، ونشر التسامح بين أتباعها وتهيئة الفرص المناسبة لإحياء الأمل والتفاؤل لدى الجميع فى إمكان تحقيق عالم واحد ينعم فيه الجميع بالسلام .

***

الفصل السابع عشر

المسئولية العالمية المعاصرة
فى التصور الإسلامى

أولاً : مدخل عام : المسئولية المعاصرة

ثانيًا : المسئولية المعاصرة عن العالم فى التصور الإسلامى :

١ ـ المسئولية فى نظر الإسلام

٢ ـ الإنسان خليفة الله فى الأرض

٣ ـ الصورة القرآنية للعالم :

أ ـ العقيدة ووحدة البشرية

ب ـ حرية الإنسان ومصيره

ج ـ الإيمان والمسئولية

د ـ دوائر المسئولية

المسئولية العالمية المعاصرة
فى التصور الإسلامى (*)

أولاً : مدخل عام : المسئولية المعاصرة

إذا تأملنا عالمنا المحيط بنا فإننا نلاحظ الكثير من التغيرات الأساسية التي طرأت عليه . ويرجع السبب فى ذلك إلى أننا نحن البشر قد تغيرنا . فبعد أن كانت كل أمة تعيش فى ظل حضارة واحدة خاصة بها ومحاطة بحمايتها ومستقرة تحت لوائها نجد أننا نعيش اليوم فى عالم متداخل الثقافات متشابك الحضارات .

وقد اهتزت القواعد القديمة للجماعات بصورة حادة ، وأصبح لزامًا على الجميع فى كل مكان فى عالم اليوم أن يوطنوا أنفسهم على التعايش مع أناس مختلفين فى حضارتهم وأديانهم اختلافًا كبيراً . فالجماعات البشرية أو الأمم التى كان يُنظر إليها فى السابق على أنها جماعات غريبة ، أو لا يزال يُنظر إليها أيضًا حتى اليوم فى مناطق كثيرة من العالم على أنها جماعات غير منتمية أو حتى معادية - كما تؤكد ذلك الأحكام المسبقة التى لا تزال شائعة - لم يعد فى الإمكان اتخاذ مواقف رافضة لها بصفة عامة ، بل أصبح لزامًا على المرء أن يبذل قصارى جهده في فهمها وتقبلها على الأقل بدرجة معينة . وقد أصبح فعل ذلك أمرًا ضروريّا حتى يمكن تفادي الانهيار القاتل لسفينة هذا العالم .

(*) أصل هذا البحث قدم باللغة الألمانية لملتقى الأديان فى سانت ميرجن - فرايبورج بألمانيا فى نوفمبر ١٩٨٦م ، وقامت بنشره عام ١٩٨٧م دار نشر هردر Herder الألمانية المعروفة تحت عنوان : " Heutige Weltverantwortung in islamischer Sicht " وذلك ضمن كتاب ضم بحوث الملتقى المذكور وصدر بعنوان : Universale Vaterschaft Gottes .

والسؤال الذى يمكن أن يفرض نفسه في هذا الصدد هو :

هل المطلوب إذن أن نكون في مستوى " فوق الحضارة " ـ إذا صح هذا التعبير ـ أى فى مستوى يرتفع فوق الحضارات الخاصة ، أم أن المطلوب هو أن نزداد تأصلاً ورسوخًا فى حضارتنا الخاصة التى يمثل الدين نواتها فى كل الأحوال ؟

ألسنا في الحالة الأخيرة أيضًا سوف نتبين أننا جميعًا فى نهاية المطاف نضرب بجذورنا فى ذات الأرض ، ويرتفع نمونا عاليًا تحت سقف سماء واحدة ؟

لقد تمت زحزحة الفرد فى العالم المعاصر إلى مستوى السطحية والعزلة بسبب الصورة الآلية الميكانيكية والمادية للعالم ، وذلك بشكل غير مسبوق ، ويحاول الفرد الذى يعيش فى ظل هذه الظروف أن يعود مرة أخرى إلى جذوره في حضارته الخاصة أو البحث عن إجابات للأسئلة التى تقلقه لدى الحضارات الأخرى .

ولكننا فى نهاية الأمر لن نستطيع العثور على ما ننشده من إجابات إلا إذا نهضنا لتحمل عبء المسئولية الملقاة على عاتقنا . وهنا يبرز سؤال هام هو :

أمام مَن ومِن أجل مَنْ نحن مسئولون ؟ وكيف أَتَوَصَّلُ إلى مسئوليتي تلك ؟

إن الإنسان المعاصر ـ الذى بات قلقًا على مصيره ـ أصبح ينقض في ليله ما قام بنسجه من أفكار فى نهاره ﴿ **كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا** ﴾ [النحل : ٩٢] أو كما كانت تفعل بنيلوبى Penelope فى الأسطورة اليونانية المعروفة [١] ، ويتمسك

---

(١) يلاحظ أن هذا البحث قد أعد فى الأصل ليخاطب الأوروبيين ومن هنا يأتى الاستشهاد أيضًا بما هو معروف فى ثقافتهم .
وبنيلوبى المشار إليها كانت ـ كما ورد فى ملحمة هوميروس الشهيرة المسماة بالأوديسة ـ ملكة وزوجة لأودوسيوس Odysseus ملك ايتاكا Ithaka . وكان هذا الملك قد خرج لمحاربة أعدائه فى طروادة وطالت غيبته ، حتى ظن أنه قد مات . وفى أثناء غيابه الطويل تقدم إلى زوجته بنيلوبى كثير من العشاق يطلبون الزواج منها قائلين إن زوجها لن يعود مرة ثانية . ولكنها وفاء منها لزوجها كانت تمنى كلاّ منهم بموافقتها بعد الانتهاء من نسج بساط كانت قد بدأت فى صنعه . وكانت فى الليل تقوم باستمرار بنقض كل ما نسجته فى النهار حتى تظل وفية لزوجها تنتظر عودته . وقد عاد أودوسيوس بعد ذلك ، وانتقم من كل العشاق الذين ضايقوا زوجته أثناء غيابه .

هذا الإنسان المعاصر - من ناحية - بحريته ، ولكنه من ناحية أخرى لا يستطيع أن يظفر بهذه الحرية على نحو سليم إلا إذا تم ربطها بأصلها ، أى بخالقها وهو الله .

وينبغى أن يكون واضحًا تمام الوضوح لكل إنسان عاقل أنه يجب علينا جميعًا أن نسلك سلوكًا مسئولاً ؛ لأن السلوك غير المسئول يرتد إلينا فى نهاية الأمر فى أى صورة من الصور . فالعمل غير المسئول يترتب عليه فى عالمنا المعاصر كوارث مفزعة لا يمكن تفادى أخطارها ، نظرًا لأنه قد أضحى عالمًا صغيرًا اختصرت فيه المسافات وتطورت فيه وسائل الاتصال إلى درجة مذهلة .

أجل ، إن الأمر قد يعنى فى بعض الأحوال انحلال العالم وانهياره . ومن هنا يدخل العالم أيضًا ، بمعنىً من المعانى ، فى دوائر مسئولياتنا الكثيرة .

والأمل الذى كان يحلم به المثاليون فى كل العصور ، والذى يتمثل فى تحقيق الأخوة لكل البشر وتحقيق السلام للجميع . هذا الأمل قد أصبح اليوم يمثل بصفة عامة ضرورة تحظى بالاعتراف والتأييد بصورة لم تكن قائمة من قبل .

ولكن هل يعنى ذلك أننا قد اقتربنا حقًّا من تحقيق هذا الأمل أيضًا ؟

وكيف يمكن للفرد أن يسهم بنصيب فى هذا الصدد ؟

إننا جميعًا ، بوصفنا أعضاء في المجتمع الكبير الذى هو العالم ، يعتمد بعضنا على بعض بصورة أو بأخرى ، كما هو واضح للجميع . ومن أجل ذلك فنحن مطالبون ، كلٌ فى موقعه ، بأن نتحمل مسئولياتنا عن عالمنا الذى نعيش فيه .

ولكن كيف نفى بهذا المطلب؟ وأين هى الصورة الكلية للعالم التى يمكن أن تشبع تطلعات العقل الحديث الذى ينقض باستمرار نسيج أفكاره . تلك الصورة التى من شأنها أن توجه كل فرد إلى مسئوليته بشكل محدد تمام التحديد؟

ثم ما معنى المسئولية عن العالم فى حقيقة الأمر؟ وكيف يمكن أن يسهم الفرد بنصيب فى تحمل المسئولية عن العالم كله ، وهو الذى يتحمل بالفعل بدرجة كافية مسئوليته عن نفسه وعن أعماله أيضًا ؟

إننا إذا نظرنا من منطلق مراقب خارجى إلى مسألة الربط بين المسئولية الذاتية والمسئولة العالمية فإنه يمكن الإجابة عنها ببساطة على النحو التالى :

إن كلاً من هاتين المسئوليتين مرتبطٌ بالآخر، فكل منهما متضمن في الآخر. ونظراً إلى أن كل فرد منا عندما يتصرف حتى فى أخص خصوصيات أفعاله فإن تصرفه يكون فى داخل هذا العالم ولا يتم إطلاقًا فى فراغ، بمعنى أنه لا يتم فى مكان غير مرتبط بالعالم، ونظراً إلى أننا نعيش اليوم فى عالم مفتوح وفى مجتمعات تخضع لتأثيرات عالمية فإن المسئولية الذاتية تعد إذَن - بمعنى معيَّن - مسئولية عالمية. فكل تصرف فردى يجر وراءه دوائره الأخرى، كما أن رفض التصرف يعد أيضًا تصرفًا، وله نتائجه التى تترتب عليه.

ولكن هل الشعور المستمر بضرورة المسئولية العالمية يكفى وحده لإنتاج هذه المسئولية ؟

إن من الواضح أن الإجابة عن ذلك ستكون بالنفى، وإلا فكيف يمكن أن يحدث فى عصرنا الراهن اقتراف أبشع أنواع الجرائم وأشد أعمال العنف منافاةً للمسئولية والإنسانية على السواء باسم المسئولية عن العالم وباسم الأخوة بين البشر؟

هل يوجد هناك اليوم طريق مستقيم - ليس فقط على المستوى النظرى بل على المستوى العملى أيضًا - لسلوكٍ مسئول مسئوليةً عالمية ؟

وعلى هذا النحو يمكن صياغة مشكلة المسئولية العالمية من منظور مراقب خارجى يرصد الأحداث. ولكننا لسنا مراقِبين خارجيين؛ لأننا نحن أنفسنا نقف فى وسط الأحداث.

فكيف يكون الوضع إذَن من الداخل من خلال موقف فكرى، أى من موقف كل فرد منا ؟

إن كل فرد منا عليه أن يوجه إلى نفسه هذا السؤال. ومن الواضح أن هذا أمرٌ يتطلب الصبر وطول النفس.

والإجابة عن هذا السؤال - بالنسبة لنا نحن المسلمين - تنبثق بطبيعة الحال من منظور إسلامى . ولكن ذلك لا يعنى منظوراً محدوداً أو صالحًا فقط لجماعة معينة، وإنما يعنى منظوراً كليًا شاملاً . وهذا ما سنحاول توضيحه فى السطور التالية :

ثانيًا: المسئولية المعاصرة عن العالم فى التصور الإسلامى

١ - المسئولية فى نظر الإسلام

لعلنا نستطيع أن نقترب من الإجابة عن السؤال المطروح حول المسئولية عن العالم إذا تأملنا عن قرب كلمة مسئولية التى يدور الأمر هنا حولها .

إن الفعل «سأل» يعنى التوجه إلى طرف آخر بطلب أو مناشدة أو نداء يتطلب جوابًا، ولهذا يقال - كما فى القاموس المحيط - «أسأله سؤله ومسألته : قضى له حاجته» .

والله - سبحانه وتعالى - يقول فى القرآن الكريم للنبى - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وقد يكون النداء منبعثًا من داخل الإنسان لا من خارجه . ومن الفعل «سأل» اشتقت كلمة المسئولية . وتحمل المسئولية على هذا يعنى إعطاء رد إيجابى على النداء الذى يتضمنه السؤال . والتحلل من المسئولية فى المقابل يعنى إعطاء رد سلبى على هذا النداء .

والمسئولية من الصفات التي تلازم صاحبها من قبل أن يبدأ الفعل إلى ما بعد انتهائه فى مراحل متدرجة على النحو التالى :

(أ) مرحلة ما قبل الفعل : وهى مرحلة نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل . والمسئولية هنا تنظر إلى المستقبل فهى مسئولية تكليف ومطالبة .

(ب) مرحلة الإجابة لهذا النداء بالإيجاب أو السلب .

(ج) مرحلة المحاسبة والتقدير لقيمة هذه الإجابة، وتأتى هذه المرحلة بعد الفعل . والمسئولية هنا تلتفت إلى الماضى، فهى مسئولية استجواب ومحاسبة .

والإلزام الأدبى الذى ينطوى عليه نداء الواجب للشخص ومطالبته له بالعمل يعنى أن ذلك الشخص الذى يوجَّه إليه النداء له شخصيته المستقلة، وله حريته فى القبول أو الرفض، وله قدرته على تنفيذ ما استقرت عليه إرادته. والمسئولية بهذا المعنى صفة تشريف؛ لأنها مرادفة لمعانى الحرية والاستقلال والكرامة والقوة [١].

وإذا كان مفهوم المسئولية يتضمن كما رأينا الإجابة على النداء إيجابًا أو سلبًا، فإن هناك العديد من الأسئلة التى تفرض نفسها عندئذ، والتى تتمثل فيما يلى :

لمن أقدم هذه الإجابة ؟ ومن هو الذى ينادينى لأجيب نداءه ؟ وكيف أتوصل إلى تحديد مصيرى بنوع الإجابة ؟ وكيف أجيب ؟ وكيف ينبغى علىَّ، أو كيف أستطيع، أن أعرف فى حقيقة الأمر أنى أسلك بالفعل حال الإجابة سلوكًا مسئولاً؟

إننى إذا نظرت إلى هذا العالم بوصفه الحقيقة النهائية ، وليس بوصفه مجرد مرحلة أو مقدمة لعالم آخر بعد هذا العالم فإنى لا أستطيع أن أجيب فى حقيقة الأمر على هذه الأسئلة . إنها تعد أسئلة غير قابلة للحل بالنسبة لهؤلاء الذين ليس لديهم وعى دينى متفتح ، كما أنها تعد بالنسبة للكثيرين أيضًا أسئلة لا مبرر لها، وليس لها وجود حقيقى . وتتحول المسئولية الذاتية لديهم إلى مصلحة ذاتية وقتية أو إلى مصلحة الجماعة على أفضل تقدير .

ومن هنا فإن المسئولية عن العالم بالنسبة لهم تعد أيضًا - على أفضل الفروض - مصلحة عالمية . ونظرًا لأنهم محصورون فى نطاق الصورة المادية للعالم فإنهم لا يستطيعون أيضًا أن يستمروا فى طرح الأسئلة خارج هذا النطاق .

صحيح أن هناك كثيرين فى عالم اليوم على وعى بضرورة المسئولية العالمية المشار إليها، تلك المسئولية التى يصادفونها يوميًا فى حياتهم ، ولكنهم لا يثقون فى أى جهود تبذل لحل هذه المشكلة حلاً جذريًا بطريقة معقولة ، وبدلاً من ذلك ينادون بتصرف أو سلوك " عملى " ، ولكن دون ميل إلى البحث عن بواعثه عن قرب، تلك البواعث التى قد تكون مثارًا للشكوك .

---

(١) راجع : دراسات إسلامية للدكتور / محمد عبد الله دراز ص ٥٢ وما بعدها - دار القلم بالكويت ١٩٨٠ ، وانظر أيضًا كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص ٣٩ - دار القلم بالكويت ١٩٨٣م .

إننا نحن البشر - على العكس من الحيوانات - لا نسير وفقًا لغرائزنا، فنحن كائنات عاقلة . وهذا يعنى أننا نتصرف بحرية بناء على تفكير، ونسير طبقًا لما تمليه علينا عقولنا . وهذه الكائنات العاقلة لا تسير خلف أى قائد بلا وعى، كما هو الحال مثلاً مع القطيع من الأغنام الذى يسير خلف قائد القطيع بلا وعى ، ويحذو حذوه حتى فى الوقوع فى الهاوية .

ونحن بأعمالنا نصنع مصيرنا . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء : ١٣-١٥] .

ونحن أحرارٌ فى أن نسلك سلوكًا عاقلاً أو سلوكًا غير عاقل . وإذا أعملنا عقلَنا الواعى ، وقلْبَنا الفاهمَ فإنه ينفتح أمامنا عالَمٌ جديد . ولكن إذا اعتبرنا عالم المادة هو الحقيقة النهائية ، وَلم نحاول أن نحكِّم عقولنا ، وننظرَ إلى أبعد من عالم المادة ، فإننا سنظل حبيسين فيه أيضًا ، وسيكون مصيرنا فى النهاية هو الضياع فيه .

ولكن هذا العالم المادى ليس هو الحقيقة النهائية بالنسبة للإنسان المؤمن . ومن هنا فإن الإجابة التى نبحث عنها تعد بالنسبة له أمرًا ميسورًا واضحًا تمام الوضوح . فالمسلم الثابت على عقيدته ، الراسخ فى إيمانه ، الذى لا يسلم زمام أمره لهذا العالم ، وإنما يسلم أمره لله وحده ؛ لأنه هو الذى يهديه إلى سبيل الرشاد ، ومن أجل ذلك فهو - سبحانه - محل ثقته المطلقة - هذا المسلم يدرك بذلك أنه بسلوكه وأعماله كلها - سواء كانت أعمال القلب أو أعمال الجوارح - لا يقدم إجابته (التى تتضمن مسئوليته الشاملة) لهذا العالم المادى ، وإنما يقدمها لله وحده - وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الأنعام : ١٦٢-١٦٣] .

فالله وحده هو الحقيق بالتوجه إليه ، والاعتماد عليه ، وتفويض الأمر كله إليه ، فالمرجع والمصير إليه ؛ لأنه رب كل شىء :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .

وهكذا فإن المطالبة بالمسئولية - فى نظر الإسلام - تعد مطالبة بتقديم إجابة حرة . فكل إنسان فى موقعه ، وفى اللحظة المناسبة عليه أن يصوغ إجابته (مسئولياته) فى حرية . وهنا تكمن الصعوبة أيضًا فى تقديم إجابات جاهزة للآخرين . فالصلة بين الإنسان الفرد والله صلة شخصية مباشرة لا تحتاج إلى واسطة . ومن هنا فإن النموذج المثالى يرفض التقليد إلا إذا كان مبنيّا على اقتناع .

فالإسلام يحث على الاستقلال فى الفعل ، ويؤكد النبى - صلى الله عليه وسلم - هذا المعنى حينما ينهى عن التقليد فى قوله :

«لا تكونوا إمَّعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنّا ، وإن ظَلَموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا»(١) .

فكل فرد عليه أن يبحث بنفسه عن الإجابات المناسبة بسلوكه المسئول . ولكن مشكلة الإنسان المعاصر تكمن فى توقفه قبل الأوان عن طرح الأسئلة ، وفى اعتقاده أنه يملك بالفعل الإجابات التى يبحث عنها .

ونعيد مرة أخرى طرح السؤال الملح من جديد : كيف يقدم الإنسان الإجابة الأصيلة بالسلوك المسئول ، ولمن يقدمها ؟

إن كل امرئ يتأمل موقفه الإنسانى متحررًا من كل الأحكام المسبقة سيتضح له فى النهاية ببصيرة واعية كيف يسلك سلوكًا مسئولاً إذا لم يظل واقفًا عند الإجابات الجاهزة المعطاة له سلفًا .

إن الإنسان قد جيء به إلى هذا العالم من قوة خارجة عنه ، وهذه القوة هى التى تحفظه حيّا ، وهى التي تخرجه مرة أخرى من هذا العالم إلى عالم آخر فى وقت مجهول لديه ، وقد جاء القرآن الكريم للإنذار والتبشير :

---

(١) رواه الترمذى .

﴿ لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٢-١٣] .

ويوجه القرآن الكريم السؤال للكافرين قائلاً :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ؟ ﴾ [فاطر : ٤٠] .

إن هناك نداءً موجهًا إلى الإنسان الذى يشعر فى ذاته أنه مركز عالمه . والموقف الدينى فى هذا الصدد يطلعنا على أن الجهة التى يصدر عنها هذا النداء هى فى الوقت نفسه تلك الجهة التى تجعل للسلوك الإنسانى معنى . فما الذى نعرفه عن هذه الجهة ؟

إننى إذا رأيت صورة من الصور المرسومة أدرك أن شخصًا ما قد قام برسمها ، فإذا تأملتُ العالم من حولى تأملاً واعيًا فإنى أرى فيه أثر الخالق(١) . ولكن هذا أمر يحتاج إلى قلب فاهم وعقل واع . والإسلام لا يعرف مؤسسات وسيطة بين الله والإنسان . فهناك الوحى القرآنى فقط الذى جاءنا عن طريق النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ والقرآن الكريم يقول لهؤلاء الذين يبحثون عن الهداية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

٢ ـ الإنسان خليفة الله في الأرض

وإذا كنا نتحدث عن المسئولية الشاملة فى نظر الإسلام فإن هذا يتطلب أيضًا

---

(١) تعد معرفة وجود الله من القضايا المحورية فى تاريخ الفلسفة . ويرى فلاسفة عديدون فى الشرق وفى الغرب أن هذه المعرفة مغروسة بالفطرة فى النفس الإنسانية . وفى ذلك يقول الغزالى : " وصورة آدم . . مكتوبة بخط الله . . ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمى عن معرفة ربه ، إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه " (مشكاة الأنوار ص ٧١) . وفى الاتجاه نفسه يقول ديكارت : " والحق أنه لا ينبغى أن نعجب من أن الله حين خلقنى غرس فىَّ هذه الفكرة (فكرة وجود الله) لكى تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته " (التأملات لديكارت ـ ترجمة د . عثمان أمين ص ٤١) .

معرفة موقف الإسلام من قضية الحرب والسلام بصفة عامة ، ويقتضى معرفة دور الإنسان نفسه فى هذا الكون حتى تتضح أمامنا معالم الصورة التى يرسمها الإسلام لتلك المسئولية الكلية .

إننا إذا تأملنا كلمة " إسلام " ذاتها فسنجد أنها مشتقة من الأصل ذاته الذى اشتق منه لفظ " السلام " . والإسلام فى جوهره دين جاء لينشر السلام فى العالم . وإذا كان قد أذن بالحرب فإن ذلك يأتى فقط فى حدود خدمة هذا السلام ، وترسيخ قواعده . ومن هنا فإن الإسلام لم يشرع الحرب إلا لصد العدوان .

فالقتال فى سبيل الله ـ الذى كتبه الله على المؤمنين ـ لا يجوز أن يُوجَّه إلا ضد هؤلاء الذين يمارسون العدوان على المؤمنين ويعكرون عليهم صفو السلام ، ولكن المسلمين لا يجوز لهم أن يبدءوا بالقتال . وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى صراحة ووضوح :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

والمسلمون ملزمون بوقف القتال ضد العدو إذا أبدى ميلاً إلى السلام ، وذلك استجابة للأمر الإلهى فى قوله – تعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنفال : ٦١] .

والإسلام لا يكتفى بصد العدوان ، بل يطالب فى الوقت نفسه بالعمل الجاد لإقامة السلام وإقرار موازين العدل ، فليس هناك طريق وسط بين الخير والشر . ومن ليس مع الله فهو فى الجانب المضاد لله . ومن أجل ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ [النساء : ٧٥] .

أى : وفى سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .

إن الحياة فى هذا العالم سريعة الزوال ، والشىء الذى يبقى هو العمل الصالح . ويصور لنا القرآن الكريم أمر هذه الحياة أبلغ تصوير فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : ٤٥-٤٦] .

ويقول القرآن فى سورة لقمان :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [لقمان : ٢٢] .

فإذا أحببنا هذا العالم الذى أمرنا الله بإعماره ، فينبغى أن نفعل ذلك ونحن على ذكر من أن كل الخيرات والطيبات التى نتمتع بها فى هذا العالم تأتينا من عند الله ، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وفضلاً عن ذلك فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد سخر للإنسان كل شىء في السموات والأرض ، لعل ذلك يكون داعيًا له إلى التفكير فى هذه النعم التى لا تحصى ولا تعد . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

ومن الأمور البديهية فى هذا الصدد أن هذه النعم الإلهية التى أنعم الله بها على الإنسان ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمطالبة الإنسان ألا يهمل خلق الله المسخر له ، بل يجب عليه أن يتحمل مسئوليته فى الاهتمام به والعناية بشأنه . ولهذا فإن مسئولية الإنسان عن هذا العالم تشمل الخلق كله ولا تنصب على البشر فقط ، بل تشمل

أيضًا الحيوان والنبات والأرض كلها . ومسئولية الإنسان إزاء هذا العالم وإزاء الخلق كله - الذى يعتمد عليه الإنسان أيضًا - لا ينبغى أن تعرف حدودًا تقف عندها . ولذلك يقول الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم :

«إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل»(١) .

ألا يعنى ذلك أنه طالما نحن عاملون على هذا النحو والأمل يحدونا من أجل عالَمنا أننا نسلك سلوكًا مسئولاً على مستوى المسئولية العالمية ؟

إن الإسلام إذ يطلب من المسلم التوجه إلى الله والخضوع لأمره فإن ذلك لا يعنى على الاطلاق الاعتزال عن العالم أو الانسحاب منه ، بل على العكس من ذلك يقتضى هذا الطلب أن يدرك الإنسان إدراكًا واعيًا أن هذا العالم هو المجال الذى هيأه الله للإنسان لأداء مهمته فى هذه الحياة ، وبذلك يكون سلوكه على مستوى المسئولية العالمية .

فالإنسان - كما يشير القرآن الكريم - (البقرة : ٣١) خليفة الله فى الأرض . وقد أعطى الله العقل للإنسان ليمكِّنه من أداء المهمة التى أنيطت به فى هذا العالم . والله الذى جعل الإنسان خليفة له فى الأرض هو رب هذا الإنسان ، ومن أجل ذلك فله حق الطاعة المطلقة على الإنسان . وهذه الطاعة لله هى التى تحدد مصير الإنسان .

والقرآن الكريم يشير إلى أن الإنسان عندما أضله الشيطان وأغراه وعصى آدم أمر ربه ، كان مصيره الخروج من الجنة ، وإحلال العداوة بين بنى البشر محل السلام والسعادة . وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - :

﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ [البقرة : ٣٦] .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ١٣ ص ١٩١ (انظر طبعة اسطنبول : الكتب الستة مجلد ٢٢) .

ثم اتجهت عناية الله مرة أخرى للإنسان الذى طُرد من الجنة ، فغفر له وبيّن له طريق الهداية ، ووعد السائرين فى هذا الطريق بأحسن العواقب :

﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٨] .

إن المؤمن الحق يقف بكُلِّيته فى الحاضر لا يخشى المستقبل ، ولا يحزن على الماضى ، وسلوكه سلوك هادف ومسئول وفعال . والمسئولية العالمية أمر لا ينفصل عن تكوين الإنسان ، وهى التي تميزه تمييزاً جوهريّا عن بقية المخلوقات الأخرى التى أبت جميعها ـ بما فى ذلك السموات والأرض ـ أن تتحمل أمانة التكليف والمسئولية بكل ما تحمل هذه المسئولية من معنى . ولكن الإنسان وحده هو الذى أبدى الاستعداد الكامل لحمل هذه الأمانة :

﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

وقد عقب القرآن على ذلك مباشرة بقوله عن الإنسان فى هذا الموقف :

﴿ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ ، أى : كان شديد الظلم لنفسه بما حمله من أمانة ثقيلة ، جهولاً بقدراته وإمكاناته وبما يطيق حمله .

وقد تعجب الملائكة حين أخبرهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ بإرادته التى قضت بجعل الإنسان خليفة له فى الأرض فقالوا :

﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

وقد أجابهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله :

﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

فقد علم آدم الأسماء كلها (البقرة : ٣١) ومنحه عقلاً يعرف به سنن الله فى

هذا الكون ويدرك به طبيعة الأشياء ، وهيأ له الأدوات التى تساعده على الوفاء بمسئولياته فى إعمار الكون وصنع الحضارة فيه ونشر السلام فى كل مكان .

٣ ـ الصورة القرآنية للعالم

(أ) العقيدة ووحدة البشرية

نحن جميعًا ندرك مدى ما يعانيه الإنسان من التمزق النفسى أو الانشقاق الداخلى ، ويرجع السبب فى هذه المعاناة إلى أن الإنسان من ناحية قد أبى إلا أن يتحمل المسئولية التى أشفقت من حملها السموات والأرض بما يترتب عليها من تبعات ضخام فى إقامة العدل وإقرار الحق والالتزام التام بأمر الله . ومن ناحية أخرى نجده واقعًا تحت ضغوط عديدة من الشهوات والميول والنزعات وقصور العلم وقصر العمر وحواجز الزمان والمكان ، والتى تحول جميعها دون المعرفة الكاملة ورؤية ما وراء الحواجز والآماد . ومن هنا كان الإنسان ظلومًا لنفسه، جهولاً لطاقته[١] . فكيف السبيل إلى حل هذا الإشكال ؟

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى يعلم كل صغيرة وكبيرة فى هذا الوجود ويعلم خطرات النفس وما تخفى الصدور ـ لن يخفف عن الإنسان ضغط هذه المعاناة إلا إذا اتجه إليه الناس فى كل سلوكهم وفكرهم وأعمالهم وعادوا مرة أخرى مقرِّين بربوبيته وحده ـ سبحانه ـ ذلك الإقرار الذى هو مغروس أصلاً فى فطرتهم . كما يعبر القرآن الكريم عن ذلك فى قوله ـ تعالى :

﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

والصورة القرآنية للعالم تشتمل على المؤمنين فى جانب والكافرين والمنافقين فى الجانب الآخر ، يقول الله ـ تعالى :

---

(١) راجع : فى ظلال القرآن لسيد قطب ج٥ ص ٢٨٨٤ وما بعدها ـ طبعة دار الشروق .

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٢] .

ولكن هاتين الجماعتين من المؤمنين والكافرين ليستا منفصلتين انفصالاً تامّا عن بعضهما البعض . فالطريق إلى الإيمان مفتوح باستمرار أمام الجميع ؛ لأن الله غفور رحيم . . وطريق الإيمان مفتوح لكل الناس ؛ لأن هناك وحدة أساسية قائمة بين الناس جميعًا . ويشير القرآن الكريم إلى هذه الوحدة فى كثير من الآيات ، ففى سورة النساء مثلاً نقرأ قول الله ـ تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [النساء : ١] .

ونظرًا لأن الله قد خلق الناس جميعًا من نفس واحدة ، فإن المؤمن بطبيعته منفتح بصفة أساسية على العالم وعلى غيره من الناس الذين يشكلون الأجزاء الكثيرة الأخرى لذاته هو ـ إن صح التعبير ـ .

وهكذا يمكن القول بأن السلوك المسئول للإنسان يعنى خطوة متقدمة على طريق وحدة البشر وذلك بتحقيق معرفة هذه الوحدة ، فالجميع أبناء آدم .

ومعرفة الوحدة النهائية لكل البشر تسير جنبًا إلى جنب مع تحقيق هذه الوحدة فى ترابط ووئام وحب متبادل مع إخواننا فى الإنسانية ، ويتمثل ذلك فى سلوكنا المسئول .

وبمعرفتى للوحدة الأساسية مع كل الناس ـ عن طريق ارتباط نفسى بنفوسهم وعن طريق انفتاح وعيى الدينى ـ يتحول بذلك سلوكى إلى سلوك مسئول ، أى : سلوك واع بمسئوليته مدرك لواجباتها .

والإنسان المتدين تتحقق معرفته لوحدته مع كل البشر باستعادة معرفة ذاته فيهم واعتبارهم صنواً له ، وبالسعى المستمر ـ عن طريق السلوك المسئول ـ إلى التسامح والود وفهم الآخرين وفهم معاناتهم ، والصبر الذى لا يكل مع نفسه ومع الآخرين .

والمسئولية الذاتية ـ إذا فهمت فهمًا سليمًا ـ ، تعد دائمًا مسئولية ذاتية أمام الله ،

وبهذا المعنى تعد أيضًا مسئولية عالمية، فقد خلق الله الخلائق الكثيرة، والشعوب العديدة لكى " يعرف " بعضهم بعضًا . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

ولو أراد الله ـ سبحانه ـ أن يجعل الناس جميعًا أمة واحدة لفعل ، ولكنه أراد أن يختبر الخلق بهذه التعددية القائمة :

﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ** ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وعلى الرغم من كل الاختلافات الكثيرة بين الناس فإنهم فى حقيقة الأمر متساوون ، وهم جميعًا أمام الله سواسية كأسنان المشط ، وهم يتفاضلون فقط فى درجة التقوى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وفى الحديث الشريف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

«**يا أيها الناس: ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**»(١) .

والإسلام يطلب منا أن نحقق وحدة الإنسانية ، وأن نخرجها من حيز الإمكان إلى حيز الوجود الفعلى ، وأن نتوصل إلى السلام ، بالأخوّة فى الإنسانية وفى الخضوع لله .

ومسئوليتنا التعبدية فى الإسلام، المنبثقة من الهدف الكلى للخلق المتمثل فى العبادة، كما تشير إلى ذلك الآية الكريمة :

﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات : ٥٦] هذه المسئولية التعبدية تعد أيضًا مسئولية عالمية تشمل كل المخلوقات، والبشر منهم على وجه الخصوص بوصفهم خلفاء لله فى الأرض مثلنا ، وهم بذلك إخوة لنا .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٤١١ (المكتب الإسلامى للطباعة والنشر - بيروت) انظر أيضًا سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٨٩ - طبعة اسطنبول للكتب الستة مجلد ١٤ .

(ب) حرية الإنسان ومصيره

يشير القرآن الكريم إلى أننا لا نستطيع أن نجبر أحدًا من الناس على الإيمان بالله ، فقد أراد ـ الله سبحانه وتعالى ـ أن يترك ذلك لإرادتهم الحرة . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟** ﴾ [يونس : ٩٩].

وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم :

﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف : ٢٩].

ولكن حرية الإنسان ليست حرية مطلقة . فالإنسان يستطيع أن يختار بين الخضوع لإرادة الله الذى خلقه أو البحث لنفسه عن أرباب آخرين . وفى هذه الحالة الأخيرة يكون مصيره الضياع والخسران المبين . أما كون حرية الإنسان ليست بالحرية المطلقة فإن ذلك يرجع إلى أنها محددة عن طريق إرادة الله ، ولكن هذا التحديد لا يعنى إلغاءها ، فإرادة الله ذاتها هى التى جعلتها حرة .

حقًّا يقول القرآن الكريم :

﴿ **كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [المدَّثر : ٥٤-٥٦].

ولكن هناك بعض الإشارات التى تدلنا على كيفية فهم ذلك ، فهو ـ سبحانه ـ كما تقول تكملة الآية السابقة :

﴿ **هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ [المدَّثر : ٥٦].

فالله يطلب منا أن نخشاه وأن نتقيه وأن نمتثل لإرادته ، ولكنه فى الوقت نفسه هو الغفور الرحيم الذى بيده غفران الذنوب جميعًا ما عدا الشرك :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ٤٨ ، ١١٦].

ومن ذلك يتضح لنا أن الله يتجه بغفرانه وعفوه إلى كل من يتجه إليه راجيًا عفوه وغفرانه :

﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠].

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦].

أما من يتجه بكُلِّيته إلى هذا العالم المادى ويسلم قياده إليه ، ويُعرض عن التوجه إلى الله ، فإنه بعمله هذا يكون قد حدد مصيره بنفسه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٦].

وإذا كان هذا هو مصير من يتجه إلى غير الله ، فإن للمؤمن مصيرًا مختلفًا ؛ لأنه يدرك بنور إيمانه وبصيرته ما لا يدركه الجاحد . فالمؤمن يدرك أن أصله الحقيقى لا يكمن فى مجرد تجميع تصادفى أو عشوائى لأية خلايا ، فهذه الخلايا ذاتها لا تستطيع بذاتها أن تخلق ذاتها ، فضلاً عن أن تقوم بمثل هذا العمل التجميعى المعجز .

والله وحده هو الذى خلقنا ، وخلق كل شىء ، وقدّره تقديرًا، وهو الذى يحفظ حياة كل حى ، إنه - سبحانه - ذو القدرة المطلقة التى يخضع لها كل شىء فى السموات والأرض ، والتى يتجه إليها الإنسان عندما تحيط به النوائب . ومن أجل ذلك فلا بد أن يكون مسئولاً أمامها عن كل أعماله .

ويدرك المؤمن كذلك أن عالَم المادة - الذى يمكن إرجاعه أيضًا إلى الطاقة طبقًا لأحدث النتائج التى توصل إليها علماء الطبيعة - لا يشكِّل الواقع الحقيقى . ومن أجل ذلك يدرك المؤمن أيضًا أن الصراع الذى يؤلب الناس ضد بعضهم بعضًا من أجل أشياء هذا العالم المادى ، ويجعلهم متعادين - يعد صراعًا انتحاريًا . فنحن ندمر أنفسنا إذا أخذنا أشياء هذا العالم المادى على أنها الهدف الأخير .

وبدلاً من أن نخسر ذاتنا فى هذا العالم ، ونبيع له أنفسنا لنصبح مستعبدين لأشيائه ينبغى علينا - على العكس من ذلك - أن نبيع هذا العالم الأرضى فى سبيل العالم الآخر الروحانى ، أى فى سبيل الله . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ [النساء : ٧٤] .

فهناك إذن طريقان فحسب أمام الإنسان : طريق الخير وطريق الشر . فإذا لم نجاهد فى سبيل الله فنحن نجاهد فى سبيل الشر (*)، وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة فى وضوح تام فى قوله - تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ [النساء : ٧٦] .

ولكن إذا قلنا إن هذا العالم لا ينطوى على شىء يمكن اعتباره هدفًا نهائيًّا ، فليس معنى ذلك أن الإسلام يحتقر هذا العالم المادى . فالأمر على العكس من ذلك تمامًا . فهذا العالم الذى خلقه الله وأنعم به علينا هو مجال التزاماتنا ، وهو مسئوليتنا ، فطريقنا إلى الله يمر عبر هذا العالم الذى أُمرنا بإعماره وصنع الحضارة فيه ونشر السلام فى كل أركانه .

أما الصياغة الإسلامية للمسئولية الذاتية ، وللمصير الذاتى للإنسان فتعبر عنها الآية الكريمة :

(*) لا يجوز أن يفهم الجهاد هنا فهمًا ضيقًا يقتصر على حمل السلاح الذى هدفه رد العدوان . فالمسلمون - طبقًا لتعاليم الإسلام - لا يحملون السلاح إلا إذا فرض عليهم القتال مع كراهيتهم له : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

إن الجهاد فى التصور الإسلامى يشمل جميع مناحى الحياة ، ويشمل تصرفات الإنسان نحو نفسه ونحو خالقه ونحو الناس جميعًا . ومن هنا يعد القتال بمعنى حمل السلاح جهاداً أصغر ويعد جهاد النفس جهاداً أكبر . وفضلاً عن ذلك نجد القرآن الكريم فى كثير من الآيات يقرن الجهاد بالمال بالجهاد بالنفس ، بل ويقدم فى كثير من الآيات الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس . (انظر على سبيل المثال المواضع التالية فى القرآن الكريم : النساء آية : ٩٥ ؛ التوبة الآيات ٤١ ، ٤٤ ، ٨١ ؛ الصف آية ١١) .

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ [النساء : ٨٤] .

فالإنسان مطلوب منه أن يجاهد فى سبيل الله ، وهو فى ذلك لا يتحمل إلا مسئولية عمله . ويدخل ضمن هذه المسئولية الذاتية وهذا المصير الذاتى للإنسان اعتبار الآخر صنْوًا لنا ، نحب له ما نحب لأنفسنا ، ونكره له ما نكره لأنفسنا، طالما كان هذا الآخر مشاركًا لنا فى العمل الجاد فى سبيل الله من أجل خير هذا العالم . ولهذا يقول النبى ـ صلى الله عليه وسلم :

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١) .

(ج) الإيمان والمسئولية

إن المؤمن الذى يبحث لنفسه عن السبيل إلى ترسيخ عقيدته وتعميقها والحفاظ عليها باستمرار ينبغى عليه أن يفعل الشىء ذاته بالنسبة لإخوانه فى العقيدة . ومن هنا تتضح مسئولية الذين وهبهم الله العلم والمعرفة فى تبصير غيرهم ، وتنوير طريقهم . والإسلام من أجل ذلك يقارن جهود العلماء بدماء الشهداء ، فقد ورد فى حديث شريف :

«يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»(٢) .

وهذا الموقف الذى يتخذه الإسلام إزاء العمل العلمى لا يُفهم إلا إذا أدرك المرء أن العلم فى الإسلام يجب أن يكون مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا باستمرار بالاستعداد الحقيقى لتحمل مسئولياته .

والملاحظ فى عالم اليوم ـ الذى وصل فيه التقدم العلمى إلى درجة مذهلة ـ أن

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٦٧ (انظر الكتب الستة مجلد ٤ طبعة اسطنبول) .

(٢) راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص ٣٧ ـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة (١٩٦٨) . وقد رواه ابن الجوزى فى كتاب العلل (راجع فيض القدير مجلد ٦ ص ٤٦٦ ـ دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٢) .

غياب المسئولية الأخلاقية فى مجالات العلوم والتكنولوچيا وفى التقدم بصفة عامة يؤدى إلى أخطار عظيمة تهدد البشرية كلها بالدمار .

وفى تاريخ حياة العلماء المسلمين ـ سواء كانوا علماء فى الدين أو فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو فى الطب ، أو فى أى مجال آخر من مجالات العلوم ـ يرى المرء أنهم كانوا دائمًا حريصين على التوقف عن أعمالهم عندما يحين وقت الصلاة ليقوموا بأدائها حتى يظلوا فى صلة دائمة مع الله تذكرهم بمسئولياتهم الملقاة على عاتقهم ، فالعلم ينبغى أن يكون مرتبطًا على الدوام بالأخلاق . والعقيدة والأخلاق متلازمان لا انفصام بينهما ، ويشكلان وجهين لعملة واحدة [١] .

وقد لخص النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسالته كلها فى عبارة جامعة حين قال : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٢] .

ومن هذا المنطلق يعد الموقف اللا أخلاقى أو الإلحادى لبعض العلماء فى العصر الحديث ـ الذى أنتج عالمًا يسوده الرعب والفزع ـ موقفًا مرفوضًا من العالم المسلم . والمطلوب من العالِم المسلم ـ على عكس الموقف المشار إليه ـ هو أن يوجه جهوده العلمية نحو السعىَ فى نشر السلام فى العالم باعتبار ذلك غاية نهائية لهذه الجهود العلمية ، ويتحقق ذلك بالجهاد فى سبيل الله ضد شرور نفسه وضد الظلم بصفة عامة ، وبعبارة أخرى يتحقق ذلك بالجهادين : الأصغر ، والأكبر .

ومن ذلك يتضح لنا أن الإسلام لا يعنى رفضًا لهذا العالَم أو تخليًا عنه . فالاتجاه المطلق إلى الله والتسبيح المستمر والتقديس الدائم من الأمور التى تختص بها الملائكة . أما الإنسان فإنه مطلوب منه أن يسلم نفسه لله ، ومن ناحية أخرى مطلوب منه أيضًا أن يمارس وظيفته فى هذا العالم بوصفه خليفة الله فى الأرض ، الأمر الذى جعله فى وضع متفوق على الملائكة ، ومن أجل ذلك طلب الله منهم أن يسجدوا لآدم تكريمًا له . (البقرة : ٣٤) .

---

(١) راجع العلاقة بين الإيمان والأخلاق فى الفصل الأول من هذا الكتاب .
(٢) رواه البخارى فى كتاب الأدب المفرد .

والناس جميعًا ـ بالنسبة للمسلم الملتزم بعقيدته ـ يُعَدُّون إخوة بصفة أساسية ، فقد خلق الله الناس شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ، أى لكى يحاول كل منهم أن يفهم الآخر ويحترمه ، والفرق الوحيد الذى له اعتباره فى هذا الصدد يتمثل فى درجة التقوى . فأفضل الناس لدى الله هو أكثرهم عدلاً وأكثرهم صلاحًا ، أى : أتقاهم (الحجرات : ١٣) .

والإيمان الشكلى لا يُدخل صاحبه فى عداد المؤمنين الحقيقيين . ومن هنا يقول القرآن الكريم فى شأن هؤلاء الشكليين :

﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٤] .

فعلامات الإيمان الحق هى تلك التى وردت فى سورة البقرة فى قوله ـ تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وأعمال الإنسان لا تذهب سُدى ، فالله ـ سبحانه ـ يعلم كل شىء . وكل أعمال الإنسان مسجلة له أو عليه ، ونتيجة هذه الأعمال تعود على صاحبها فى نهاية الأمر إنْ خيرًا فخير وإنْ شرّا فشر :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الجاثية : ١٥ ، الإسراء : ١٣ـ١٥ ، وفصلت : ٤٦] .

والسؤال الملح فى هذا المقام هو : كيف يجد المؤمن طريقه فى عالمنا المعاصر؟ وكيف يتحمل مسئوليته العالمية المعاصرة فى عالم توجه إليه فيه من شتى الجوانب مطالب والتزامات مختلفة أشد الاختلاف؟

لقد جاء القرآن الكريم ليبين للمؤمنين الطريق المستقيم ، ويوجههم إلى سبيل الهدى والرشاد ، فهو رحمة وشفاء ، كما جاء فى قوله ـ تعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن معيار التفاضل بين الناس يتمثل فى درجة التقوى . وتتمثل هذه التقوى فى اتجاه المؤمن إلى عبادة الله الذى خلقه ، راجيًا غفرانه ورحمته ، متوجهًا إليه بالتوبة ، ملتجئًا إليه فى كل وقت . فالله دائمًا على استعداد لأن يجيب دعاء من يدعوه .

وفى هذا الصدد يقول القرآن الكريم على لسان صالح ـ عليه السلام :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود : ٦١] .

وحياة المؤمن كلها ينبغى أن تكون عبادة متواصلة وذكرًا مستمرّا لله ، فذلك هو طريق الفلاح :

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ومن هنا يعطى الإسلام للممارسةَ العمليةَ للعقيدة فى حياة الناس ومعاملاتهم اليومية نفسَ الأهمية التى يعطيها للأسس الخمسة التى يقوم عليها الإسلام ، وهى : الشهادة ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام .

ويؤكد القرآن الكريم ذلك فى قوله ـ تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

ومن هنا لا يجوز قصر مفهوم العبادة فى الإسلام على المعنى الضيق الذى يعنى أداء الشعائر الدينية المعروفة . فكل عمل صالح يقوم به المسلم فى حياته اليومية دينيّا كان هذا العمل أم دنيويًا ـ يعد عبادة طالما قصد به وجه الله ـ تعالى ـ والقيام بحق الناس استجابة لطلب الله ـ تعالى ـ بإصلاح الأرض ومنع الفساد .

ومن هذا المنطلق نجد الإسلام يحث المسلم على الانتشار فى الأرض والعمل ابتغاء وجه الله حتى فى يوم الجمعة ، تقديراً من الإسلام لقيمة العمل الذى لا تقوم الحياة إلا به .

يقول القرآن الكريم فى ذلك :

﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وقد روى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - رأى رجلاً فى المسجد يتحامل على الناس فسأل عنه فقيل هذا عابدنا . فقال عليه السلام : ومن يؤكله ؟ قالوا : كلنا يؤكله . فقال عليه السلام : «**كلكم خير منه**»(١) .

(د) دوائر المسئولية

ومن خلال المواقف الروحية المتضمنة فى التقوى يتجه المؤمن إلى هذا العالم الذى نعيش فيه ، ويحاول كل فرد فى موقعه - بوصفه خليفة الله فى الأرض - أن يسلك سلوكًا مسئولاً معتمدًا فى ذلك على ثقته الكاملة فى الهداية الإلهية الرحيمة .

وما يمكن أن يطلق عليه الدائرة المركزية للمسئولية أو المحور الذى تدور عليه المسئولية يتمثل فى المسئولية الذاتية .

ولكن الإسلام لا يطلب من المسلم ما هو فوق طاقته . وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وفى حديث شريف يتحدث النبى ﷺ عن مسئوليتنا عن كل ما نملكه ماديًا وأدبيًا فيقول :

«**لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وماذا عمل فيما علم**»(٢) .

والإنسان لا يستطيع تحمل مسئوليته تجاه الآخرين وتجاه العالم بصفة عامة إلا إذا

---

(١) راجع : معالم الثقافة الإسلامية للدكتور / عبد الكريم العثمان ص١٤٩ مؤسسة الرسالة١٩٧٢ .
(٢) انظر : سنن الترمذى ج ٤ ص ٦١٢ (الكتب الستة مجلد ١٤ - طبعة اسطنبول) .

تحمل مسئوليته الذاتية بطريقة سليمة . والتزامات الإنسان تجاه المجتمع الإنسانى ليست التزامات مفروضة عليه من الخارج، وإنما هى التزامات مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنسانى .

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أية مسئولية . فلو لم أعدل فى حق الآخرين فإنه لا يجوز لى أن أنتظر منهم أن يعدلوا فى حقى . والإنسان الذى يتنكر لالتزاماته الأخلاقية تجاه الآخرين هو إنسان يعزل نفسه عن المشاركة الإنسانية. ونظرًا إلى أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعى محتاج إلى المجتمع الإنساني فإن هذه الحالة بالنسبة له تعد أمرًا مميتًا . ولهذا يبدو أمرًا غريبًا وموقفًا متناقضًا عندما يتنكر المرء لهذه المسئولية، ويحاول التهرب منها (1) .

وهكذا لا يجوز بأى حال من الأحوال أن يتجاهل المرء أو يتجاوز حقوق الآخرين وما لهم عليه من التزامات . وفى بعض المواقف يتوجب على المرء أن يشهد على نفسه لصالح غيره حتى يكون عادلاً أمام الله . ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾ [النساء : ١٣٥] .

وقد تحدث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن دوائر المسئولية فقال :

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته»(2) .

والقرآن الكريم يربط ربطًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض بين المسئولية الذاتية والمسئولية العالمية فى قوله ـ تعالى :

---

(١) انظر كتابنا : مقدمة فى علم الأخلاق ص٤٠ .

(٢) صحيح البخارى ج ١ ص ٢١٥ (الكتب الستة مجلد ١ - طبعة اسطنبول) .

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة : ٣٢].

وهنا تتساوى القيمة المطلقة لأى إنسان مع قيمة البشرية كلها؛ لأن الإنسان من حيث هو إنسان بالنسبة للمؤمن يعد خليفة لله. فالله قد نفخ من روحه، كما يقول القرآن الكريم :

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر : ٢٩].

وإذا لم أعرف ذاتى فى نفسى على حقيقتها - والتى لا تتمثل بأى حال من الأحوال فى الجانب المادى - فإننى لن أستطيع أن أعرف الذات فى الآخرين، بل سيكونون بالنسبة لى وجوداً ماديّا. وفى ظل هذه الظروف يكون المرء فى صراعه مع الآخرين حول ماديات الحياة مستعداً لإزاحتهم من طريقه بتدمير حياتهم.

أما إذا سلك المرء سلوكًا مسئولاً مسئوليةً ذاتية فإنه سيسلك فى الوقت ذاته سلوكًا مسئولاً مسئولية عالمية. فكلاهما مرتبط بالآخر، وكلاهما مكمل للآخر.

ومن ذلك يتضح أن موقف المؤمن لا يتفق مع المواقف السلبية. فليس يكفى أن يعمل الإنسان الخير أو أن يمتنع عن فعل الشر، بل يجب أن يكون له موقف إيجابى تجاه الظلم. فلا يجوز لنا أن نسكت عندما نرى الظلم يقع على إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد، بل يجب علينا أن نساعد المضطهدين والمظلومين - وما أكثرهم فى عالم اليوم - وذلك بقدر ما نستطيع، وأن نحاول إنقاذ من وقعوا فى محنة أو من حلت بهم كارثة. ومن أجل ذلك يقول النبى ﷺ :

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[1].

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٦٩ (الكتب الستة - مجلد ٤ - اسطنبول). راجع الهامش الذى أوردناه فى الفصل الثالث عشر عند الاستشهاد بهذا الحديث.

ويقول أيضًا :

«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، قيل : كيف أنصره ظالمًا؟ قال : تحجزه عن الظلم، فإن ذلك نصره»(١) .

والمطلوب منا ، إذا أردنا ألا نكون من الخاسرين ، هو أن نتحلى بالإيمان والسلوك القويم ، وأن نتواصى جميعًا بالحق والصبر . وفى ذلك جاءت سورة العصر تضع أمامنا هذه الحقائق لتكون دستور حياتنا ودليل سلوكنا :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١-٣] .

وقد كان الرجلان من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا التقيا لم يفترقا إلا بعد أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر .

وقد ورد عن الإمام الشافعى قوله : "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم "(٢) .

فما هو هذا الحق ؟ وما هو هذا الصبر؟ لقد تكفلت آيات القرآن بتوضيح المقصود من ذلك فى مواضع كثيرة نكتفى منها هنا بموضعين اثنين فقط كمثال لما نود الإشارة إليه .

فقد جاء فى سورة الكهف بصدد الحق قوله ـ تعالى :

﴿وقل الحقُّ من ربِّكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف : ٢٩] .

وجاء فى سورة النحل بصدد الصبر قوله ـ تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧-١٢٨] .

---

(١) رواه البخارى والترمذى وأحمد (انظر فيض القدير ج ٢ ص ٥٨ ، دار المعرفة بيروت ١٩٧٢) .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٤ ص ٥٤٧ ـ دار المعرفة بيروت ١٩٦٩ .

ويمكن فهم السلوك العالمى المسئول على خير وجه إذا نظرنا إلى الناس جميعًا فى عالم اليوم بوصفهم جماعة واحدة تستقل سفينة واحدة تمخر بهم عباب البحر، فمصيرهم مشترك .

ومن أجل ذلك يجب عليهم أن يتفادوا أى خلل يمكن أن يتسبب فى إعطاب السفينة وإغراقها . وقد صور النبى ﷺ مثل هذه الحالة تصويرًا رائعًا حين قال :

«مَثُل القائم على حدود الله والواقع فيها كمَثَل قومٍ استهَموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ مَن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[1] .

***

(١) قد سبق الاستشهاد بهذا الحديث أكثر من مرة بالنص أو بالمعنى فى مواضع مختلفة من الفصول السابقة نظراً لما اشتمل عليه من تصوير رائع يمكن اعتباره تعبيراً صادقًا بصورة رمزية عن أوضاع عالمنا المعاصر والأخطار التى تهدده وضرورة التضامن من أجل إنقاذه .

قائمة بأهم الأعمال العلمية للمؤلف

أولاً : مؤلفات بالعربية

١ ـ تمهيد للفلسفة (الطبعة الخامسة) ١٩٩٤م – دار المعارف بالقاهرة

٢ ـ المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت (الطبعة الرابعة) ١٩٩٧ – دار المعارف بالقاهرة

٣ ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ١٩٩٧ – دار المعارف بالقاهرة

٤ ـ الدين والفلسفة والتنوير (سلسلة اقرأ) – دار المعارف بالقاهرة

٥ ـ الدين والحضارة (سلسلة اقرأ) – دار المعارف بالقاهرة

٦ ـ الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك (سلسلة اقرأ) – دار المعارف بالقاهرة

٧ ـ دراسات فى الفلسفة الحديثة – دار الفكر العربى

٨ ـ مدخل إلى الفكر الفلسفى (مترجم عن الألمانية)– دار الفكر العربى

٩ ـ مقدمة فى علم الأخلاق– دار الفكر العربى

١٠ ـ مقدمة فى الفلسفة الإسلامية – دار الفكر العربى

١١ ـ الإسلام فى مرآة الفكر الغربى – دار الفكر العربى

١٢ ـ الإسلام فى عصر العولمة – مكتبة الشروق الدولية .

١٣ ـ الحضارة فريضة إسلامية – مكتبة الشروق الدولية .

١٤ ـ الإسلام وقضايا الحوار – مكتبة الشروق الدولية .

١٥ ـ هموم الأمة الإسلامية ـ دار الرشاد ومكتبة الأسرة .

١٦ـ الإنسان والقيم فى التصور الإسلامى ـ دار الرشاد

١٧ـ ثلاث رسائل فى المعرفة للإمام الغزالى (تحقيق ودراسة) مكتبة الأزهر ١٩٧٩م .

١٨ـ الإسلام فى تصورات الغرب - مكتبة وهبة

١٩ـ الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا (محاضرة) - مكتبة وهبة

٢٠ـ الإسلام والغرب - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٢١ـ الإسلام وقضايا العصر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٢٢ـ من أعلام الفكر الإسلامى الحديث - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٢٣ـ الإسلام وقضايا الإنسان - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٢٤ـ قيم منسية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٢٥ـ مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

ثانيًا : مؤلفات باللغات الأجنبية :

١ ـ فى اللغة الألمانية :

أربعة كتب هى : فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت ، مدخل إلى الإسلام ، قضايا حول الإسلام ، الإسلام وقضايا الحوار . وذلك بالإضافة إلى اثنى عشر بحثًا منشورة فى ألمانيا والنمسا .

٢ ـ فى اللغة الإنجليزية :

ترجمة لكتاب : الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك ، ثلاثة بحوث مترجمة إلى الإنجليزية منشورة فى القاهرة وبرمنجهام (إنجلترا) ونيودلهى (الهند) وهى على التوالى : دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ، الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب ، السلام فى نظر الإسلام . وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة البحوث الثلاثة الأخيرة بالإنجليزية فى كتاب بعنوان :

On Philosophy Culture and Peace in Islam

٣ـ فى اللغات الفرنسية والروسية والتايلاندية والقازاقية :

ترجمة لكتاب : الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك .

٤ ـ فى اللغتين التركية والإندونيسية :

ترجمة لكتاب : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى

٥ ـ فى اللغة البوسنية :

ترجمة لكتاب : فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت

٦ ـ فى لغات أخرى :

وبالإضافة إلى ذلك تم ترجمة بعض البحوث التى ألقيت فى بعض المؤتمرات فى أوروپا إلى الفرنسية والإسپانية والإيطالية والأوردية ، وهى على التوالى : قضية الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة ، إسهام الإسلام فى صنع ثقافة السلام ، التوحيد والنزاع فى نظر الإسلام ، السلام فى نظر الإسلام .

ثالثًا : مساهمات فى أعمال علمية أخرى :

ترجمة كتاب : بوخينسكى : «مدخل إلى الفكر الفلسفى» من الألمانية إلى العربية (دار الفكر العربى) .

والاشتراك فى ترجمة كتاب بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، إلى اللغة العربية . ومراجعة على النص الألمانى لترجمة د . إمام عبد الفتاح إمام للجزء الخاص بالعالم الشرقى من كتاب : فلسفة التاريخ لهيجل .

المحتويات

رقم الإيداع: ٨٢٧٨ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977- 09-1087-2